المرأة والاشتراكية

دار الآداب

فهرست

تقديم المعرب			٥
الاشتراكية والمرأة	بقلم	جان فريفيل	١٧
الشيوعية والزواج	«	دافيد ريازانوف	٣٣
لينين والمسألة الجنسية	«	كلارا زتكين	٧١
رأي لينين في الحب الحر	«	لينين	٨٧
حدود التصور الماركسي عن مشكلة المرأة	«	فرانسواز دوبون	٩٥
شرط المرأة في العالم المعاصر	«	جان بابي	١١٧
النضال ضد الاضطهاد الجنسي		جان — ماري بروم	١٢٣
وهلم رايش والاخلاق الجنسية الثورية	«	بوريس فرانكيل	١٤٧
مقتطفات من وهلم رايش	«	وهلم رايش	١٦٣
الفرويدية والماركسية	«	ميشيل بابلو	١٨١
مشكلات شرط المرأة الاجتماعي	«	فيدا تومسيك	٢٠١
المشكلات الراهنة للمرأة السوفياتية	«	فيرا بلشاي	٢٢٩
مسيرة المرأة الصينية	«	سيمون دي بوفوار	٢٤٣

M S Al

المرأة والاشتراكية

بقلم
لينين - ريازانوف - بابل
فريفيل - دوبوفوار - دوبون
وآخرين

ترجمة وتقديم
جورج طرابيشي

تقديم المعرب

لقد وجدت في التاريخ فلسفات تقدمية ، واخرى ثوريـــة ولا نستطيع البتة ان نزعم ان الصفة التقدميـــة او الثورية حكر للأيديولوجيا الاشتراكية العلمية كما يعتقد البعض أو يتوهم. ومؤسسا الاشتراكية العلمية كانا اول من استنكر مثل هذه النزعة الاحتكارية ، واكدا في اكثر من مناسبة ان الاشتراكية العلمية ما كانت لتوجد لو لم تسبقها فلسفات تقدمية وثورية اخرى

ولكن للاشتراكية العلمية على كل ما سبقها من فلسفات تقدمية وثورية ميزة اساسية مع ذلك هذه الميزة هي شموليتها فبالرغم من الارادة الطيبة لواضعي الفلسفات التقدمية والثورية التي سبقتها ، فان الشروط التاريخية ما كانت تسمح لهم بأن يتصورا الانسان متحرراً تحرراً كاملاً شاملاً من شتى انواع الاضطهاد ولا شك في ان تلك الفلسفات ارادت تحرر الانسان ، ولكنها لم تستطع ان توفر له التحرر الشامل ، لا لشيء الا لانها لم تستطع ان تضع يدها على كل مظاهر اضطهاده ومن جذورها لقد كشفت تلك الفلسفات عن هذا الجانب او ذاك من اضطهاد الانسان ، وفتحت بالتالي امامه طريق التحرر من هذا الاضطهاد او ذاك ولكنها لم تستطع ، وما كان في مقدورها اصلاً ان تستطيع ، الكشف عن اضطهاد الإنسان ككل ، وبالتالي وضع حد له ككل وإلى الأبد

هي اذن فلسفات تقدمية وثورية ولكن جزئية جزئية في كشفها عن مظاهر الاضطهاد ، وجزئية في حلولها التحررية والاشتراكية العلمية عندما تمثلت تلك الفلسفات ودمجتها كانت تدرك عيبها هذا : جزئيتها . ومن هنا كان

تجاوزها لها من غير ان تنكر فضلها وما هذا التجاوز الا طرح الاشتراكية العلمية لنفسها على انها ايديولوجيا التحرر الكامل للانسان ، الايديولوجيا التي تريد استئصال مظاهر الاضطهاد كافة ومن الجذور

ان العالم الذي تبشر به الاشتراكية العلمية هو عالم انسان متحرر نهائياً من العذاب انسان جديد لم تعرف المجتمعات القديمة اي نموذج قريب منه ، لان الانسان المعذب كان موجوداً دوماً في تلك المجتمعات

وبديهي ان الفضل في الكشف عن آفاق عالم متحرر نهائياً من العذاب لا يعود الى عبقرية مؤسسي الاشتراكية العلمية وحدها وانما هو ايضاً التطور التاريخي الذي جعل مثل تلك الآفاق معقولة وقابلة للوجود فمع ولادة الرأسمالية ونشوء الطبقة العاملة وجدت لاول مرة في التاريخ الطبقة التي تستطيع ان تحرر نفسها من غير ان تضطهد غيرها ، بل الطبقة التي لا تستطيع ان تحرر نفسها الا اذا حررت كافة الطبقات ، وبعبارة ادق الطبقة التي لاتستطيع ان تضع حداً لعذاباتها الا اذا وضعت حداً لوجودها كطبقة وللوجود الطبقي في اي مكان من العالم هذا في الوقت الذي لم يعرف فيه التاريخ في السابق غير طبقات شبه ثورية لا ثورية مطلقة طبقات ناضلت ضد الاضطهاد ولكن من خلال اضطهادها غيرها . أفلم تحرر البورجوازية المجتمع من الاضطهاد الاقطاعي لتفرض عليه اضطهادها هي

واذا نحن فهمنا الاشتراكية العلمية بوصفها ايديولوجيا الطبقة التي تريد ان تضع حداً لعذابها وعذاب سائر الطبقات معاً ، اي اذا نحن فهمنا الاشتراكية العلمية من خلال شمولية ثوريتها ، استطعنا ان نفهم سر الاهتمام البالغ الذي أولاه مؤسسا الاشتراكية العلمية لقضية تحرر المرأة فلو نحن تصورنا امكانية تكثيف كل الاضطهادات التي عانى منها الانسان على مر العصور في اضطهاد واحد ، لقلنا ان هذا الاضطهاد المكثف هو اضطهاد المرأة ذلك ان المرأة ليست مضطهدة فحسب ، بل هي مضطَهدة المضطَهدين. ان الانسان العامل يعاني من

اضطهاد رب العمل . اما زوجة العامل فهي تعاني من اضطهاد رب عمل زوجها ومن اضطهاد زوجها معاً. ان اول اضطهاد طبقي في التاريخ هو اضطهاد الرجل للمرأة وهذا الاضطهاد هو اليوم اضطهاد طبقي مركب مركب بالطبع بالنسبة الى المرأة من الطبقات الكادحة وليس من قبيل الصدفة ان يكون مؤسسا الاشتراكية العلمية قد اكتشفا سر اضطهاد المرأة في الاحقاب ما قبل التاريخية في تطور الملكية الخاصة بنتيجة نمو انتاجية العمل[1] فتطور الملكية الخاصة هذا كان هو ايضاً السبب في انقسام المجتمع الى طبقات وفي الاضطهاد الطبقي

واذا كان ماركس قد خصص صفحات كثيرة لقضية المرأة والعلاقة بينها وبين الرجل من « مخطوطاته الاقتصادية والفلسفية »، اول كتاب « ماركسي » له ، فهذا امر له دلالته البالغة بالنسبة الى تطورات مذهبه فلقد جاء ماركس الى « الماركسية » عن طريق الفلسفة ، عن طريق ما هو انساني عام وفي تلك المرحلة الاولى من تطوره الفكري كان الهدف من الاشتراكية هو وحده الواضح بالنسبة اليه تحرير الانسان من كل اضطهاد واستلاب. ولما كان ماركس حريصاً من البداية على الا يكون من عداد الطوباثيين ، فقد اتجه ، بعد تحديد الغاية ، الى تحديد وسيلة الاشتراكية. وهكذا كان انصرافه الى النضال السياسي والبحث الاقتصادي — السياسي واذا كان ماركس ، في هذه المرحلة التالية من تطوره قد ركز جل اهتمامه حول الرسالة التاريخية للطبقة العاملة باعتبارها الطبقة المدعوة الى هدم عالم الاضطهاد القائم والى اقامة عالم اشتراكي متحرر من كل استلاب مكانه ، فهذا لا يعني ان الوسيلة قد أنست ماركس الغاية في اي لحظة من اللحظات . ولما كانت الغاية هي في نهاية المطاف مجموعة من الوسائل المفضية اليها ، فقد كان من الطبيعي ان يحصر ماركس جل اهتمامه بالطبقة العاملة وبشروط نضال هذه الطبقة للوصول الى العالم الانساني المتحرر من كل الاستلابات.

---

(١) انظر في هذا الكتاب مقالات فريفيل وريازانوف وبابي .

وما هذا العالم الانساني المتحرر من كل الاستلابات ؟ انـه عالم الانسان الذي لا تستلب احدى صفاته الجزئية انسانيته الكلية فالرأسماليـة تستلب الانسان العامل عندما لا ترى فيه غير العامل ، غير قوة الذراعين وقوة الذراعين هي بـــلا شك صفة اساسية للانسان ، ولكنها ليست كل الانسان والاشتراكية العلمية ، بالرغم من تركيزها على الطبقة العاملة بوصفها اداة التحرر ، لا تستهدف تحرير العامل وحده ، وانما غايتها تحرير الانسان اينما وجد تحرير العامل اولاً ، هـذا مؤكد ولكن ايضاً تحرير الرأسمالي نفسه فالرأسمالي باستلابه انسانية العامل يستلب انسانيته هو بالذات ومن يرضى بأن يستعبد حراً لا يمكن ان يكون هو نفسه حراً ومن شمولية التحرير هذه تستمد الاشتراكية العلميـة كما قلنا شمولية ثوريتها وهذه الشمولية التي تريد تحرير الانسان من كل الاستلابات التي يعاني منها على الصعيد العملي والواقعي ، لا يمكن ان ترتكب خطأ استلابه على الصعيد النظري ، لا يمكن ان تقدم انساناً على انسان بدلالة صفة محددة من صفاته فصحيح ان للطبقة العاملة رسالة تاريخية تتميز بها عن كل الطبقات التي سبقتها في المجتمع ، ولكن هذا لا يعـــني ان من حق اي انسان ان يستلب اي انسان باسم الطبقة العاملة. وليس في الماركسية من افضليات على صعيد الشخص الانساني، وانما فقط على صعيد المقولات الاجتماعية. أوليس هدفها في خاتمة المطاف الغاء هذه المقولات ؟

ولقد مرت مع الاسف على الماركسية مرحلة تقلصت فيها شموليتها وحيويتها يوم تحولت الى عقيدة رسمية كلية القداسة وفي تلـــك المرحلة شهدنا استلابات جديدة للانسان ، وباسم الماركسية بالذات. شهدنا استلاب ما هو انساني لحساب ما هو اقتصادي محض ، واستلاب كلية الانسان لحساب صفة محددة من صفاته فلقد كان همّ الماركسية الثورية ان تؤكد انه ليس هناك من انسان مجرد ، وانمـا هناك انسان عامل او اجير او رب عمل. واذا بالماركسية الرسمية تعكس العلاقة لتؤكد ان ليس هناك سوى عامل او اجير او رب عمل بدون اي ابعاد اخرى،

وانه يكفي بالتالي ان يحل التناقض بين العمل والرأسمال لتنحل مشكلات الانسان قاطبة . والحال ان التناقض بين العمل والرأسمال ، على اهميته البالغة ، ليس التناقض الاوحد في الوجود ، والعالم الانساني أغنى وأعقد من ان يمكن ارجاعه الى بعد واحد او تناقض واحد او استلاب واحد . ان هذا شيء لم يقل به قط مؤسسا الاشتراكية العلمية . ولكم كانت الميثولوجية في صفوف الماركسيين الرسميين ، في عهد عبادة شخصية ستالين ، يوم اكتشفت مخطوطات ١٨٤٤ ، الضائعة ! ولا غرو ان يكون ماركس في هذه المخطوطات على وجه التحديد قد تطرق بالتفصيل الى مشكلة العلاقة بين المرأة والرجل كما أكد ان الحاجة الجنسية تختلف عن اي حاجة انسانية اخرى من حيث ان موضوعها هو الانسان ، حاجة الانسان الى الانسان ، في حين ان موضوع الحاجات الاخرى هو السلع والخيرات المادية .

لقد رأى ماركس في علاقة الرجل بالمرأة الخلاصة المكثفة لاضطهادات الانسان واستلاباته ، واشار الى ان الجذر الاول لهذه الاستلابات هو تطور الملكية الخاصة . ولكن نظراً الى اننا ، في العلاقات الجنسية ، على صعيد العلاقة بين انسان وانسان ، فإن ماركس لم يقل البتة ان الغاء الملكية الخاصة سيؤدي تلقائياً وميكانيكياً الى تحرير هذه العلاقة من كل مظاهر الاستلاب . فما هو انساني لا يمكن ارجاعه بصورة آلية وبخط مستقيم الى ما هو اقتصادي ، مع ان تحرير ما هو اقتصادي هو شرط ضروري في التحليل الاخير لتحرير الانساني . وهذا يعني ، بكل بداهة ، ان مشكلة العلاقة بين الرجل والمرأة هي مشكلة نوعية ، لا يمكن استلابها اي ارجاعها الى مشكلة اخرى أعم منها .

والحق ، ان اضطهاد الرجل للمرأة ، وان كان جذره ما قبل التاريخي هو العلاقات الاقتصادية ، ليس اليوم مجرد اضطهاد اقتصادي . انه تلخيص وتكثيف وتركيب لكافة الاضطهادات التي عانى منها الكائن البشري على مر العصور . والكشف عن جذور هذا الاضطهاد يتطلب من الشمول والعمق ما

يتنافى مع اية ايديولوجيا احادية البعد ومن الممكن بسهولة قياس شمولية اية ايديولوجيا ثورية من خلال فهمها والحلول التي تقدمها لمشكلة اضطهاد المرأة وهذا ما يفسر اصلاً ان ماركس قد بدأ مسيرته الفكرية الثورية الشاملة من خلال تناوله تلك المشكلة المحددة من العام الاول الذي اصبح فيه « ماركسياً » اي عام ١٨٤٤

وما ينطبق على الايديولوجيات بصورة عامة ينطبق ايضاً على الافراد من حاملي لوائها واذا كان ماركس قد اكد ان موقف الرجل من المرأة يبين الى اي حد اصبح الانسان انساناً بالنسبة الى نفسه فإن هذا التوكيد يتخذ اهمية استثنائية في بلدان العالم الثالث التي تناضل لاستعادة شرطها الانساني المسلوب فماركس عندما ابدى رأيه ذاك انما كان يتكلم عن بلدان وفي بلدان شهدت الثورة الديموقراطية وتمتعت بمكاسبها والحق ان الماركسية قد ولدت ونمت على ارضية صلبة من التقاليد الديموقراطية التي حررت العقل البشري من اساطير القرون الوسطى وظلماتها ولقد كانت الثورة الديموقراطية البورجوازية هي اول من تنطع لتحرير المرأة والاعتراف بها ككائن انساني ومع ذلك شعر ماركس بالحاجة الى ان يبدأ بقضية المرأة لان الثورة الديموقراطية البورجوازية عجزت عن ايجاد الحل لها ، ولأن حل هذه القضية البالغة التعقيد غير ممكن إلا انطلاقاً من مواقع أشمل وأعمق ثورية من المواقع الديموقراطية البورجوازية

هذه الارضية البورجوازية الديموقراطية التي كانت متوفرة لاوروبا في القرن التاسع عشر ، تكاد تكون منعدمة الوجود بالنسبة الى الغالبية العظمى من بلدان العالم الثالث . ومن هنا فإن مشكلة تحرير المرأة تنطرح في هذه البلدان بحدة لا مثيل ، وتتطلب من الجهود اضعاف اضعاف ما يمكن ان تتطلبه في البلدان الرأسمالية المتقدمة ولعلنا نستطيع ان نقول بدون تحفظ ان الموقف من المرأة في هذه البلدان يمكن ان يكون مقياساً للأصالة الثورية والصدق الثوري ذلك ان الاصالة الثورية في هذه البلدان لا تعني التصميم على استئصال شأفة الاضطهاد

الاقتصادي والسياسي فحسب وانمـــا تعني ايضاً التصميم على استئصال كافة جذور الاضطهاد وكافة التقاليد والعادات الرجعية المتوارثة من غابر الازمان وليس من قوة ، كما يقول لينين ، كقوة العادة. وليس للعادة من قوة كما في بلدان العالم الثالث التي لم تمر بالمرحلة الديموقراطية البورجوازية ولنأخذ مثالاً عينياً.

ان كل البلدان الاوروبية التي سارت في طريق الثورة الاشتراكية اصدرت ، مع اول قرارات التأميم ، قوانين حديدة للأحوال الشخصية ، للزواج والعلاقات العائلية وحقوق المرأة والإرث وبالنظر الى قوة العادات المستأصلة فقد كان على الطليعة الاشتراكية الواعية في تلك البلدان ان تناضل في سبيل تطبيق تلك القوانين الثورية الجريئة ، وان تقنع الرأي العام بتقبلها تلكم هي القاعدة التي اتسعت: اصدار القانون اولاً ثم النضال في سبيل تطبيقه. أما في بلدان العالم الثالث التي سارت في طريق الثورة الاشتراكية فقـد كان للعادة من القوة ما حال دون اصدار قوانين جديدة للأحوال الشخصية في معظم تلك البلدان وقـد يكون السبب في ذلك نقص الجرأة الثوريـــة في بعض الحالات ، وفي بعض الحالات الاخرى ضغط الرأي العام الذي يكون ما يزال خاضعاً للتقاليد الرجعيـــة المتوارثـة ولكن النتيجة في كلتا الحالتين واحدة تناقض صارخ ومؤلم بين البنية التحتية والبنية الفوقية ، بين الملكية الجماعية لوسائل الانتاج وبين العلاقات الاجتماعية شبه الاقطاعية

وبصراحة نقول ان اصدار قانون حديد تقدمي للأحوال الشخصية يبدو من اكثر من زاوية اخطر واجرأ واكثر ثورية من اصدار قانون تأميم

وهذا لا يعني بالطبع اننا نقول بمبدأ حرق المراحل على صعيد العلاقـــات الاجتماعية وليس هناك من يطالب الثوري بـأن « يحرق » نفسه وينعزل عن الجماهير ، اذا كانت هذه الجماهير غير مستعدة بعد لمتابعـــة المسيرة الثورية حتى النهاية. ولكن من واجب الطليعة الثورية في هذه [illegible]
لا ان تستسلم للنزعة المرجئة الانتهازية

ان الاشتراكية ليست عصا سحرية يتم بها التحول المرغوب فيه بين عشية وضحاها وبطلان نظرية العصا السحرية لا ينطبق في مكان كما ينطبق في بلدان العالم الثالث ذلك ان تحويل البنية الفوقية في هذه البلدان يتطلب من الجهود والوقت والاصالة الثورية اضعاف ما يتطلبه تحويل البنية التحتية وفي مركز منقلب من البنية الفوقية تقف قضية تحرر المرأة. فبقدر مايكون تحررها مشروطاً بتحرر المجتمع ، يكون شارطاً له في الوقت نفسه وهذا التحرر ، شأنه شأن كل صيرورة ثورية ، لا بد ان تتوفر له الارادة الذاتية والشروط الموضوعية ومنبع الصعوبة في تحرر المرأة النقص في ارادته الذاتية وشروطه الموضوعية على حد سواء ومن هنا كان العبء الملقى على عاتق الثوريين في هذا المجال ثقيلاً باهظاً ، ويتطلب منهم الجرأة قبل كل شيء الجرأة لايجاد الارادة الذاتية ، والجرأة لخلق الشروط الموضوعية وفي كلتا الحالتين ، الجرأة لمواجهة الضغط الرجعي ولمهاجمته في بؤرته وعقر داره وما بؤرة الرجعية وعقر دارها الا الموقف المتوارث إزاء المرأة

وعلى صعيد الارادة الذاتية ينبغي للثوري ان يعلم ان الارادة الطيبة ، الضائعة في ابهام العموميات ، لا تكفي ومراجعة الذات ومحاسبتها محاسبة دقيقة امر ضروري . لماذا ؟ لان النقاء الثوري المطلق لا وجود له فهذا النقاء لا بد ان يكون ملطخاً ، بهذا القدر اوذاك ، بشوائب العادات المتوارثة عن اجيال واجيال من ازدراء المرأة واضطهادها وتجريدها من الانسانية . فلقد رضعنا هذا الازدراء مع لبن الأم ، وورثناه في الدم ومن اللامنطقي بعد ذلك ان نتصور اننا مستطيعون ان نتحرر دفعة واحدة ونهائية من كل الآراء المسبقة التي ورثناها بصدد المرأة . واني لا ازال اذكر « مفكراً تقدمياً » اراد مرة ان يحاضر عن تحرر المرأة ، فبدأ محاضرته وختمها بهذا السؤال « هل المرأة ملاك او شيطان؟ » ولم يخطر له في اي لحظة من اللحظات انها قد لا تكون هذا ولا ذاك ، وانما هي انسان مثله ، مثلي ، مثل سائر البشر

المرأة مساوية للرجل بالتأكيد ولكن هـل خطر لنا مرة ان نتعمق في معنى هذه العبارة ؟ هل خطر لنـــا انها تعني ان كل ما نبيحه ، نحن الرجال ، لانفسنا ، يجب ان يكون مباحاً للمرأة ؟ لزوجاتنا واخواتنا وبناتنا ؟

اننا نريد تحرير المرأة ، ولكنني اعتقد بكل بساطة انـــه ينبغي ان نبدأ بتحرير انفسنا كرجال وباعادة النظر في حقوقنا كرجال وهذه ، بـلا ادنى ريب ، مهمة صعبـــة ولكن أليس من مهمة الثوري ان يتصدى للصعوبات ويذللها ؟

ليس يكفي ان نعلن حق المرأة في المساواة انما ينبغي ايضاً ان نريد هذه المساواة من اعماقنا وينبغي ان نريدها معنا المرأة ايضاً وهذا يتطلب منهـا من الجرأة بقدر ما يتطلب منا

وعلى صعيد الشروط الموضوعية ، لا اعتقد ان هنـاك من يماري في ان بناء القاعدة الماديـــة للاشتراكية سيكون له الاثر الحاسم في صيرورة تحرر المرأة ولكن هل بناء هذه القاعدة المادية بالسرعة المطلوبة ممكن بدون مساهمة المرأة ؟ لنأخذ الشعب العربي على سبيل المثال اننا نتباهى احياناً ونعيّر احياناً (بعد الخامس من حزيران) بأننا مئة مليون. ولكن هذا ليس الا مجرد رقم احصائي. اما في الواقع فاننا لسنا اكثر من خمسين مليونـاً ، ما دامت المرأة ما تزال عندنا « ـ مة » ! وحتى نتأكد من بطلان الرقم الاحصائي ول ، يكفي ان نذكر ان اكثر من ٣٠ ٪ من مجموع العاملين في الصناعة في البلدان الرأسمالية المتقدمة هم من النساء ، وان ٤٥ ٪ من العاملين في الصناعة في البلدان الاشتراكية المتقدمة هم من النساء

ولعل من نوادر العصر قول البعض كيف نفتح مجالات العمل امام النساء والعمل غير متوفر توفراً كافياً للرجال؟ولعل اطرف مافي هذه الحجة انهاتعكس الآية فبدلاً من ان يكون العمل مصدر غنى ورخاء للمجتمع تصوره لنا تلك الحجة وكأنه عبء على المجتمع ! ومثل هذا المجتمع هو ، والحق يقال مجتمع

فريد من نوعه في تاريخ الاجتماع مجتمع يرفض العمل الذي يقدمه اليه ابناؤه

اننا لا ننكر بالطبع ان هناك مشكلة بطالة في البلدان المتخلفة ، ولكن علاج البطالة لم يكن في يوم من الايام عدم العمل ، وانما كان علاجه دوماً المزيد من العمل والمزيد من حسن التنظيم للمجتمع واولئك الذين يريدون منع المرأة من العمل حتى لا تزاحم الرجال لا يمكن ان يكونوا في حال من الاحوال من الاشتراكيين ، لانهم يفترضون سلفاً ان تنظيم المجتمع سيبقى كما هو

ويبقى مع هذا كله سؤال هل يكفي، لتحرير المرأة ، اعادة تنظيم المجتمع اقتصادياً ونزع الملكية الفردية لوسائل الانتاج وبناء القاعدة المادية للاشتراكية؟

اعتقد اننا اجبنا على هذا السؤال فيما تقدم ، وبالنفي لان مشكلة اضطهاد المرأة كما قلنا مشكلة نوعية وحلها غير منوط ميكانيكياً بحل المشكلة الاقتصادية . ان المرأة في المجتمع الطبقي ليست عبدة ، بل هي عبدة العبد ، مستعبدة الرجل المستعبد ولن يتغير وضعها كثيراً اذا اصبحت مستعبدة الرجل الحر

واذا لم تستطع الايديولوجيا الثورية ان تستوعب هذه المشكلة النوعية ، فقدت الكثير من شموليتها وبالتالي من ثوريتها وعلى وجه التحديد لان الماركسية الرسمية عانت من مثل هذا الفقر في الماضي فقد ولدت مناهج جديدة لتحاول ان تحل ما لم تستطع الماركسية الرسمية ان تحله هكذا ولد التحليل النفسي ، وهكذا تطور علم الاجتماع ولقد آن الاوان لتعيد الماركسية دمج هذه المناهج وغيرها بها فعن طريق مثل هذا الدمج يصبح في مقدورها ان تواجه المشكلات النوعية للشرط الانساني ولهذا على وجه التحديد ثبتنا في هذا الكتاب مقالات لكتاب يؤمنون بأن الماركسية والفرويدية لا تتقفان على طرفي نقيض

كلمة اخيرة

ان المقالات المجموعة في هذا الكتاب لا تزعم انها تستوفي موضوعها

الاشتراكية والمرأة » وبعض الحلول المقترحة فيها قد لا تحظى بتأييدنا التام. ولكن يكفينا منها ان تطرح المشكلة اولاً ، وان ترسم بعض نقاط الاستفهام امام اذهاننا ثانياً، وان تطور اخيراً ذلك النقد الذي بدأته مخطوطات ١٨٤٤» والذي توقف مع الاسف لاسباب غير مقبولة واذا ما لاحظ القارىء ان هذا النقد يجرّح الماضي والحاضر اكثر مما يبني المستقبل فلن يكون جوابنا الا الايديولوجيا الثورية هي دوماً وفي هيكلها الاساسي بناء من النقد ، يستشف المستقبل ولا يحدده خوفاً من الوقوع في براثن الطوباثية

١٥ — ٩ — ١٩٦٧ جورج طرابيشي

الاشتراكية والمرأة

بقلم : جان فريفيل

لا تشكل الاسرة كياناً اجتماعياً خالداً ولقد طرأت عليها تبدلات عديدة عبر القرون وهذا التطور يتحدد في التحليل الاخير بالعامل الاقتصادي

ان استعباد المرأة قد تواقتَ زمنياً مع تلك المرحلة مما قبل التاريخ التي نهضت فيها الاسرة لمعارضة القبيلة ، وتطورت فيها الملكية الخاصة ، وانقسم المجتمع الى طبقات ، ومهد الطريق لولادة الدولة بهدف السيطرة على التناحرات الطبقية

في تلك الازمنة الغابرة مما قبل التاريخ كان الرجل يتعاطى الصيد البري والبحري ، وكانت المرأة تهتم بتغذية ذريتها وبحمايتها من غوائل الحيوانات المفترسة والبرد والانواء وكانت تقطف الاعشاب وتعدها لمعالجة الامراض والجروح ، وتؤهل الحيوانات ، وتسهر على المؤونة ، وتتوجس من المستقبل وكانت هذه النشاطات المتعددة ، الاساسية ، تعطي المرأة الاولوية على الرجل ، ولا سيما انها هي المدعوة الى الحفاظ على النوع البشري فكانت هي التي تنشىء الاولاد ، وتتخذ المبادرات ، وتحدد التابوات ، وتفك الغاز الطبيعة وبذلك كانت موضع تبجيل وخوف وكان الرجل يقدر سجاياها وينصاع لأوامرها فهي مساوية له اجتماعياً وفكرياً ، ان لم نقل انها كانت تفوقه

وهكذا دخلت المرأة في عالم الاساطير والخرافات متسربلة بالصفات

والامتيازات التي كانت وقفاً عليها في العصور البدائية فكانت الآلهة المسؤولة عن التناسل والخصب ، او المانحة الذكاء ، والعرافات اللائي يقرأن المستقبل ، والجنيات والساحرات المقلدات سلطة فائقة الطبيعة ، من الجنس المؤنث. وبذلك كانت المرأة ، واهبة الاسرار والمعجزات ، تجسد قوى ما وراء الطبيعة ، القوى الساحرة الغامضة

وفي عصر نظام الامومة كانت النساء يتمتعن بسلطة فائقة ، إذ كان الانتماء للأم ، والاولاد يتبعون قبيلة الام

ثم جاء اكتشاف النحاس والبرونز والحديد ، وصنع الاسلحة والادوات المعدنية ، وولادة الحروب التي اصبحت المصدر الرئيسي للربح وللتزود بالقوت ، ليرفع من شأن الذكر ، وليعكس رأساً على عقب التقسيم القديم للعمل ، وليحط الى مرتبة ثانوية اعمال المرأة المنزلية ومع اتساع نطاق الملكية الخاصة ، وتراكم الثروات ضمن الاسرة ، ووجود رغبة متنامية في الاغتناء المتواصل ، انطرحت مشكلة انتقال الخيرات ولما كان الاب هو مالك الاسلحة والادوات وقطعان الماشية والعبيد ، فقد اراد ان يكون ورثته اولاده والحال ان خيرات الاب ما كانت تذهب ، في ظل نظام الامومة ، الى اولاده الذين كانوا ينتمون الى قبيلة الام ، وانما الى اشقائه وشقيقاته وجاهد الرجل لانزال المرأة عن كرسي مجدها ، وشهر السلاح طيلة قرون لينزع من المرأة سؤددها وقد حملت المرأة السلاح بدورها لتذود عن وضعها ومركزها ولكن الغلبة كانت في النهاية للرجال الذين كانوا يرغبون في ان يكون مركزهم الاجتماعي متناسباً مع دورهم الاقتصادي

وهكذا تم الغاء الانتماء النسوي وحق الامهات في الوراثة وحل الزواج الموحد محل الزواج المتعدد او المؤقت واصبح الرجل هو وحده الذي يتمتع بحق فسخه وحلت محل نظام الامومة الاسرة الرعوية ، القائمة على اساس هيمنة الرجل الذي يريد ان تكون أبوة اولاده صافية لا غبار عليها حتى يورثهم

خيراته وهكذا عرف الجنس المؤنث هزيمتـه التاريخية الكبرى واستقرت الهيمنة للرجل الذي صار ينظر الى المرأة على انها اداة عمل وانجاب وبدلاً من ان تكون تابعة لدائرة ابيها ، اصبحت تابعة لدائرة زوجها وصارت تُقايَض مقابل ماشية او اسلحة وامست كل بادرة خيانة زوجية منها تعاقب بالموت ، لانها بعملها هذا تزرع الشكوك حول شرعية ابناء زوجها

ومذ ذاك لم تكف المرأة ، عبر الانظمة العبودية والاقطاعية والرأسمالية عن معاناة اضطهاد مزدوج اضطهاد ضمن اطار المجتمع اضطهاد ضمن اطار الاسرة

وقد كرست الاديان والتشريعات الدائية تبعية المرأة هذه ، وقضت عليها بألا تكون لها من مهمة غير الانسال. فشريعة مانو وكتاب موسى يأمران بهجر الزوجة العقيمة. وكتب الهند المقدسة تحرم المرأة من الحق في الحرية وفي امتلاك الثروة ويقول سفر الجامعة « لقـد وجدتُ المرأة اشد مرارة من الموت » ولم يعاملها الاغريق بأفضل مما عاملتها شعوب الشرق، فقد كان في وسع الاب او الوصي ان يفرضا عليهـا الزوج الذي يشاءان ، وكان من حق الزوج ان يقايضها او يهبها واذا كانت عقيمة ، فإن عدم هجرانها جريمة بحق الآلهة وبينما كان الرجل يكرس حياته لممارسة واجباته المدنية، كانت المرأة تعيش في عزلة مطلقة بدون اي اتصال بالعالم الخارجي واذا كان من الصعوبـة بمكان ان نجد لدى المفكرين الاغريق صرخة احتجاج على هذا الوضع المزري للمرأة ، فما اكثر ، بالمقابل، صرخات العداء للمرأة لدى الفلاسفة والكتاب الاغريق. ان فيثاغورس على سبيل المثال يميز بين « مبدأ الخير الذي خلق النظام والنور والرجل ، ومبدأ الشر الذي خلق الفوضى والظلمات والمرأة » ويعلن أبقراط ان « المرأة هي في خدمة البطن » ويصرح ارسطو بأن « الانثى انثى بسبب نقص معين لديها في الصفات » اما افلاطون فقد دعا الى مشاع النساء

ولم تعترف الحقوق الرومانية الدائيـة للمرأة بإرادة مستقلة ، واخضعتها

لوصاية الاب ، وان كانت هذه الحقوق قد تطورت فيما بعد في صالح المرأة نوعاً ما ومع مجيء المسيحية داعب النساء والارقاء امل عظيم في التحرر والانعتاق، ولكنه سرعان ما خاب عندما تحولت المسيحية من دين للفقراء والمضطهدين الى دين دولة ولقد قالها القديس بولس « ان الرجل لم يخلق للمرأه ، ولكن المرأة خلقت للرجل

ولقد عاملها آباء الكنيسة وجهابذتها على انها عدوّة . ورأوا فيها مفسدة الانسان وفخ الشيطان وهلاك الروح ولقد صاح ترتوليان « ايتها المرأة انت باب الشيطان ! » ودمغها يوحنا فم الذهب بقوله « ليس هناك بين كل وحوش الارض المفترسة من هو اشد اذى وضرراً من المرأة » وكتب توما الاكويني أن المرأة قد كتب عليها ان تحيا تحت هيمنة الرجل والا تكون لها اي سلطة ومما راد في « دنس » المرأة و « قذارة » العلاقة بين الجنسين حالة العزوبية التي فرضت على الكهنة وهذا ما دفع بالبابا بيوس التاسع الى اعلان عقيدة « الحبل بلا دنس في عام ١٨٥٤ ، مؤكداً بذلك اللعنة الابدية التي انزلت بالمرأة كمرأة

وفي العصور الوسطى كانت المرأة تعتبر ملكاً للرجل ، وكانت جزءاً من الاقطاعة ، ومصيرها بيد صاحب الاقطاعة وكان من حق « الفارس » ان يسيء معاملة زوجته وان يضربها وان يعاقبها عقاباً « معقولاً » وان يهبها ويورثها لغيره ، وحتى ان يبيعها وضماناً لوفائها كان يحبسها في « حزام العفة » اذا ما اضطر الى السفر ولم يكن للأم اي سيطرة على ابنها منذ بلوغه السابعة من عمره،وكان من حقه ان يعلن نفسه راشداً ووصياً على امه بالذات اذا توفي والده.

هذا عن وضع المرأة في الطبقة السائدة اما زوجة القن فلم تكن اكثر من دابة ركوب ، بائسة ، محتقر ، جاهلة ، مسحوقة تحت وطأة الاقطاع

ولم يعدل عصر النهضة شرط المرأة الحقوقي ولكنه ادى الى تطورات كبيرة على صعيد الاعراف والاخلاق فلقد تراجعت التقاليد الاقطاعية

والسكولائية امام هجمة الصبوات الجديدة وروح البحث والاختراع والنزعة الفردية والانسانية وبذلك اكتسبت المرأة نوعاً من الاستقلال ، وشاركت في الحياة الفكرية ، ووجدت من يدافع عنها وقد فضح ايراسم طغيان الرجال « الذين يعاملون المرأة كما لو انها دمية ويجعلون منها غسالة او طباخة في خدمتهم » ولكن تلك المواقف المناصرة للمرأة كانت حالات نادرة ومعزولة.

وكان على بنت الشعب في العصر الوسيط ان تكتفي بأجر متدنٍ للغاية وكانت الطوائف المهنية تعارض عمل النساء وتبذل جهدها للقضاء على مزاحمة كانت تعتبرها خطرة واذا ما منحت المرأة في بعض الاحيان حق العمل ، فإنها كانت تحظر عليها الارتفاع الى مستوى « المعلم او « الاسطى وبذلك حكم على المرأة بأن تلتزم بيتها وبأن تكتفي بالاجر الزهيد الذي تدره عليها اشغالها المنزلية ومع قيام الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر اتيحت لعدد متزايد من النساء امكانية العمل ، ولكن الآلات الجديدة قضت في الوقت نفسه على الاشغال اليدوية التي كانت وقفاً على النساء كالغزل والحياكة ، وبذلك اشتدت حمى المزاحمة وشاعت البطالة وتدنّت اجور اليد العاملة النسوية

وقد ألغت الثورة الفرنسية في عام ١٧٩٠ حق الكورية واباحت الطلاق في عام ١٧٩٢ ولكنها رفضت ان تتسع كوندورسيه الذي طالب في عام ١٧٨٩ بمنح المرأة الحقوق المدنية

وهذا بالرغم من ان نساء الشعب لعبن دوراً حاسماً في تلك الايام العظيمة الحاسمة التي تقرر فيها مصير الثورة فعاملات الضواحي وبائعات سوق الخضار هن اللاتي اقتحمن في الخامس والسادس من تشرين الاول ١٧٨٩ ابواب المجلس البلدي مطالبات بالخبز ، ثم زحفن على قصر فرساي بأعداد قدرت بـ ٨٠٠٠ امرأة وبهذا المعنى يقول ميشليه اذا كان الرجال قد استولو على الباستيل ، فإن النساء قد استولين على المملكة

وعندما صدر اعلان حقوق الانسان نشرت اوليمب دي غوج احدى

مؤسسات الحركة النسوية ، اعلان حقوق المرأة

ان المرأة تولد حرة وتظل مساوية للرجل في الحقوق... ومبدأ كل سيادة يكمن جوهرياً في الامة التي ليست هي غير اجتماع المرأة والرجل...والمواطنات جميعاً، والمواطنون جميعاً، المتساوون امام القانون ، ينبغي ايضاً ان تفتح امامهم ابواب المناصب والوظائف العامة كافة ، حسب كفاءاتهم ودونما تمييز غير فضائلهم ومواهبهم ان من لمرأة ان تصعد الى المقصلة ، لذا فمن حقها ايضاً ان تصعد الى المنبر ايتها النساء ، استيقظن

لكن قائدات المنظمات النسوية الاولى —اوليمب دي غوج وروزلاكومب— قضين نحبهن تحت شفرة المقصلة وقد قررت حكومة الثورة حل وحظر الجمعيات النسوية كافة

وفي الوقت الذي فتح فيه المجال واسعاً امام الرأسمالية ، بعد الغاء العراقيل الاقطاعية ، لاستغلال اليد العاملة « الحرة » ولخفض الاجور عن طريق استخدام النساء والاطفال ثبتت الدولة البورجوازية نظام الاسرة ، ركيزة العهد البورجوازي

فقانون نابليون المدني جعل المرأة المتزوجة تحت وصاية زوجها ، انطلاقاً من انها ملك لزوجها الذي تنجب له اولاداً كما تثمر شجرة الكمثرى لمالكها كمثرى وقد صرح نابليون امام مجلس الدولة: « ان الطبيعة قد جعلت من نسائنا عبدات لنا ومن حق الزوج ان يقول لزوجته سيدتي ، لن تخرجي اليوم ! لن تذهبي الى المسرح ! لن تري هذا الشخص او ذاك ! وبعبارة اخرى سيدتي ، انت ملكي روحاً وجسداً !

ولقد عبر بلزاك عن وضع المرأة هذا بقوله

ان قدر المرأة ومجدها الاوحد ان تجعل قلوب الرجال تخفق المرأة ملك يمكن اقتناؤه بالتعاقد ، ملك منقول وليست المرأة في خاتمة المطاف

وبدقيق العبارة غير ملحق للرجل »

ولقد وصفت روايات بلزاك بدقة وصدق سيطرة المال على حيـــاة الاسرة البورجوازية ، وكان معظم ابطاله من الوصوليين الذين يبحثون عن زوجة غنية تقوم بأودهم !

وقد عكس الادب الرومانسي وكتابات الاشتراكيين الطوبائيين خيبة الآمال التي كانت معقودة على المجتمع الجديد الذي بشر به فلاسفة عصر الانوار وقـد عمق سان سيمون وفورييه في فرنسا وأوين في انكلترا الانتقادات التي صدرت عن مادبي القرن السابق فأدانوا ذلك المجتمع الفوضوي ، الاعمى ، الغاشم ، الذي حلت فيه سيطرة طبقـة محل سيطرة طبقة اخرى ، والذي نمت فيـــه أسمالية من خلال التناحرات الاجتماعية وفوضى الانتاج ، والذي داع فيـــه بؤس الشعب وافترس البشر بعضهم بعضاً وتأبدت عموديه المرأة القديمة

كان ديدرو قد رثى لوضع النساء « ان قسوة القوانين المدنية تجاه النساء قد انضمت الى قسوة الطبيعة » وكان هلفتيوس ودالامبير قد طالبا باعتبارهن متساويات مع الرجل وقد تبنت الاشتراكية الطوبائية تراث الموسوعيين هذا ورفعت صوتهـا محتجة على المصير الذي آلت اليه المراة في المجتمع البورجوازي واقترحت حلولها

وقد حاول السان سيمونيون بوجه خاص ان يحرروا المرأة من العبء الذي ترزح تحته ، فنادوا باعادة الاعتبار للمتع الجسية انطلاقاً من فكرة ما خلقه الله لا يمكن ان يكون رجساً وان الجسد ، شأن الروح ، من خلق الله ولكن عيب السان سيمونية يكمن في عدم اعتمادها على تحليل طبقي فكانت تنظر الى المرأة لا من خلال وظيفتها الاجتماعية ، وانما من خلال وظيفتها الجنسية وبوصفها رمزاً للجسد الذي كانت المدرسة السان سيمونية تتغنى به ولقد ارادت هذه المدرسة تجديد المجتمع بواسطة مذهب صوفي — شهواني ومن هنا كانت الخيبة العميقة التي انتهى اليها اعضاؤها

اما فورييه ، بما عرف عنه من خيال حي ولذاعة هجاء وحس رفيع بالعدالة فقد طالب بانعتاق المرأة وبالمساواة الحقوقية بين الجنسين وبحرية العواطف. وهو يرى ان الفلاسفة غمطوا « حقوق الجنس اللطيف الذي يدمر اضطهاده العدالة من اساسها » وخير الامم هي تلك التي تمنح النساء القدر الاكبر من الحرية ذلكم هو المعيار الحقيقي للتقدم الاجتماعي وقد قال في كتابه « نظرية الحركات الاربع

« ان التقدم الاجتماعي والتغيرات المرحلية تتم حسب تقدم النساء نحو الحرية ، وانحطاط النظام الاجتماعي تابع لنقصان حرية النساء ان توسيع امتيازات النساء هو المبدأ العام لكل تقدم اجتماعي

ان النساء قادرات ، شأن الرجال تماماً ، على شتى انواع الاعمال وعندما تتاح لهن امكانية اظهار طاقاتهن الطبيعية ، فإنهن يعادلن الرجال ويتجاوزنهم وعن ذلك يقول فورييه في « العالم الصناعي والشركوي الجديد »

« ان التناغم لن يقترف كما اقترفنا نحن حماقة استبعاد النساء من مجالي الطب والتعليم ليحبسهن في اشغال الابرة والخزف فهو يدرك ان الطبيعة توزع على الجنسين ، بحصص متساوية ، قابلية العلوم والفنون وعلى هذا فإن الفلاسفة الذين يريدون بهتاً وعدواناً ان يستبعدوا احد الجنسين عن مجال من المجالات هم اشبه بأولئك المعمرين الاشرار الذين يزعمون ، بعد ان يكونوا قد بلّدوا بالتعذيب زنوجهم المبلدين اصلاً بالتربيـــة الهمجية ، ان هؤلاء الزنوج ليسوا على مستوى الجنس البشري ان رأي الفلاسفة بالنساء صحيح بمقـــدار صحة رأي المعمرين بالزنوج »

وقد رفع فورييه صوته في نقـــده « الحضارة » — خامس مراحل التطور الانساني — ضد التجارة والزواج اللذين يجعلان السؤدد للكذب والرياء ، الكذب في العلاقـــات الاقتصادية ، والرياء في العلاقات الجنسية. والزواج ، القائم على « مضاربات شرهة » ، ينمي « الانانية ، ماهية الرباط الزوجي » ، ويذل المرأة

حتى قبل انعقاده لأنه يوجب على الفتاة ان تعرض نفسها كبضاعة لا بد لها من شارٍ مهما يكن الثمن وهكذا تتم تجارة الاجساد تحت ستار القانون

أليست الفتاة بضاعة معروضة للبيع لمن يريد المساومة على اقتنائها وامتلاكها لحسابه؟ أوليس قبولها بالرباط الزوجي كاذباً واضطرارياً بحكم طغيان الآراء المسبقة المتسلطة عليها منذ نعومة اظفارها

وينشد الرجل هو الآخر في الزواج مصلحته وعلى هذا فإن البيع يسر الرجل والمرأة على حد سواء « ان تعهدين اثنين في التجارة الزوجية يعدلان فضيلة »

بيد ان فوريه، شأنه شأن سائر الطوبائيين، خلط بين تحرر المرأة والاباحة الجنسية، وهو لم يدرك ان تحرر المرأة رهن بالتطور كان كل ظنه ان هذا التحرر مرهون بحرية العواطف والعلاقات الجنسية وحدها

والحق ان ايديولوجيا الطوبائيين تعكس تلك المرحلة من الرأسمالية التي يحاول فيها الخيال ان يسد بنزواته نقص النضج في الشروط الموضوعية ولهذا كان اقصى ما يمكن للطوبائيين ان يفعلوه هو ان يتخيلوا حنات وهمية

ان المرأة التي تريد ان تحرر النساء، لا بد ان تتوجه الى البروليتاريا. هكذا فعلت فلورا تريستان عندما طالبت العمال في « الاتحاد العمالي » (١٨٤٣ ان يعقدوا ازار النصر لمبدأ المساواة بين الرجل والمرأة

« اقيموا البرهان، انتم المطالبين بالعدالة، على انكم عادلون، منصفون اعلنوا، انتم الرجال الاقوياء، انتم الرجال ذوي الزنود العارية انكم تعترفون بالمرأة عدلاً لكم »

وتجاوباً مع اعلان حقوق الانسان يجب ان يصدر اعلان حقوق المرأة .

---

(١) « نظرية الحركات الاربع » ص ١٩٢

أم فقط « ستتحقق الوحدة الانسانية

فكرة ربـــط قضية المرأة بقضية العمال لم تكن تعـدو في اذهان ... ، ان تكون اكثر من توكيد مجرد ، غارق في الصبوات الفوريية لأحلام الرومانسية. ومن هنا كانت فلورا تريستان تؤمن بافتداء المرأة للشعب وببعث المجتمع من جديد عن طريق الحب

« في الحق اقول لكم واقول لكم انكم لن تكونوا احراراً الا متى عرفتم كيف تحبون، وأنى لكم ان تعرفوا ذلك ما دمتم لاتريدون ان تتعلموا شيئاً من المرأة »

ومع ماركس وانجلز غادرت قضية المرأة عالم الاوهام والشطحات الكريمة. فهما لم يتخيلا الحب او مدناً فاضلة ، ولم يؤمنـا بفضيلة المواعظ المؤثرة ان تناغم الاسرة وتفتح شخصية المرأة وسعادة الطفل امور مستحيلة ضمن اطار المجتمع البورجوازي

ان مبدعي الاشتراكية العلميـــة يعلمان ان على الرجال والنساء ان يخوضوا معارك ضروساً وان يربحوا هذه المعارك قبل ان يحققوا انسانية منعتقة، منسجمة مع نفسها ، مستمدة قوتها من وحدتها التي ستكون قد عادت اليها اخيراً وعلى هذا فإن مشكلة المرأة لا يمكن ان تنفصل عن مجموع المشاكل الاجتماعية ولقد حل ماركس وانجلز هـذه المشكلة بربطها بالنضال الطبقي وبالتحويل الثوري للعالم .

عـ عرض ماركس لاول مرة في « الصحيفة الرينانية » في عام ١٨٤٢ كاره الزواج ، لم يكن له من العمر غـــير اربع وعشرين سنة ولم يكـ طور الذي قاده بعد عامين الى الشيوعية كان قـد انطلق من لكنه كان قد بدأ يبتعد عن الهيغليين الشباب وكان هؤلاء قـــد شكلوا في برلين جماعة المنعتقين » مع ماكس شتيرنر وبعض الاباحيين ممن كان تطرفهم اللفظي يقنع بحياة بوهيمية ومـــا كان في وسع ماركس ، الذي راح

يخوض المعركة ضد الرجعية البروسية والذي كان قد خطب حبيبته فون و التي سيقترن بها في حزيران ١٨٤٣ ، الا ان يدين لفظيـة « المنعتقين » و المنحلة

وقد حدد ماركس موقفه ، في المقالين اللذين نشرهما في «الصحيفة حول موضوع الاسرة ، من قضيتي الزواج والطلاق ، مؤيـــداً حداً الاو وحرية الثاني

وفي المقال الاول ، المؤرخ في ٩ آب ١٨٤٢ ، هاجم ماركس مدرسة الحقوق التاريخية ومؤسسها هيغو وفي المقال الثاني ، المؤرخ في ١٥ تشرين الاول ١٨٤٢ انتقد مشروع القانون البروسي بصدد الطلاق ، ودحض فكرة هيغل عـن قابلية الزواج للحل ، مؤكداً ان الزواج ليس مفهوما من المفاهيم كما يزعم هيغل بل هو واقعة اجتماعية

وفي « المخطوطات الاقتصادية والفلسفية » المعروفـــة باسم « مخطوطات ١٨٤٤ » كرس ماركس صفحات رائعة للعلاقة بين الرجل والمرأة ، مؤكداً ان هذه العلاقة هي المعيار الاول لدرجة التقـدم الاجتماعي ، داحضاً فكرة مشاع النساء التي كانت تقول بها « الشيوعية الامية » مميزاً الغريزة الجنسية عن الحاجات الطبيعية الاخرى من حيث ان موضوعها او غذاءهـــا هو كائن انساني يشعر ويتألم ، لا شيء جامد عديم الشعور ، عديم الانسانية

وفي « العائلة المقدسة » (١٨٤٥ اجهز ماركس مرة واحدة واخيرة على فلسفة الهيغليين الشباب المثالية التي كانت تحاول ان تتستر بالالفاظ الكبيرة على النظام القائم وكان احد هؤلاء الشبان ، سزيليغا ، قد رفع الى عـــالي السماء رواية اوجين سو « اسرار باريس » وقد شبه ماركس « الافكار » التي يعظ بها رودولف ، بطل اوجين سو ، بـ «نزوات» فوريبه المغرقة في خياليتها. واوجين

---

(١) تفصيل آراء ماركس هذه معروض في المقال التالي بقلم د. ريازانوف

سو ، المنتفخ بالادعاءات شبه الاشتراكية وبنزعة حب المجتمع العامية ، بعيد كل البعد عن « اعتبار شرط المرأة العـــام في المجتمع الحديث شرطاً لا انسانياً » ومواعظه وثرثراته المرائية لا تفعل من شيء سوى انهـا تموه ظلم الطبقة السائدة وانانيتها وقسوتها ويعارض ماركس هذه المواعظ والثرثرات بالانتقادات الـتي وجهها الطوبائي فورييه الى الاسرة البورجوازية ، وبوصمة العار الـتي وصم بها فورييه الزواج البورجوازي

واذا كانت دروب الفلسفة هي التي قادت ماركس الى الشيوعية ، فإن انجلز وصل اليها عن طريق الملاحظة الاجتماعية والاقتصاد السياسي وعندما التقيا في باريس في آب ١٨٤٤ ، لاحظا التوافق التام بين افكارهما

لقد وصف انجلز في «موقف الطبقة الكادحة في انكلترا» الشروط الاقتصادية والاجتماعية المتولدة عن تطور الصناعة بؤس العمال ، الادمان على الكحول ، الفسق والفجور ، انحلال الاسرة ، الانحطاط الجسماني والمعنوي

« عندما يوضع الناس في موقف لا يصلح الا للحيـوان ، لا يبقى امامهم الا ان يتمردوا او يسقطوا في الحيوانية والبورجوازية هي اقـل الناس حقاً في لوم الطبقة العاملة على فظاظتها الجنسية »

ان النساء والاطفال هم الضحايا المفضلة للرأسمالية. فأصحاب المغازل والمناسج يفضلون النساء على الرجال لانهن « يعملن وباجور اقل ولقد كانت عاملات الحرير ، في مدينة ليون في عام ١٨٣١ ، يعملن في الصيف من الساعة الثالثـــة صباحاً حتى الليـل ، وفي الشتاء من الساعة الخامسة صباحاً حتى الحادية عشرة مساء ، اي سبع عشرة ساعة في اليوم في ورشات رطبة ومظلمة ولهذا كانت اعداد كبيرة منهن تسقط في براثن السل

هذا هو الوضع الذي حاربه ماركس وانجلز وانما في « البيان الشيوعي »

---

(١) انجلز « اصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة » ص ١٢٦

وجد النقد الماركسي للزواج البورجوازي أحدّ واكمل تعبير له وفي هذا البيان اكد ماركس وانجلز ان المجتمع الاشتراكي اللاطبقي هو وحده الذي سيحرر المرأة ويلغي كل بغاء أسواء كان رسمياً ام غير رسمي

وفي « الرأسمال » يفكك ماركس آلية الاقتصاد الرأسمالي، ويفضح جرائم الطبقة المالكة التي تجمع زهرة ارباحها من دم النساء والاطفال. وينوه في الوقت نفسه بالناحية التقدمية لدخول النساء على هذا الشكل الجماعي الى المصانع. ذلك ان الصناعة الكبيرة ، بهدمها العائلة القديمة ، وبتحريرها المرأة والطفل من سلطة الزوج والاب ، تمهد لظهور اسرة جديدة لن تكون فيها المرأة مجرد امة ومن هنا كان ماركس البشيرالصادق بتحررالنساء الحتمي من خلال تحرر البروليتاريا.

ان ماركس ينطلق من العالم الواقعي ومن حركة التاريخ الجدلية فالتناقض بين العمل الجماعي في المصانع وبين التملك الفردي لوسائل الانتاج سيؤدي الى تمرد القوى المنتجة على الملكية الرأسمالية ونظام المشروع الحر والربح يولد البروليتاريا ، عدوته اليوم ، وحافرة قبره غداً ، البروليتاريا المؤلفة من رجال ونساء لا يمكنهم التحرر الا اذا حرروا في الوقت نفسه سائر فئات المجتمع

ان المساهمة في الانتاج والتحرر من الاستغلال الرأسمالي هما المرحلتان الاساسيتان لتحرر المرأة ويوم تتهاوى دكتاتورية الرأسمال وتنتصر الطبقة العاملة ، تسقط عن المرأة كل قيودها ، الحقوقية والسياسية والاقتصادية ذلك ان العبودية التي ترزح المرأة تحت نيرها في المجتمع البورجوازي لن تزول الا مع زوال هذا المجتمع

وبالطبع هذا لا يعني ان افكار ماركس عن دور المرأة ومستقبلها قد فرضت نفسها بسهولة وسرعة فقد كان عليه ان يحارب ، في اوساط الطبقة العاملة وفي الاممية الاولى بالذات ، التأثير الهدام للبرودونيين الذين كانوا يريدون ستبعاد المرأة عن الانتاج . أفلم يكتب معلمهم برودون

« ان الرجل والمرأة ليسا بعدلين وفارق الجنس يقيم بينهما فاصلاً شبيهاً

الفاصل الذي يفيمه فـارق العرق بين الحيوانات وعلى هذا ، وبدلاً من ان اصفق لما يسمى اليـوم بتحرر المرأة ، اميل بالاحرى ، اذا ما اقتضت الامور هذا التطرف من جانبي ، الى وضع المرأة تحت الحجر ذلك ان المرأة بطبيعتها وقدرها ليست لا شريكة ولا مواطنة ولا موظفة عامة »[1]

وما اقرب تصورات برودون هذه،المميزة لروح المالكالصغير المحب للطغيان العائلي ، إلى تصورات الايديولوجيين المغرقين في الرجعية من امثال بونالد الذي كتب يقول « ان النساء ينتمين الى الاسرة لا الى المجتمع السياسي ، ولقـد حلقتهن الطبيعة للمهام البيتية لا للوظائف العامة »

وقد تمكن ماركس ، رغم انـف البرودونيين الذين يريدون حجز المرأة في البيت من تحقيـق النصر لوجهة نظره في مؤتمر الاممية الاول في جنيف في ايلول ١٨٦٦

ولقد جاءت ثوره باريس في عام ١٨٧١ والدور البالغ الاهميـة الذي لعبته فيها النساء ليؤكدا صحة موقف ماركس من قضية تحرر المرأة فلقد شاركت اكثر من عشرة آلاف امرأة في الدفاع باستبسال عن الكومونة ، وتألفت منهن جمعية سم « اتحاد النساء للدفاع عن باريس وللعناية بالجرحى » ، وحاربن جنباً الى جنب مع الرجال ، وأقمن المتاريس ، وسقط منهن عدد كبير من الشهيدات.

ولقد عاد ماركس الى الاهتمام بقضية المرأة والاسرة عندمـا نشر لويس مورغان في عام ١٨٧٧ كتابه عن « المجتمع القديم » ولقد اراد ماركس ان يكتب كتاباً عن تاريخ الاسرة ، ولكن الموت عاجله ، فتـولى انجلز تنفيذ المشروع ، وهكذا كان كتابـه الحاسم الاهمية « اصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة » الذي بيّن فيه انجلز بصورة لا تقبل نقاشاً ارتباط عوديـة المرأة بظهور الملكية الخاصة

---

(١) برودون « مذكرات حول الملكية »

والحق اننا لو استعرضنا الصفحات التي كرسها مؤسسا الاشتراكية العلمية لقضية المرأة والاسرة والزواج والحب خلال اربعين عاماً من نضالها الفكري والسياسي لتبينّا ان موقفها كان حازماً ومتماسكاً منطقياً من البداية وان كان قد اغتنى وتوضح مع مر الزمن ويمكن تلخيص هذا الموقف على النحو التالي

ان الانسان ، على مر تاريخه ، يتحرر من الحيوانية ولقد كان في الأزمنة ما قبل التاريخية عبداً لعناصر الطبيعة ودمية سالبة ورويدا رويداً حل الانسان الطبيعي انسان اجتماعي ، انسان لم ينِ وعيه عن النمو ولم تنِ سيطر على الطبيعة تزداد ولقد اعتبر ماركس منذ عام ١٨٤٤ ان موقف الرجل المرأة يحدد « درجة تحول سلوك الانسان الطبيعي الى سلوك انساني »

ان النزعة الانسانية الماركسية هي كفاح يخوضه الانسان ليتطور وليستكمل ابعاده ، كفاح ضد تقاليد الوجود الطبيعية والاجتماعية المفروضة عليه والمطلوب منه ان يبدلها

والحب ، ذلك التفتح الرائع للشخص الانساني ، مهـــدد بخطر مزدوج ، اجتماعي وفردي العبوديات الخارجية النابعة من علاقات الانتاج ، ونداءات الغريزة الغاشمة وفي كل المجتمعات الطبقية التي توالت على مر العصور اضطهد المرأة واستغلت ، وسحق الحب واضطهد وضرب عليه التحريم وكرد فعل على الرياء البورجوازي الاخلاقي تغنى البعض احياناً بالنزوات الجنسية ، و ان الاباحية انما تعكس فساد المجتمع البورجوازي اذ ان الفرد العاجز عـــن الانعتاق من العبوديات الاجتماعية يصبح عبد الغريزة

لقد فضح ماركس وانجلز الاكراه الاقتصادي الذي تخضع له الرأسماليـــة العلاقات بـين الرجل والمرأة ، وفضحا كذلك التمرد الفوضوي عـــلى البورجوازي فقد اخذ هـــذا التمرد شكل ادانة لوحده الزواج ، شكل « شيوعية جلفـة » تدعو الى مشاع النساء والى اباحة معممة تفضي الحر الى « بغاء عام » .

ان حرية الحب الحقيقية ، حرية الزواج ورفاهية الاسرة ، مشروطة بنهاية النظام الرأسمالي ذلك ان حرية الزواج وبالتالي حرية اختيار شريك الحياة لن تتحقق الا يوم تلغى الملكية الخاصة وتلغى معها الاعتبارات الاقتصادية التي ما تزال تلعب الى اليوم دوراً حاسماً في اختيار ذلك الشريك

ذلكم هو الفتح العظيم للماركسية لا يمكن ان تتحرر المرأة الا بانتصار الاشتراكية ، ولكن لا اشتراكية ايضاً بدون مساهمة المرأة الفعلية

كتاب « الشيوعية والمر

« مختارات من النصوص الماركسية »

الشيوعية والزواج

بقلم داڤيد ريازانوف

(نشر هذا النص لداڤيد ريازانوف في الاتحاد السوفياتي في عام ١٩٢٦ على الارجح . وهو جزء من مناظرة دارت آنذاك بمناسبة اصلاح قانون الاسرة السوفياتية ، ولكنه ايضاً نص متكامل لانه يتطرق الى مشكلة الحياة الجنسية انطلاقاً من وجهة نظر ماركسية ولعله يجدر بنا ، قبل ان نضع هذا النص في اطاره التاريخي ، ان نذكر كلمة عن مؤلفه ، داڤيد ريازانوف

ولد ريازانوف في اوديسا عام ١٨٨٩ ونظم في وقت مبكر حلقة ماركسية في تلك المدينة وبعد ايقافه وادانته وسجنه هاجر وعمل في تحرير صحيفة « بوربا » وفيما بعد رفص ان يختار بين البلاشفة والمناشفة واثناء الحرب العالمية تعاون مع صحيفة « ناشي سلوفو » وانتمى في عام ١٩١٧ الى الحزب البلشفي وقد اصبح رئيساً لنقابات بتروغراد بعد انتصار ثورة شباط ثم اسس « معهد ماركس – انجلز » الذي كان يشرف عليه يوم نشر « الشيوعية والزواج » وفي عام ١٩٣٠ أقيل من هذا المنصب وبعد عام واحد اعتقل وفصل من الحزب بتهمة انه منشفي ، وهي تهمة غير صحيحة بالرغم من انه تبنى في بتروغراد موقفاً توفيقياً يدعو الى المصالحة بين المنشفيك والبولشفيك. وتاريخ وفاته غير معروف ، فقد اختفى شأن الكثيرين غيره ، اثناء « التطهيرات الستالينية .

ان « الشيوعية والزواج » ينطلق من اعمال انجلز وماركس عن اصول الاسرة لكن هذا النص يأخذ في عين الاعتبار في الواقع المحاولات التي جرت بعد عام ١٩١٧ ، وينبغي ان نذكر هنا بالمراحل التي مر بها تطور قانون الاسرة البولشفية

قبل ثورة اكتوبر كان وضع العائلة ما يزال محدداً ، على الصعيد الحقوقي ، بمجموعة من القوانين مسماة « سفود زاكونوف » وكان النظام القيصري قد حاول في عام ١٩١٠ ان يجري اصلاحاً ، لكن الاصلاح لم يُقر ، وثورة شباط نفسها ابقت على مؤسسة مخلفة من القرون الوسطى ومن قبيل ذلك على سبيل المثال ان الاهل كان مسموحاً لهم بحبس من يعصاهم من اولادهم ! وتنص قوانين « سفود » على ان الزواج سر مقدس ، ولا يمكن ان يعقد إلا امام سلطات اكليريكية والزواج المدني غير موجود وبعض الزيجات بين اتباع ديانات مختلفة محظرة ولما كان الطلاق لا وجود له فقد كان الازواج الراغبون في الطلاق يتحولون عادة الى الدين البروتستانتي

وقد افضت ثورة اوكتوبر ، فيما افضت اليه ، الى الغاء جميع خصائص التشريع القديم فمرسوم ١٠ تشرين الثاني ١٩١٧ الغى الامتيازات والمؤسسات الخاصة بالمناطق واقر مرسوم ١٨ كانون الاول حرية الطلاق والغى مرسوم ٢٠ كانون الاول ١٩١٧ صلاحية الزواج المعقود امام السلطات الدينية باستثناء الزيجات التي سبقت صدور المرسوم. واخيراً قرر مرسوم ٢٣ كانون الثاني ١٩١٨ الانفصال التام بين الكنيسة والدولة وابعد الكنيسة عن تربية الاطفال المدرسية.

هذه المجموعة من المراسيم تشكل بمجموع ما المرحلة الاولى من تحول الاسرة الروسية ، وبتعبير ادق المرحلة الجذرية وقد وجدت فيها صحافة البلدان البورجوازية مادة للتندر والسخرية فتحدثت عن « شيوعية النساء » ، تلك الصورة الكاريكاتورية التي سبق لانجلز ان رد عليها في النقطة ٢١ من مسودة مشروع بيان الحزب الشيوعي فقد كتب : ان النظام الشيوعي « سيحول

العلاقات بين الجنسين الى علاقات خاصة صرفة ، لا تتعلق الا بالاشخاص الذين يقيمونها ويحظر على المجتمع التداخل فيها وسوف يكون هذا التحول ممكناً مع الغاء الملكية الخاصة وتربية الاطفال تربية مشتركة وتهديم الاساسين الرئيسيين للزواج الراهن تبعية المرأة للرجل وتبعية الاولاد للاهل ذلكم هو الجواب على كل صيحات ذعر الاخلاقيين البورجوازيين بصدد مشاع النساء الذي يريد الشيوعيون ادخاله على حد ما يزعم

اما المرحلة الثانية فهي نشر قانون حقيقي عن الزواج والاسرة والوصاية وقد نشر القانون في ايلول ٩١٨ ودخل حيز التنفيذ في كانون الاول ، واهم نقطة فيه تأسيس الزواج المدني

ونص ريازانوف الذي بين ايدينا يتعلق بالمرحلة الثالثة ففي عام ١٩٢٦ اقرت لجنة عموم روسيا قانوناً جديداً دخل حيز التنفيذ في ١ كانون الثاني ١٩٢٧ وقد ميز هذا القانون بين نوعين من الزواج:الزواج المسجل والزواج غير المسجل، والزواج غير المسجل هو زواج الامر الواقع فالاشخاص المعنيون يعتبرون انفسهم متزوجين والادلة القانونية على زواجهم هي « أ – السكنى المشتركة ب – وجود اقتصاد مشترك بعامل تلك السكنى المشتركة ج – الكشف عن وجود علاقات زوجية امام اشخاص آخرين وفي المراسلات الشخصية ، وكذلك حسب الظروف ، الدعم المادي المتبادل والتربية المشتركة للاولاد » واذا ما قام البرهان على زواج الامر الواقع (او غير المسجل) تكون قيمته الحقوقية مثل قيمة الزواج المسجل وقد نص قرار اتخذته في عام ١٩٢٨ المحكمة العليا للجمهورية الروسية السوفياتية على اعتبار زواج الامر الواقع مشروعاً حتى ولو بقي سرياً وبالفعل ، ان الزواج بالنسبة الى المحكمة هو « اتحاد حر ومفتوح لرجل مع امرأة »

اما الطلاق فحر واذا ما تزوج احد الزوجين من دون أن يكون قد سجل طلاقه عن زوجه السابق ، يكون الطلاق ساري المفعول تلقائياً .

وحتى يسجل الزواج يجب ان يكون قائماً بين ازواج بلغوا الثامنة عشرة وطابعه الشرعي لا يعطيه قيمة اكبر من الزواج غير المسجل وكل ما هنالك انه يتضمن بعض الشروط مثل الشرط الخاص بصحة الزوجين ان الاشارة في نص ريازانوف الى الحفاظ على العرق تستدعي الابتسام لكن ربما كان علينا ان نذكر هنا بالمستوى الصحي المتواضع آنذاك للسوفياتيين) ويحافظ الازواج من القوميات المختلفة على قوميتهم الاصلية ، ويختارون اسماً مشتركاً ، إما اسم الرجل وإما اسم المرأة (كان قانون ١٩١٨ ينص على حل ثالث الجمع بين الاسمين)

اما المرحلة الرابعة فتبدو رجعية بالنسبة الى المراحل الثلاث السابقة وقد بدأت في عام ١٩٣٤ مع استصدار قانون ضد الجنسية المثلية يخالف السياسة المتحررة التي شهدها عام ١٩١٧ ثم تلاه قانون عن حماية الام والطفل ، ثم عن تحريم الاجهاض في عام ١٩٣٦ وقد اصلحت مراسيم ١٩٤٤ القانون القديم اصلاحاً جذرياً ، اذ لم يعد الزواج غير المسجل معترفاً به ، ووضعت للطلاق شروط صعبة

والمقال الراهن يعطينا فكرة عن الدور الذي لعبته السياسة في تبديل الاخلاق وفي ايجاد اخلاقية جديدة على صعيد الحياة الجنسية الفردية)

اميل كوبفرمان

التصور الشيوعي عن الزواج

عرض برنامج الشيوعية العلمية عن الزواج لاول مرة في «البيان الشيوعي » فالتصور البروليتاري عن العالم معروض في هذا « البيان » ضد التصور البورجوازي و « البيان » هو نقد ، من وجهة النظر البروليتارية ، لأسس المجتمع البورجوازي بما فيها الزواج والاسرة . وفي هذا النقد كان لماركس

وانجلز اسلاف والحق انهما لم يبدعا نظاماً حديداً كل الجدة ولم يوجداه من العدم ولم يستنبطاه من طوايا عقلهما. لكنهما اعتمدا على افكار الاشتراكيين والشيوعيين المتقدمين ، ولا سيما افكار الطوبائيين الكبار امثال سان سيمون وفوريه وأوين وافكار الشيوعيين الماديين الفرنسيين

ان اعمال واهاحي هؤلاء المفكرين واقرانهم تقدم نقـــداً تفصيلياً للأسرة البورجوازية القديمة وللزواج القائم على حق الملكية الخاصة ، بحيث ان ماركس وانجلز لم يحتاجا الى تكراره فمنذ مئة عام ، وقبل « البيان » بمدة ، ثبت انه لا يوجد في الزواج البورجوازي اي عنصر من اتحاد حر ناجم عن تعلق متبادل وانه انما في حالات خاصة واستثنائية فقط يمكن لعاطفة حرة ان تشق طريقها عبر العراقيل والقيود التي اوجدها النظام البورجوازي والمضمون الاساسي لهذا النقد هو تقريظ تلك العاطفة الحرة وإعادة الاعتبار للجسد وتبريره معارضة للانحطاط الذي قاده اليه الدين المسيحي والاخلاق البورجوازية ، واعادة تنظيم الاسرة وفق مبادىء الحياة الاشتراكية الجديدة

وعندما تسربت مذاهب الطوبائيين الكبـار الى الاوساط العمالية ، بـــدأ البروليتاريون من جانبهم بمناقشة مشكلة الزواج والاسرة وقبل ان نعرض الافكار التي حامى عنها ماركس وانجلز بعد احتكاكهما بالاوساط البروليتارية لندرس تطور افكار ماركس وانجلز في مرحلتها ما قبل الاشتراكية »

ان ماركس ، شأنه شأن انجلز الذي اصبح شيوعياً قبله بمدة وجيزة ، وشأن جميع المثقفين الالمان ، كان لا بد ان يتعرض لتأثير بعض الافكار الطوبائيـة في الوقت الذي كان ما يزال فيه مجرد ديموقراطي سياسي وكان الالمان المتقدمون ولا سيما ممثلو « المانيا الفتاة » متأثرين عميق التأثر بالاصل بالمذاهب السانسيمونية عن تحرر النساء في النصف الاول من العقـــد الثالث من القرن التاسع عشر والمطلعون على الادب الروسي لاعوام ١٨٤٠ لا يجهلون النفوذ الذي كان لهذه المذاهب على اوساط مثقفينا الليبراليين قبل ان يصبحوا اشتراكيين جذريـــين

بهذا القدر او ذاك والهيغليون الشباب الروس والالمان على حد سواء ما كانوا يستطيعون القبول بمذاهب معلمهم القائلة ان الرجل يملك دائرة للنشاط خاصة به وظائف الدولة والعلم الخ ، في حين ان مهمة المرأة هي في الاسرة ، وان الزواج هو احد المبادىء المطلقة التي تقوم عليها كل حياة اجتماعية

لقد لاحظ انجلز في احد مقالاته التي كتبها وهو في العشرين من العمر مشاهد » — تموز ١٨٤٠) ستأزف قريباً الساعة التي ستأخذ فيها قلوب النساء بالخفقان من اجل المثل الاعلى المعاصر بنفس القوة التي تخفق بها اليوم من اجل ايمان آبائنا الورع» و« الافكار الجديدة لن تنتصر الا عندما يرضعها الشباب مع لبن امهاتهم »

وقد أتيحت لماركس بوصفه معاوناً ثم رئيساً لتحرير المجلة الراينية » اتيحت له مرتين فرصة عرض افكاره عن الزواج المرة الاولى في جداله ضد مدرسة الحقوق التاريخية ، ثم بصدد مشروع القانون المتعلق بالطلاق

« مدرسة تفسر عار اليوم بعار الامس مدرسة تصرح بأن كل صرخة يطلقها القن تحت السوط هي صرخة متمردة في حين ان السوط سوط مجمل بالسنين ، وراثي ، تاريخي ، مدرسة لا يريها التاريخ ، كما فعل إله اسرائيل مع خادمه موسى ، الا مؤخرته ان مدرسة الحقوق التاريخية هذه ، ممثلة في شخص هيغو ، مؤسسها ، تأمرنا بالخضوع لكل ما هو موجود لمجرد انه موجود »

ويدرس ماركس بالتفصيل مذاهب هيغو الذي كان « يجد كل الحكمة والاخلاق ، في مؤسسات مريبة من وجهة نظر العقل ، في العبودية والنظام المطلق ». وبالمقابل كان هيغو يصرح بأنه لاوجود « لاي شيء معقول في الزواج وغيره من مؤسسات الاخلاق والحقوق »

ولقد علمنا حديثاً فحسب ان الرقابة قد حذفت فصلاً كاملاً من ذلك المقال: الفصل المتعلق بالزواج وقد حصلنا ، بفضل احد العلماء، الاستاذ هانسن الذي

نجح في اقتناء المخطوط من لدن احـــد هواة جمع المخطوطات ، على هذا الفصل المحذوف

ان هيغو يرى ان الزواج يعتبر في غالب الاحيان مؤسسة اكثر عقلانيـة مما يبدو فيما لو درس دراسة معمقة ويضيف ماركس

« صحيح ان هيغو يتساهى بملاحظته ان الزواج يلبي الغريزة الجنسية بـل ان الاستاذ المحترم يرى ان هذه الواقعة تثبت اكثر من كل الوقائع الاخرى انـه من غير العدل التوكيد ، على طريقة كانط ، بـــأن الجسم البشري لا يمكن ان يستخدم كوسيلة لبلوغ هدف »

ويلاحظ ماركس « لكن تلبيـــة الغريزة الجنسية بطابعها الاستثنائي ، وتقييدها بقواعد شرعية ، وجمالها الاخلاقي الذي يحول غريزة الطبيعة الى اتحاد روحي ، وماهية الزواج الروحية ان هـذا كله يجعل السيد هيغو يرزح تحت وطأة هواجس كبيرة »

وحتى يسلط ماركس ضوءاً كاشفاً على « سفاهة » الاستاذ المحترم «المستهترة» يورد المقطع التالي ان الشرط الثاني الذي يقـول انه من المحرم تلبية الغريزة الجنسية خارج الزواج لهو ايضاً اكثر بعـــداً عن الصواب فطبيعة الانسان الحيوانية تتعارض مع هذا التحريم وطبيعته الفكرية تحتج بحدة اعظم ايضاً لان ... احزروا دلك !... لان الانسان يفترض فيه ان يكون كلي المعرفـة تقريباً حتى يتوقع النتيجة ، ولان محاولته تلبية واحدة من أمس حاجاتـــه في الحالات التي لا يمكن فيها فعل ذلك الا بمساعدة فرد آخر معين انمـا تعني تحدي الانسان لناسوته ومحاولة ما هو فوق طاقته »

ويتضح من هذا ان مدرسة الحقوق التاريخية تتفق في تصريحاتها، على قدمها، مع تصريحات بعض الشيوعيـين الشبان من خصوم شرف الازواج والزوجات المختوم عليه بالختم الرسمي

ان مؤسس مدرسة الحقوق التاريخية لا يرى الا الجانب « الحيـــواني » من العلاقات بين البشر ولا ينظر الا الى « مؤخرة » الصيرورة التاريخية كذلك هو شأن اصحابنا من اتباع تيرسيه الذين يقودون اليوم كتائب القلوب والعيون الى الهجوم لكسب الحـــق في الحب » والذين لا يفعلون من شيء سوى انهم يثرثرون، بنشر مسجع او لا، حول الثقافة البروليتارية، والواقع انهم لايتأملون الا « مؤخرة البروليتاريا »

ان للزواج ، في نظر هيغو ، مساوئه حتى من وجهة نظر النظام الاجتماعي فهو يفرض مهمة كأداء على الشرطة الاخلاقية والزواج في رأيـــه هو ، بوجه عام ، مؤسسة ناقصة وطبيعة الانسان الحيوانية هي الـــتي تجعل مسألة تعدد الزوجات ومسألة نظام الزوجة الواحدة وينتهي ماركس الى القول انكم لترون في اي مدرسة تتلقى التشبيبة الالمانية دروسها »

ويكشف لنا ماركس في مقاله « مشروع قانون الطلاق » جميع عيوب وجميع تناقضات مشروع البروسي المعلن في تموز ١٩٤٢ وهو يلاحظ ، فيما يلاحظ ، ان القانون لا ينظر الى الزواج على انه مؤسسة اخلاقية وانما على انه مؤسسة دينية واكليريكية وان ماهية الزواج العلمانية ساقـــطة من الحساب بالتالي . واذا كان القانون لا يستطيع ان يشرع الاخلاقية ، فإنـه اعجز ايضاً عن اضفاء صفة شرعية حقوقيـــة على اللااخلاقية واذا لم يكن الزواج اساس الاسرة فلن يصلح لأن يكون موضوع تشريـع ، شأنه شأن الصداقـة على سبيل المثال. وليس هناك من انسان مرغم على عقد زواج، لكن على كل انسان ان يخضع للقوانين المتعلقة بالزواج ما ان يتزوج وكل انسان يتزوج لا يخلق ولا يبتكر الزواج ، او هو يخلقه ويبتكره الى حد بالغ الضآلة ، مثله مثـل الانسان الذي يسبح ولا يخترع طبيعة وقوانين الماء و جاذبية . ولهذا لا يمكن للزواج ان يخضع

---

(١) « الصحيفة الرينانيـــة » في ١٩ كانون الاول ١٨٤٢ . ولقـــد كان مهرينغ يجهل هذا النص .

لتعسف الانسان ، لكن على الانسان بالمقابل ان يخضع للزواج

لكن هل الزواج عقد غير قابل للحل وهل على الزوجين ان يبقيا وفيين لبعضهما بعضاً حتى الممات ؟ وهل الطلاق امر مقبول ؟ ان ماركس يرى ان المذهب الهيغلي المتعلق بهذه الافكار لا يقف على قدميه

ان هيغل يصرح بأن الزواج في ذاته وكمفهوم غير قابل للحل — على صعيد المثل فحسب لكن هذه الحقيقة ليست وقفاً على الزواج فجميع العلاقات الاخلاقية غير قابلة للحل كمفاهيم ، وهذا ما تمكن ملاحظته اذا ما افترضنا ان تلك العلاقات حقيقية ان دولة حقيقية او زواجاً حقيقياً او صداقة حقيقية هي غير قابلة للحل ، لكن ليس هناك اي دولة او اي زواج او اي صداقة تنطبق تمام الانطباق مع مفاهيمها وعلى هذا فان الصداقة في الاسرة بالذات ، والدولة الواقعية في تاريخ العالم ، والزواج كما هو قائم في دولة من الدول ، قابلة هي الاخرى للحل

ان الطلاق ليس الا ملاحظة هذا الزواج او ذاك قد مات ووجوده ليس الا اكذوبة وغني عن البيان ان ما يقرر في كل مرة كون الزواج قد مات ليس لا ارادة المشرع ولا ارادة الافراد انما الذي يقرر ذلك الحالة الواقعية القائمة اذ ان الاعتراف الحقوقي بواقعة الموت يتعلق بماهية الواقعة لا برغبة المعنيين

هل المسلّمات القائلة ان وجود هذه العلاقة الاخلاقية او تلك ما عاد يتلاءم مع مهمته ، هل هي ملحوظة بصدق ، بدون موقف مسبق ، ووفق استنتاجات العلم وتصورات الحقوق العامة ؟ اننا لا نستطيع ان نكون على ثقة من ذلك الا يوم يصبح القانون تعبيراً واعياً عن الارادة الشعبية وتدب فيه الحياة بفضل هذه الارادة

ان المشرع لا يستطيع الا ان يلاحظ الشروط التي يكون فيها الزواج قد انحل من الاصل وفي الواقع والطلاق القانوني لا يمكن ان يكون الا بعض ضبط هذا الانحلال الداخلي .

عودة الى الشيوعية البدائية ؟

من الممكن الاعتراض علي بأن هذه الافكار قـــد اعلنها ماركس في العصر الذي لم يكن فيه شيوعياً بعد ولم يكن فيه بعد بالتأكيد « ماركسياً » لكن سنلاحظ ايضاً ان المقال الاخير ذاك قد كتبه ماركس عندما شرع بالتخلي عن وجهة نظر البورجوازية الديموقراطية ليتبنى وجهة نظر البروليتاريا

ولنعرض الآن افكاره كما تطورت منذ العهد الذي لخص فيـــه للمرة الاولى ، في مقاله « نقد الفلسفة الهيغلية » ، المهمة التاريخية للبروليتاريا الغـــاء انقسام المجتمع الى طبقات ، والتحرير المطلق للانسانية من كل الاغلال المفروضة عليهـــا من قبل الملكية الخاصة ، واقامة النظام الشيوعي

في معرض طرح ماركس لمبادىء الشيوعية العلمية ، كان مضطراً اولا الى نقد مذهب ممثلي تلك الشيوعية التي يسميها « جلفة ، امية ، بل رجعية » ففي مجرى نضال هؤلاء الشيوعيين ضد الملكية الخاصة ، ما كانوا يلغـــون الملكية الخاصة وانما يحولونها بالاحرى الى ملكية خاصة مشتركة وكانت شيوعيتهم تمثل تعميماً للملكية الخاصة وفي « البيان الشيوعي » لن نرى الا نتائج هـــذا النقد . بيد انه اتيح لي الحظ في الحصول على مخطوط لماركس ينقـــد فيه تلك الشيوعية «الجلفة » و « الفجة » في علاقاتها لا مع الملكية الخاصة فحسب وبوجه عام ، وانما ايضاً مع الزواج واني لأعتذر سلفاً عن استشهاد طويل

« ان الشيوعية ليست في شكلها الاول سوى تعميم وانجاز للملكية الخاصة ولها ، بوصفها هـــذا الانجاز ، مظهران فمن جهة اولى تبالغ في دور الملكية المادية وسيطرتها الى حد تريد معه ابادة كل ما هو غير قابـــل لان يمتلكه الجميع على سبيل الملكية الخاصة ، تريد ان تلغي بالقوة المواهب الفردية والامتـــلاك

---

(٢) المخطوط المذكور هو المخطوط المعروف باسم « مخطوطات ١٨٤٤ » .

الفيزيائي المباشر هو في نظرها الهدف الاوحد للحياة والوجود ، وهي لا تلغي مقولة العامل ، وانما توسعها لتشمل البشر جميعاً وتظل علاقة الملكية الخاصة علاقة الجماعة بعالم الاشياء واخيراً فان هذه الحركة التي تقوم على معارضة الملكية الخاصة بالملكية الخاصة العامة تعبر عن نفسها في شكل حيواني يقوم على معارضة الزواج (الذي هو بالتأكيد شكل من الملكية الخاصة المانعة) بمشاع النساء الذي تصبح فيه المرأة ملكية جماعة ومشتركة ويمكن القول ان فكرة مشاع النساء هذه تشكل السر المهتوك لهذه الشيوعية التي ما تزال جلفة للغاية وغير متبصرة وكما ان المرأة تنتقل من الزواج الى التعهر العام [1] ، كذلك فان كل عالم الغنى ، اي ماهية الانسان الموضوعية ، ينتقل من علاقة الزواج المانعة مع المالك الخاص الى علاقة التعهر العام مع الجماعة ان هذه الشيوعية – بنفيها في كل مكان شخصية الانسان – ليست على وجه التحديد غير التعبير المنطقي عن الملكية الخاصة التي هي ذلك النفي

« وفي العلاقة تجاه المرأة ، فريسة اللذة الجماعية وخادمتها، يتضح الانحطاط اللامتناهي للانسان الذي لا يوجد الا لذاته ، اذ ان سر هذه العلاقة يجد تعبيره غير المبهم ، الحاسم ، الجلي ، المنكشف ، في علاقة الرجل بالمرأة وفي الطريقة التي تعقل بها العلاقة النوعية الطبيعية والمباشرة. ان العلاقة المباشرة ، الطبيعية، الضرورية ، للانسان بالانسان هي علاقة الرجل بالمرأة وفي هذه العلاقة النوعية الطبيعية ، تكون علاقة الانسان بالطبيعة هي مباشرة علاقته بالانسان كما ان العلاقة بالانسان هي مباشرة العلاقة بالطبيعة ، وسطه الطبيعي الخاص اذن ففي هذه العلاقة يظهر بصورة محسوسة ، عينية ، المقدار الذي تكون به الماهية الانسانية قد اصبحت هي الطبيعية بالنسبة الى الانسان ، او المقدار

---

(١) ليس البغاء غير تعبير خصوصي عن التعهر العام للعامل، ولما كان التعهر علاقة لايدخل فيها العاهر فحسب ، بل ايضاً الذي يتعهر – والذي تفوق سفالته سفالة الاول – لذا فان الرأسمالي الخ يسقط هو ايضاً في هذا الصنف (حاشية ماركس)

الذي تكون به الطبيعة قد اصبحت ماهيـة الانسان الانسانية اذن فانطلاقاً من هذه العلاقة نستطيع ان نحكم على كل مستوى ثقافة الانسان ومن طابـع هذه العلاقة يتضح مقدار ماأصبح الانسان بالنسبة الى ذاته كائناً نوعياً «انساناً» ومقدار ما عقل نفسه على هذه الصورة. وعلاقة الرجل بالمرأة هي علاقة الانسان بالانسان الاكثر طبيعية اذن ففي هذه العلاقـة يتضح مقدار ما اصبح سلوك الانسان الطبيعي انسانياً او مقدار ما اصبحت الماهية الانسانية بالنسبة اليـه الماهية الطبيعية، ومقدار ما اصبحت طبيعته الانسانية بالنسبة اليه هي الطبيعة وفي هذه العلاقة ايضاً يتجلى مقدار ما اصبحت حاجة الانسان انسانية، وبالتالي مقدار ما اصبح الانسان الآخر كآخر حاجة بالنسبة اليه ، ومقدار ما يكون في الوقت نفسه ، وفي وجوده الاكثر فردية ، كائناً اجتماعياً

« ان اول الغاء ايجابي للملكية الخاصة ، الشيوعية الجلفة ، ليس اذن سوى شكل تتجلى تحته دناءة الملكية الخاصة التي تريد ان تطرح نفسها على انها المشاعة الايجابية »

عديدون هم الشيوعيون الذين لا يفهمون حتى في يومنا هذا ان خطاباتهم شه الجذرية عن تعدد الزوجات ليست الا صدى لتلك « الشيوعية الجلفة » الـتي تطبّق ليلاً على مجتمع المستقبل التصورات التي ابتدعها المجتمع القائم على الملكية الخاصة

« ان الملكية الخاصة قد جعلتنا على درجة من البلاهة ومن ضيق الافق بحيث ان الشيء لا يكون شيئنا الا عندما نملكه ، والا عندما يوجد بالنسبة الينـا بالتالي كرأسمال ، او الا عندما نحوره مباشرة او نأكله او نشربه او نحمله على جسمنا او نعيش فيه الخ ، وباختصار ، عندما نستهلكه

« ولهذا ، فقد ظهر ، مكان جميـع الحواس الفيزيائية والفكرية ، الاستـلاب المحض لجميع هذه الحواس ، حس الملك وقد كان لا مناص من ارجاع الانسان الى هذا الفقر المطلق ، حتى يولد غناه الداخلي انطلاقاً من ذاته ! » (ماركس)

وتبعاً للنظرية التي تعلن ان الانسان كائن اعلى بالنسبة الى الانسان ، والتي تقيم البرهان على ضرورة الغاء جميع الشروط الاجتماعية التي تذل الانسان وتحوله الى موضوع اذلال واستغلال وتلبية حاجات الغير ، تبعاً لهذه النظرية ، فان كل محاولة لوضع حاجة طبيعية تماماً كالحاجة الى الغذاء وحاجة طبيعية تماماً كالغريزة الجنسية على صعيد واحد تبرهن فقط على مستوى ثقافي بالغ التخلف فما يلبي اولى هاتين الحاجتين ليس الا شيئاً ، وما يلبي الحاجة الثانيـة هو كائن انساني ، كائن فاعل ، قابل للألم ، كائن اجتماعي

وفي مجرى التاريخ الانساني ، في مجرى تحول الحيـوان الى انسان ، تصبح الحاجات انسانية أكثر فأكثر

« لاتتكون الحواس الخمس ، بل لاتتكون الحواس المسماة بالروحية والحواس العملية (الارادة ، الحب ، الـخ) ، وبكلمة واحدة الحس الانساني ، انسانية الحواس ، لا تتكون الا بفضل وجود موضوعها بفضل الطبيعة المؤنسنة ان تكوين الحواس الخمس هو نتاج كل التاريخ الماضي والحاسة التي ما تزال اسيرة الحاجة العملية الجلفة ليس لها غير دلالة محدودة فبالنسبة الى الانسان الذي يتضور جوعاً ، لا وجود للشكل الانساني للغذاء ، وانمـا يوجد على نحو مجرد بوصفه غذاء وقـد يكون شكله على اخشن ما يكون ، ولا نستطيع في هذه الحال ان نقول بم يتميز هذا النشاط الغذائي الحيواني » (ماركس)

كذلك تتعرض الغريزة الجنسية في مجرى التاريخ الكوني ، الى سلسلة من التحولات ، بدءاً من وسيلة تلبيتها الحيوانية اعظم تقدم اخلاقي » ادركته الانسانية في نظر انجلز الى اخضع السعي الغرامي المعاصر

افكار ماركس وانجلز

لقد سبق ان ذكرت ان ماركس وانجلز تعرضا مرات عديدة مكررة الى تأثير السانسمونية يتعلق بتحرر النساء في الشكل المعبر عنـه في كتابات

« المانيا الفتاة » وكان من واجبنا ان نلاحظ ان ماركس في محاولته في عام ١٨٤٤ تحديد المبادىء الاساسية للشيوعية ، قد انتقد افكار الشيوعية « الخلفة »

من يمثل اذن هذه الافكار وفي اي اوساط كانت هذه المذاهب شائعة ؟ اننا لنلقى جواباً على هذا السؤال في مؤلف ماركس وانجلز « العائلة المقدسة »، ذلك المؤلف الذي سويا فيه نهائياً حساب الفلسفة المثالية القديمة ففي الفصل المتعلق بالمادية الفرنسية والذي يبين فيه ماركس كيف ان مذاهب هذه المادية تقود مباشرة الى الاشتراكية والشيوعية ، يطلق على اتباع بابوف ، الذي كان مذهبه رائجاً اكثر من اي مذهب آخر بين المنظمات السرية الثورية ، اسم « الماديين الاجلاف الاميين »

كان هؤلاء الماديون ، في نقدهم العائلة البورجوازية والزواج البورجوازي ، يقعون في غالب الاحيان في اقصى الموقف المعاكس وكان ماركس يقدر اكثر بكثير « الوصف المحكم للزواج » المعروض في مؤلفات أوين ، وبخاصة في مؤلفات فورييه الذي كان يعارض بمذاهبه نزعة حب المجتمع المتذللة لدى اوجين سو ويرى ماركس ان الامير روبريخت ، بطل سو ، لا يفهم ان « كل وضع المرأة في المجتمع الحديث يفقدها انسانيتها »

ونحن نلفى في المقاطع المقتبسة من مؤلفات فورييه والمستشهد بها من قبل ماركس افكاراً ستظهر فيما بعد في « البيان »

« إن الزنى والاغواء يشرفان الغواة وهما مستظرفان. لكن يا للفتاة المسكينة ! ويا لقتل الطفل من جريمة ! فاذا كانت حريصة على الشرف ، توجب عليها ان تزيل آثار العار . واذا ضحت بطفلها مراعاة لآراء الناس المسبقة كان عارها اشد خزياً ايضاً وسقطت تحت نير احكام القانون المسبقة تلكم هي الحلقة الفاسدة التي ترسمها كل آلية متمدينة

« وكما ان النفيين في النحو والصرف يشكلان توكيداً ، كذلك فان تعهرين

يشكلان في عقد الزواج فضيلة وتطور عصر تاريخي معين يتحدد بالعلاقة بين تقدم المرأة والحرية ، لان انتصار الطبيعة الانسانية على الحيوانية يبرز بوضوح من خلال العلاقات بين الرجل والمرأة ، بين القوي والضعيف ودرجة تحرر المرأة تحدد بالطبع درجة التحرر العام واذلال الجنس سمة اساسية مميزة للمدنية والبربرية على حد سواء ، مع فارق واحد وهو ان البربرية تمارس الرذيلة بدون تجميل بينما ترفعها المدنية الى درجة وجود معقد ، ملتبس ، محرج ومراء وما من احد يذل كما يذل الرجل بجريمة معاملة المرأة كعبدة »

ويرسم انجلز ، في كتابه « الوضع الطبقي العمالي في انكلترا » المكتوب في شتاء ١٨٤٤ — ١٨٤٥ ، صورة العائلة العمالية ويشير الى الدعارة الجنسية بوصفها واحدة من افحش الرذائل ، وذلك عندما لا يكون العامل قد اصبح بعد عضواً واعياً في جيش الشغيلة الثوري وعندما يكون ما يزال خاضعاً للنظام الاجتماعي البورجوازي

« عندما يكون الناس في وضع لا يمكن ان يرضي الا حيوانياً ، لا يبقى امامهم الا ان يتمردوا او يتحولوا فعلا الى حيوانات والبورجوازيون هم اقل الناس حقاً في لوم العمال على السقط الجنسي ، لان البورجوازيين يساهمون هم انفسهم في تطوير البغاء »

ويرى انجلز ان الشروط التي يضع فيها المجتمع البورجوازي العمال تجعل « حياة الاسرة السوية » مستحيلة

وفي ربيع ٨٤٥ التقى ماركس وانجلز في بروكسل وفي ذلك العصر كان ماركس قد خطا خطوة اخرى الى الامام في تصور مذهبه الاجتماعي ولم يعد يكتفي بمادية فيورباخ « التأملية » « لم يكن الفلاسفة يفعلون من شيء سوى تفسير العالم بصور مختلفة ، والمطلوب الآن تحويله » والوجود يحدد الوعي ، بيد ان هذا الوجود ليس الوجود الطبيعي ، الطبيعة فحسب ، بل هو ايضاً الوجود الاجتماعي والانسان ليس مجرد نتاج للطبيعة ، بل هو ايضاً ، وعلى

مستوى اعلى ، تتـــاج بجمل العلاقات الاجتماعية الطبيعة تؤثر على الانسان لكن هذا الاخير يؤثر بدوره على الطبيعـة وبعدلها والتصور المادي عن تحول الظروف والتربية يغفل عن واقع ان البشر يعدلون الظروف وان المربي لا بد ان هو نفسه والتطابق بين تعديل الظروف وبـين تعديل النشاط الانساني لا يمكن تصو وتفسيره عقلانياً الا بوصفه ممارسة ثورية

ويؤكد ماركس وانجلز تأكيداً نهائيـــاً ان كل طبقة تتطلع إلى السيطرة حتى ولو كانت هذه السيطرة تعني الحال بالنسبة إلى البروليتاريا ، إلغاء النظام القديم بأسره ، — لا بد أن تستولي أولاً على السلطة السياسية حـــتى تصلح المجتمع « وفقاً لصورتها الخاصة » ولا يمكن للوعي الشيوعي أن يتطور إلا عندما يخلق البشر لأنفسهم شروطاً محددة وتعدلهم الممارسة باتجاه محدد وهذا غير ممكن إلا بواسطه الثورة وهذه الثورة ضرورية لا لأنه يستحيل بصورة أخرى إسقاط الطبقة السائدة فحسب بل أيضاً لأن الطبقة الـــتي تلغي القديمة لا يمكن أن تطهر نفسها من كل عفن المجتمع القديم وتصبح قادرة على خلق مجتمع جديد إلا في مجرى الثورة وبعبارة أخرى ، يتـــوجب على البروليتاريا ان تطهر نفسها ، في مجرى الحرب الأهلية والثورة من كل وحل المجتمع البرجوازي القديم ، وأن تحرر نفسها من كل آثار التصورات النتنة المتعلقة بالملكية الخاصة ، وأن تهجر الأفكار القديمة عن الدين والاخلاق الأسرة والزواج وباختصار ، يتـــوجب على البروليتاريا أن « تتربى » هي نفسها

ولقد عرض إنجلز وماركس أفكارهما الجديدة بالتفصيل في مؤلف كبير ، شققة المذاهب الأكثر جذرية للمثقفين الألمان ، مـــا فيها مذاهب ماكس فقد قدم شتيرنر في كتابه « الفرد وخاصته » عرضاً منطقيـــاً سلبياً الفوضويه الفلسفية ولكن غـــم من إنشاء بالغ الجذرية ن شعرائنا عن « الحق في الحب » ، يظل شتيرنر ، كما يثبـ

ذلك عنوان كتابه بالذات ، ايديولوجي النزعة الفردية البورجوازية الصغيرة

ويتعرض ماركس وإنجلز في نقدهما أيضاً إلى التصورات الشتيرنرية عن الزواج والأسرة فقد لاحظا

«يرى صاحبنا من جديد سلطان القداسة حيثما تسود فقط علاقات اختبارية فالبورجوازي ينظر إلى مؤسسات مجتمعه ، كما ينظر اليهودي إلى الشريعة فهو يخرقها ما أمكنه ، في كل حالة خاصة ، لكنه يود لو ان الجميع خضعوا لها ولو خرق البورجوازيون جميعاً ، كتلة واحدة ، جميع قوانين البورجوازية ، لكفّوا عن كونهم بورجوازيين، لكن هذه الفكرة لا تخطر لهم بالطبع ، وهي لا تتعلق البتة تقريباً برغبتهم ان البورجوازي الفاسق يخرق الزواج ويرتكب الزنى سراً والتاجر يخرق مؤسسة ملكية الغير بواسطة المضاربة والافلاس الخ والشاب البورجوازي يطالب بالاستقلال تجاه اسرته التي يخل بتنظيمها لصالحه عملياً لكن الزواج والملكية الخاصة والاسرة تظل مصونة نظرياً، لان هذه المؤسسات تشتمل على اساس عملي تشيد عليه البورجوازية سيطرتها ، ولان هذه المؤسسات في شكلها البورجواري تشكل الشروط التي تجعل من البورجوازي بورجوازياً ، تماماً كما ان الشريعة المتجنبة دوماً تجعل من الاسرائيلي الممارس اسرائيلياً ممارساً ان علاقة البورجوازيين هذه بشروط وجودهم تجد تعبيرها العام في الاخلاق البورجوازية والاسرة لا يمكن ان تعالج كأسرة فالبورجوازيون يعطون الاسرة طابع الاسرة البورجوازية التي يكون فيها السأم والمال العنصرين الجامعين بين افرادها ويتطابق مع الاسرة البورجوازية تفسخ الاسرة البورجوازي،ومع ذلك تستمر الاسرة نفسها في الوجود.وتتطابق ايضاً مع وجودها الموحل فكرتها المقدسة ، في الانشاء الرسمي وفي الرياء العام . وحيثما تكون الاسرة متفسخة فعلاً ، كما نشاهد ذلك في الاوساط البروليتارية ، لا تكون فكرة الاسرة موجودة البتة ، بينما نلاحظ وجود ميول الى الحياة العائلية نابعة من العلاقات الواقعية لقد هدم الفلاسفة في القرن الثامن عشر

فكرة الاسرة ، لان الاسرة الواقعية ، في المستويات العليا من المدنية ، كانت قد شرعت تتخلخل كنظام وكان اتحاد الاسرة الداخلي قـــد تقوض كما تقوضت العناصر المنفصلة التي تشكل مفهومه ، ولا سيما الطاعة ، المبرة ، الوفاء الزوجي الخ لكن جسم الاسرة الواقعي وعلاقاتهـــا الاقتصادية وخصائصه والتساكن القسري ، والعلاقات التي يخلقها إنجاب الاطفال وتنظيم المدن الحديثة وتراكم الرأسمال ، بقيت قائمـة ، لان وجود الاسرة اصبح محتماً ، بسبب صلته بطريقة الانتاج ، المستقلة عن مسرات المجتمع البورجوازي وهـذه الضرورة تتجلى على نحو مميز في عصر الثورة الفرنسية الذي ألغى فيـه القانون الاسرة على ما يبدو وقد استمرت الاسرة في وجودها في القرن التاسع عشر ، ولكن مع فارق واحد وهو ان تفسخها قد اصبح عامـــاً بفضل الصناعة والمزاحمة ، لاكثر تطوراً وهي مستمرة اليوم في الوجود ، غصباً عـــن الاشتراكيين الفرنسيين والانكليز الذين كانوا يعظون بدمارها حتى قبل الثورة الفرنسية »

تعدد الزوجات ، ملكوت الجمال الذابل

قبل عام ١٨٤٦ كان ماركس وانجلز يبـــذلان جل نشاطهما في الاوساط الفكرية البورجوازية التي كانا يعملان على اكتساب خير ممثليها لقضيتهما

وبعد ربيع ١٨٤٦ نذرا قواهما للعمل التنظيمي في الاوساط العمالية وقـد اقاما الصلات مع العديد من التجمعات العمالية في المانيـــا وفرنسا وانكلترا ، وساهما في الوقت نفسه مساهمة نشيطة في المناقشات الحامية الـــتي دارت في الاوساط العمالية وبعد سنتين من العمل نجح ماركس وانجلز في توحيد هـــذه الاوساط كافة لتحويلها الى « رابطة الشيوعيين » وكلف ماركس بوضع برنامجها

وقد درست اولاً النقاط الرئيسية لهذا البرنامج في مختلف الاوساط وقـد وصلتنا بعض محاضر نادي لندن المسمى الجمعية العمالية الالمانية للدراسات » ويتضح من هذه المحاضر ان النقاش كان يدور حول سلسلة من الاسئلة المصاغة على

طريقة كتب التعليم الديني . ومن بينها سؤالان بصدد الزواج والاسرة. فالسؤال التاسع عشر « كيف ستنظمون تربية الاطفال في العصر الانتقالي ؟ » ، تلاه هذا الجواب « ان جميع الاطفال ، حين يبلغون العمر الذي يستطيعون فيه الاستغناء عن عناية الام ، سينشّأون ويربّون في مؤسسات الدولة »

والسؤال العشرون ملخص على النحو التالي « هل سيعلن الامتلاك المشترك للنساء مع الغاء الملكية الخاصة ؟

ويعلن جواب نادي لندن « البتة اننا لن نتدخل في العلاقات الخاصة بين الرجال والنساء الا بالقدر الذي قد يُكدر به النظام الاجتماعي الجديد اننا نعرف تمام المعرفة ان العلاقات العائلية تعرضت على مر التاريخ الى تعدلات كانت مرتبطة بمراحل تطور الملكية ولهذا فان الغاء الملكية الخاصة ، نحن نعرف ذلك ، سيكون له تأثير حاسم على هذه العلاقات »

ولا ريب في ان هذه المجموعة من الاسئلة والاجوبة كانت في متناول انجلز عندما كتب كراسه المشهور « مبادىء الشيوعية » ونحن نجد في هذا الكراس السؤال الحادي والعشرين

ما التأثير الذي سيمارسه النظام الشيوعي على الاسرة ؟ »

فبمَ اجاب انجلز على هذا السؤال ؟ انه يعلن

« ان العلاقات بين الجنسين ستصبح مسألة خاصة لاتعني الا الاشخاص المعنيين والمجتمع لن يتدخل فيها وهذا سيكون قد اصبح ممكناً بفضل الغاء الملكية الخاصة وبفضل تربية الاولاد على نفقة المجتمع وبنتيجة ذلك يكون اساسا الزواج الراهنان قد الغيا فالمرأة لن تعود تابعة لزوجها ولا الاولاد لاهلهم هذه التبعية ما تزال موجودة بفعل الملكية الخاصة) هذا هو جوابنا على الصراخ الذي يطلقه البورجوازيون الافاضل ضد تعدد الزوجات الشيوعي ان تعدد الزوجات ظاهرة خاصة بالمجتمع البورجوازي ومتحققة تماماً اليوم

بواسطة البغاء. لكن البغاء ، القائم على اساس الملكية الخاصة ، سيزول بزوالها. وعلى هـــذا ، لن يأخذ تنظيم المجتمع الشيوعي بتعدد الزوجات ، وانما ، على العكس ، سيلغيه »

ان مشروع التعليم الشيوعي الذي كتبـه انجلز لم ينشر اذ ان شكل التعليم استبعد بناء على اقتراح منه ، وتمت صياغة برنامج الرابطة تحت شكل بيان وقد كتب هذا البيان ماركس الذي اعتمد جزئياً على مشروع انجلز ولما كانت افكار ماركس وانجلز عـن الزواج والاسرة في المجتمع البورجوازي وفي مجتمع المستقبل تجد في « البيان الشيوعي » اكمل تعبير عنها ، فانـني اسمح لنفسي بان اثبت هنا المقطع المذكور بكامله تقريباً

هدم العائلة !.. يا للهول ! حتى اشد الناس تطرفاً تسخطهم نية الشيوعيين هذه ، الفاضحة المرذولة

« ولكن على اي قاعدة ترتكز العائلة البورجوازية في الوقت الحاضر ؟ انها ترتكز على الرأسمال والربـــح الفردي والعائلة ، في شكلها الاكثر تطوراً ، ليست موجودة الا بالنسبة الى البورجوازية لكن تتمتها هي كون البروليتاريا محرومة قسراً من العائلة ، والبغاء يزدهر علناً ان العائـلة البورجوازية ستلغى طبعاً مع الغاء تتمتها وكلتاهما ستزولان مع زوال الرأسمال

« ان تشدق البورجوازيين الفارغ عن العائلة والتربية وعن الاواصر والصلات الحلوة التي تربط الولد بأهله يصبح يوماً بعد يوم سخيفاً ممضاً ، اذ ان الصناعـــة الكبرى تهدم كل صلة عائلية عنـد البروليتاريا ، وتحول الاولاد الى مجرد مواد تجارية وادوات عمل

« والآن اسمعوا البورجوازية تصيح من كل جانب: « انكم ، ايها الشيوعيون تريدون اعلان مشاع المرأة »

« ان البورجوازي ينظر الى امرأته على انها مجرد اداة انتاج . ولقد سمع ان

ادوات الانتاج يجب ان توضع في متناول الجميع فاستنتج من ذلك بالطبع ان النساء انفسهن سوف يسري عليهن ذلك، ولا يخطر ببال البورجوازي ان المسألة هي على العكس تماماً ، واننا نريد اعطاء المرأة دوراً غير هذا الدور الذي تقوم به الآن كأداة انتاج صرفة ولشد ما يضحكنا هذا الذعر الفاضل من جانب بورجوازيينا الذين يتصورون تملكاً مشتركاً ورسمياً للنساء لدى الشيوعيين

« ليست بالشيوعيين حاجة الى ادخال اشاعة النساء ، فهي كانت دوماً موجودة تقريباً ولا يكتفي البورجوازيون بأن تكون تحت متناولهم نساء البروليتاريين وبناتهم – هذا عدا البغاء الرسمي– بل يجدون لذة خاصة في اغواء نساء اصدقائهم المتزوجات والواقع ان الزواج البورجوازي ليس سوى مشاع النساء المتزوجات وقصارى ما يمكن ان يتهم به الشيوعيون اذن هو انهم يريدون ابدال اشاعة النساء المستترة بالرياء ، والمغطاة بالمداحاة ، بإشاعة صريحة رسمية لكن من البديهي انه عندما تلغى الشروط الراهنة فان تملك النساء المشترك ، الذي خلقته حالة الامور الراهنة ، اي البغاء الرسمي وغير الرسمي ، سيختفي هو الآخر »

واننا لنلاحظ ان ماركس حينما يعتمد على مشروع انجلز يعطي حجج هذا الاخير طابعاً اكثر وضوحاً وحدة ففي جدال مع المفكرين البورجواريين ، لا يكرر نقده للشيوعية الجلفة والامية ولكنه ينوه بقوة في « البيان » ايضاً بالسمة المميزة للنظام الشيوعي فيما يتعلق بوضع المرأة فهذا النظام هو وحده الذي سيخلق الشروط التي لن تعود فيها المرأة مجرد اداة انتاج ومتعة والتي سيختفي فيها كل بغاء رسمي وغير رسمي

لقد كان البرنامج المعروض في « البيان الشيوعي » اساساً لبرنامج حزبنا الشيوعي وبالرغم من بعض الفروق التي سويت مع ذلك خلال العمل المشترك، لن تجدوا لدى ماركس او لدى انجلز اي سبب لطرح السؤال التالي اليوم هل العلاقات الجنسية الفوضوية او « الشيوعية الجنسية » تتفق وطبيعة المجتمع

الشيوعي ؟ ان هذا السؤال يثبت ان اولئك الذين يطرحونه ما يزالون على صعيد الشيوعية الجلفة والامية التي تتصور بسذاجة انهـا اسمى من البورجوازي الذي يهتف ضد « تشريك النساء » ، لانهم يؤيدون تأييداً « قاطعاً » جميع اشكال الشيوعية الجنسية وكل تعدد للزوجات يبرهن على الدرجة الثقافيـة المتخلفة لـ « دواته » و « مواضيعه » وتعدد الزوجات ، في شكله الشائـع القائم على نظام الزوجتين الاثنتين ، يـبرهن فقط على ان ملكوت الجمال الساهت مستمر وعلى ان المرأة تصبح نمـلء ارادتها عاهرة ، وعلى ان العلاقات بين « الزوج » و « الزوجة » يتحكم بها رياء لا يقل دناءة عن الوجود الملتمس المحرج المرائي » لاسرة المجتمع البورجوازي المتعددة الزوجات

وليس هناك ابعث على الضحك من شعرائنـا الصغار الحمقى الذين يتغنون بـ « الحق في الحب » والذين يتصورون ، في وجدهم الشعري او السياسي ، انهم يتغنون بشيء جديد. ولقد كان ماركس وانجلز يعرفان تجربة « اتحاد الاحرار » الذي كان انجلز يساهم فيه مباشرة. ويلاحظ باكونين في كتابه «الدولة والفوضى» ان اعضاء هذا « النادي الاخير للعدميين الالمان قد تجاوزوا في مجونهم العدميين الروس الاكثر اشتطاطاً »

وكان ماركس وانجـلز يعرفان تمام المعرفـة الافكار المتطرفة لبعض السانسيمونيين الذين كانوا يعظون بنظرية « الثابتين » الذين ولدهم نظام الزوجة الواحدة و « المتقلبين » الذين لا يمكنهم التـلاؤم الا مع زواج « قصير الامد » وكان ماركس وانجلز يفهمان تمام الفهم ان هـذا الهوس الفكري بإيروس المجنح لا يعني اكثر من تمرد طبيعي ، ولو غير مستحب كثيراً ، ضد الزواج البورجوازي وضد جميع قيوده. لكنهما كانا يفهمان ايضاً ان تطور الحضارة وانتصار الانسانية على الحيوانيـة سيؤديان الى ايجاد اشكال جديدة من المعاشرة الجنسية المشروطة بالتطور العام للرجل والمرأة على حد سواء ، والنافيـة لكل عنصر من عناصر الحيوانية والبغاء

المسألة النسوية

عندما كنت اصغي الى كلام شيوعيينا المزعومين او اقرأ كتبهم قبل حوالي اربعين عاماً ، كان شعور بالغثيان ، اسمحوا لي بالكلمة ، ينتابني فلقد كان في حلقاتنا القديمة نظريون من دعاة الزواج القصير الامد » الذين كانوا يتكلمون بازدراء عن « شرف الازواج والزوجات المختوم بالختم الرسمي » ، والذين كان مستواهم الثقافي لا يقل تخلفاً مع دلك عن مستوى الطواويس الشقة المعششة في الاوساط النبيلة والبورجوازية او عن مستوى اولئك الافراد الخارجين من الطبقة العاملة الذين يسميهم عمالنا عن حق بـ « ثيران المعمل » لكن هذه النظريات «الجذرية» لم تكن تقدم، على الاقل ، تحت اقنعة ماركسية وشيوعية.

ولكن قد تقولون لي ان ماركس وانجلز لم يتوقفا عند درجة التطور الذي بلغاه في « بيانهما الشيوعي » ؟ انكم لعلى كامل الصواب فبعد ثورة ١٨٤٨ شرع ماركس من جديد بتحليل مفصل لتطور المجتمع البورجوازي ، ودرس قوانين تطور النظام الرأسمالي ، ومحض من جديد جميع الشروط التي تحدد وضع الطبقة العاملة في عصر سيطرة الرأسمال. وما كان من الممكن اهمال موضوع بالغ الاهمية كموضوع الزواج والاسرة فالاستغلال المتعاظم دوماً لعمل النساء والاولاد يشكل احد السمات المميزة الاساسية للمرحلة الصناعية من تطور الرأسمالية

وبالفعل، وفي حوالي عام ١٨٥٠، شرع ماركس من جديد بدراسة «المشكلة النسوية » وقد نذر ماركس وانجلز الكثير من وقتهما لهذه المسألة « النسوية بينما يفضل الشيوعيون المعاصرون التقسيم الكامل للعمل بين الرجال والنساء حتى في منظمات الحزب. فالفرع النسائي لا يعمل الا في الميدان « النسائي »، والفرع الرجالي لا يعمل الا في الميدان « الرجالي » وقد وجدت في اوراق ماركس بعض دفاتر من عام ١٨٥٢ سجل فيها بشكل منهجي مقاطع من كتب عن تاريخ المرأة والاسرة في عصور شتى وقد لاحظ ماركس منذ ذلك الحين ان اشكال الاسرة على مر التاريخ ولدى مختلف الشعوب تمثل في الواقع مراحل مختلفة من

تطورها ، مراحل وجدت كل منها تعبيرها النموذجي لدى كل شعب. وقد لخص ماركس هذه الفكرة في المجلد الاول من « الرأسمال »

ولقد اتيحت الفرصة لماركس ليقول رأيه في المشكلة النسوية ، حتى قبل ذلك التاريخ ، وذلك بمناسبة المناقشات التي دارت في فروع عدة من الاممية الاولى ففي هذه المسألة كان البرودونيون الفرنسيون يدافعون ، تحت تأثير معلمهم ، عن افكار بالغة الرجعية فكانوا يرون ان دائرة النشاط النسائي يجب ان تكون محصورة ضمن نطاق المنزل الزوجي وما كانوا يرون في تطور العمل النسائي سوى ظاهرة تخل بتنظيم الاسرة وتمنع المرأة من الاهتمام بعملها في البيت.

وقد تبنى المؤتمر الاول للأممية الاولى في جنيف ، في ايلول ١٨٦٦ ، وبناء على اقتراح المجلس العام ، القرار الذي صاغه ماركس ومما ورد فيه

«يرى المؤتمر ان اتجاه الصناعة الحديثة الى اشراك الاولاد والمراهقين من الجنسين في قضية الانتاج الاجتماعي الكبرى هو اتجاه صحيح ومشروع وعلامة من علامات التقدم بالرغم من ان هذا الاتجاه يصبح ، في ظل سيطرة الرأسمال ، شراً فظيعاً. ففي مجتمع حسن التنظيم يجب ان يكون كل ولد ، بدءاً من العام التاسع ، عاملاً منتجاً فما من راشد سليم بقادر على التحرر من الخضوع لقانون الطبيعة العام الذي يأمرنا بالعمل حتى تتاح لنا امكانية المأكل — لا العمل الفكري فحسب ، بل ايضاً الجسماني »

وفي المجلد الاول من « الرأسمال » نجد عرضاً اكثر تفصيلاً لهذه الفكرة فماركس يقيم البرهان على ان الرأسمالية في تطورها تزعزع اسس الاسرة القديمة وتعدل لا العلاقات بين الزوج والزوجة فحسب ، بل ايضاً بين الاهل والاولاد.

« ما ان تشرع سلطة المصانع القضائية بتنظيم العمل المنزلي المزعوم ، حتى تعتبر تدخلا في دائرة الـ « paria potestas » ، او كما يقال اليوم ، في دائرة السلطة الابوية ولقد ظل البرلمان برخاوته لا يجرؤ مدة طويلة من الزمن على اتخاذ هذا التدبير ويكتفي بلفظ جمل مرائية . لكن قوة الوقائع ارغمت

البورجوازية في خاتمة المطاف على الاقرار بان الصناعة الكبيرة، المتحدة بالاسس الاقتصادية للتنظيم القديم وبعمل الاسرة ، تهدم العلاقات العائلية القديمة .وبذلك لم يكن هناك مناص من اعلان حقوق الاولاد »

لكن الصناعة الكبيرة لا تكتفي بهدم الاسرة القديمة ، بـــل هي تخلق في الوقت نفسه العناصر التي ستقوم على اساسها اسرة جديدة

« مهما بدا اختلال العلاقـات العائلية القديمة في ظل النظام الرأسمالي فظيعاً ومكروهاً ، فـان الصناعة الكبيرة تطرح الاسس الجديدة لاشكال عليـــا من الاسرة ومن العلاقات بين الجنسين،بفضل ذلك الدور الايجابي الذي تعطيه للنساء وللقاصرين وللاطفال من الجنسين في الانتاج المنظم اجتماعياً خارج دائرة الاسرة. وغني عن البيان ان من اللغو الباطل اعتبار شكل الاسرة الجرمانية – المسيحية شكلاً مثالياً كاملاً، شأنه في ذلك شأن شكل الاسرة لدى الرومان واليـــونان والشرقيين فجميع هذه الاشكال تمثل في مجملهـــا مراحل متدرجة مختلفة من التطور الانساني وبديهي ايضاً ان تركيب الجهاز العامـــل من افراد من جنس وعمر متفاوتين يجب ان يصبح مصدراً للتقدم الانساني في شروط مناسبة، بالرغم من ان هذه الظاهرة تشكل ، في ظل الشكل الجلف من الرأسمالية حيث يكون العامل منذوراً للانتاج لا الانتاج للعامل ، مصدراً للرذيلة والعبودية »

والجدير بالذكر ان ماركس في المجلد الاول من « الرأسمال » قد اوضح اكثر من مرة « انه في فجر الحضارة الانسانية كانت الاسر والقبائل هي وحدها الـتي تدخل في علاقات فيما بينها ، بوصفها وحدات مستقلة لا كأفراد » لكنه كان يتصور في ذلك الحين ان الشكل البدائي للمجتمع هو الاسرة التي ولد منها فـيما بعد تجمع اوسع ، القبيلة وقد ظهر هذا التصور في الطبعة الثانيـــة ، في عام ١٨٧٢ وفيما بعد تخلى ماركس عن هذه الفكرة وينوه انجلز في حاشيته على الطبعة الثالثة من « الرأسمال » « ان دراسات ماركس المعمقة عن وجودالبشر البدائي قد جعلته يتصور ان الاسرة لم تتحول الى قبيلة ، بل ان الشكل البدائي

للمجتمع البشري كان على العكس، وبشكل عفوي، القبيلة المخلوقة تبعاً لمبدأ رابطة الدم وفيما بعد فقط ، وعندما اخذت روابط الاسرة تضعف، تطورت اشكال عائلية متنوعة »

لقد كان سبب الانقلاب في افكار ماركس ظهور كتاب مورغان « المجتمع القديم » في عام ١٨٧٧ ونجد في اوراق ماركس دفتراً واسعاً من الاستشهادات من كتاب مورغان ويقول انجلز ان ماركس كان ينوي عرض نتائج دراسات مورغان ، مع معطيات التصور المادي عن التاريخ ، لكن ماركس لم ينجز هذا المشروع وانما انجزه انجلز الذي لم يستخدم مقاطع كتاب مورغان التي سجلها ماركس فحسب ، بل ايضاً الدفاتر القديمة التي اشرت اليها آنفاً وعلى هذا فان كتاب انجلز « اصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة » هو عمل انجزه بالتشارك ماركس وانجلز معاً وان عدداً كبيراً من الوقائع التي ذكرها هذا الاخير قد اخذت من منتخبات ماركس

نهاية نظام الزواج الوحداني او توطيده ؟

لقد انصرم حوالي خمسين عاماً منذ ظهور كتاب مورغان ، وحوالي خمسة وثلاثين عاماً منذ ظهور الطبعة الاخيرة لكتاب انجلز وخلال هذه الاعوام ظهرت دراسات جديدة عن حياة الانسانية ما قبل التاريخية لتكمل وتعدل تصورات انجلز وبالرغم من ان صورة التطور التاريخي تختلف اشكال الزواج والاسرة قد تقادم بها العهد ، الا ان المبدأ الاساسي الذي يدحض التصور القديم عن اصل الاسرة يظل ثابتاً لا يتزعزع ولوحته الجليلة عن العلاقات العائلية ، كما تتكون في عصر الحضارة البورجوازية ، تحت تأثير الملكية الخاصة ، تبقى الى يومنا هذا متعالية على كل مقارنة

ويجدر بنا قبل كل شيء ان ننوه بان انجلز يتصور نظام الزوجة الواحدة او الزوج الواحد على انه الشكل الاعلى للعلاقات الجنسية ، باعتبار انه لا ينطلق

من شعور حيواني ، بل من الحب الجنسي الفردي ... شكل البدائي للعلاقات الجنسية ، العلاقات « الفوضوية » المزعومة ، لم يكن موجو... فجر التاريخ الانساني ، في العصر الذي كان فيه البشر ـ القرود البدائيون ـ قد انتقلوا من الحالة الحيوانية الى الحالة الانسانية

يلاحظ انجلز « ان باخوفن على صواب تام عندما يؤكد ان التطور الذي انطلق من التعدد وانتهى الى الزواج الوحداني قد تم الى حد كبير ، بفضل النساء فكلما تطورت العلاقات الاقتصادية وافضت الى دمار الشيوعية البدائية والى كثافة السكان المتنامية ، فقدت العلاقات القديمة بين الجنسين طابعها البدائي والساذج ، وكلما نظرت النساء الى هذه العلاقات على انها مذلة وصعبة تطلعت النساء اكثر فأكثر الى الحق في العفة وكأنه الخلاص ، والى الزواج الدائم بهذا القدر او ذاك مع رجل واحد »

ويلاحظ انجلز عند دراسته اصل الزواج الوحداني لدى اليونان ان وحدة الزواج لم تكن البتة نتيجة الحب الفردي الذي لم يكن بينه وبينها اي صلة مشتركة ، لأن الزيجات كانت دوماً زيجات مصلحية ان وحدة الزواج تمثل الشكل الاول من الاسرة غير القائمة على شروط طبيعية ، وانما على شروط اقتصادية انها ثمرة انتصار الملكية الخاصة على الملكية البدائية المشاعية »

ان الزواج الفردي يشكل ، يوم ظهوره في التاريخ ، سيطرة جنس على آخر فالرجل قد تمت له السيطرة على المرأة ومع ذلك يعتبره انجلز ظاهرة كبيرة من ظاهرات التقدم الاخيرة. والزواج الوحداني هو الذي يحقق اكبر تقدم اخلاقي. الحب الجنسي الفردي الحديث الذي كان يجهله العالم القديم

واري انه لا جدوى من ذكر نقد انجلز للعائلة الفردية « ان تحرر النساء مشروط قبل كل شيء بواقع ان الجنس المؤنث يجب ان ينخرط كله في العمل الاجتماعي وهذه الواقعة تتطلب بدورها ان تكف الاسرة الفردية عن ان تكون خلية المجتمع الاقتصادية الاساسية. ونحن نتقدم نحو الثورة الاجتماعية التي

ستختفي معها الاسس الاقتصادية لوحدة الزواج مع الزوال المحتم لتتمتها: البغاء»

لكن اذا كانت وحدة الزواج مشروطة باسباب اقتصادية ، أفلن تختفي من تلقاء نفسها ما ان تختفي هذه الاسباب الـتي ولدتها والتي تؤسسها ؟ ويوم تصبح جميع وسائل الانتاج ملكية اجتماعية ، أفلن يحل محـــل وحدة الزواج شكل آخر من اشكال العلاقـــات الجنسية يكون اكثر انسجاماً مع شروط المجتمع الاشتراكي ؟

يلاحظ انجلز « يمكننا التأكيد عن حق بان وحدة الزواج لن تختفي وانما ستتحقق لاول مرة في التاريخ ذلك انه يوم تصبح وسائل الانتـــاج ملكية اجتماعية ، فإن العمل المأجور ، البروليتاريا ، سيختفي وبالتالي ستزول ضرورة بيع النفس من اجل المال بالنسبة الى عدد معين من النساء (يقدره الاحصاء) ومع اختفاء البغاء فإن وحدة الزواج، بدلاً من ان تختفي، ستصبح اخيراً حقيقة واقعة بالنسبة الى الرجال ايضاً »

وسوف تتحرر النساء آنذاك من جميع القيـــود التي يفرضها عليهن المجتمع البورجوازي وسوف يختفي الطغيان المنزلي ولن تعود المرأة مقيدة بالمنزل وسوف تصبح تربية الاولاد عملاً اجتماعياً وسوف يتلاشى كل فرق بين الاولاد « الشرعيين » والاولاد « اللاشرعيين » لكن لعل هذا الظرف بالذات هو الذي سيؤدي الى اعادة توطيد الاشكال القديمة من العلاقـات الجنسية الاكثر انسجاماً مع النظام الاجتماعي الشيوعي ؟

لقد طرح انجلز ايضاً هذا السؤال فقـد كتب « ألن تصبح هذه الظاهرة سبباً كافياً للتطوير التدريجي للعلاقـات الجنسية الفوضوية ولتسامح الرأي العام على نحو متزايد دوماً تجاه شرف العذارى والحيـــاء الانثوي ؟ ألم نر اخيراً ان الزواج الوحداني والبغاء في العالم الحديث هما تناقضان حتميان ، قطبـان لنظام اجتماعي واحد ؟ وهـــل يمكن ان يزول البغاء من دون ان يجر وراءه وحدة الزواج ؟ » .

ان انجلز يجيب على هذا السؤال اجابة قاطعة كلا ! ولقد سبق ان اوردت رأيه بصدد عاطفة الحب الفردي الحديث،بصدد الحب الجنسي الفردي الحديث، فهو يرى فيه « اكبر تقدم اخلاقي » وفي تطوير هذا العامل على وجه التحديد، الذي لم يكن له من وجود في عصر تطور وحدة الزواج الا على نحو بدائي، يرى انجلز ضمانة ضد اعادة توطيد العلاقـــات الجنسية « الفوضوية » واستنتاجاته معززة بلمحة عن تاريخ الحب الجنسي الفردي

« حتى مستهل العصر الوسيط لم يكن هناك من مجال للحب الجنسي الفردي. وغني عن البيان ان الجمال ، والمشارب المشتركة ، الخ ، كانت تبعث لدى البشر الرغبة في العلاقات الجنسية وصحيح ان الرجال والنساء على حد سواء ما كانوا لا مبالين كل اللامبالاة باختيار الافراد الذين يقيمون او يقمن معهم علاقـــات صميمية لكن هذه الظاهرة ما تزال بعيدة عن الحب الجنسي الحديث »

بم يتميز اذن الحب الجنسي الحديث ؟

« ١ — انه يفترض الحب المتبادل من جانب الكائن المحبوب ، وبهـذا المعنى تكون المرأة مساوية للرجل في حين ان اذواق النساء ما كان يؤبـه لها كثيراً في عصر ايروس القديم

٢ — ان الحب الجنسي يعرف درجة عاليـــة جداً من الكثافة والاستمرار بحيث ان الانفصال وعدم الامتلاك يبدوان للكائنين الاثنين تعاسة كبيرة ، ان لم تكن كبرى ، فالاثنان قادران على بذل كل شيء ، بمـا في ذلك حياتهما ، حتى يكون في وسعهما ان يمتلـــك كل منهما الآخر ، الشيء الذي لم يكن يحدث في العصور الغابرة الا في حالات الزنى واخيراً فان معياراً جديداً يظهر اليوم فالمرء ما عاد يسأل عمّا اذا كان الفعل الجنسي يتم في الزواج او خارج الزواج ، وانما يلاحظ فقط ما اذا كان قد ولد في الحب والحب المتبادل ام لا »

ويعطي انجلز ايضاً لمحة عن الحب الجنسي الفردي في العصر الوسيط والعصور

الحديثة وهو يدرس المسألة التالية كيف تعدلت شروط الزيجات تحت تأثير الشروط الاقتصادية الحديثة كيف حصل الجنسان على حرية الاختيار

ان الحرية التامة في عقد الزواج لا يمكن ان تتحقق الا بعد الغاء الانتاج الرأسمالي والعلاقات الاقتصادية التي يخلقها هذا الانتاج ، لأن هذا الالغاء سيضع حداً لجميع المصالح الاقتصادية التي ما تزال تمارس الى اليوم تأثيراً هاماً على اختيار الازواج وبعد هذا الالغاء لن يبقى هناك من معيار غير الميل المتبادل »

ان انجلز يكرر الفكرة التي عرضها ماركس في كتاباته شابه فتطور الانسانية يتترجم في التحرير المتواصل للانسان من العنصر الحيواني، لا من سلطان الطبيعة ، بل من سلطان الحيوانية وكل تاريخ الحضارة الانسانية هو تحرير متواصل للانسان من اغلال العالم الحيواني ، أنسنة تدريجية لتلك الطبيعة التي كانت ما تزال تسيطر على الانسان في فجر التاريخ ان انساناً اجتماعياً يأخذ مكانه محل الانسان القديم الطبيعي فالوعي الاجتماعي يحل أكثر فأكثر محل وعي القبيلة القديم الطبيعي والتاريخ الانساني يضيف الى اللامساواة الطبيعية اشكالا مختلفة من اللامساواة الاجتماعية والمجتمع الرأسمالي يخلق جميع الشروط المادية والفكرية الضرورية لهدم اللامساواة الاجتماعية .ومؤكد ان هذه المساواة التامة لا يمكن ان تلغي التمايزات الطبيعية التي توجد وستوجد كنتائج للفرق الفيزيولوجي بين الجنسين ، لكن تطور الحضارة اللاحق لا بد ان يفضي الى زوال جميع العقبات التي يخلقها المجتمع والاقتصاد والسياسة في وجه تلك المساواة ولنتذكر كلمات فورييه التي استشهد بها ماركس وانجلز فعندما يتحرر الحب الجنسي من جميع عناصر الحيوانية والاكراه المكشوف او المقنع ويتحول ، كما يقول ماركس ، في لحظة من الاتحاد الروحي المتحقق بفضل المساواة التامة بين الرجل والمرأة ، آنذاك فقط تولد اسس شكل جديد واسمى واشكال الزواج الوحداني

ويتابع انجلز : « ان الحب الجنسي حب مانع بطبيعته بالذات بالرغم من

ان المرأة هي وحدها التي تحافظ اليوم على طابعه المانع هذا وعلى هذا فـــان الزواج القائم على الحب الجنسي يجب ان يكون وحدانياً بطبيعته بالذات. ولقد سبق ان لاحظنا كيف ان باخوفن كان على حق عندما رأى في الانتقـــال من الزواج المتعـــدد الى الزواج الفردي مأثرة للنساء ولا نستطيع ان ننسب الى الرجال سوى التطور من الزواج الثنائي الى الزواج الوحداني ويرتـد الانتقال الاخير هذا في جوهره الى استفحال وضع المرأة بينما كان بمثابة تسهيل لعـــدم وفاء الرجل ويوم تختفي تلك الاعتبارات الاقتصادية التي ترضخ النساء بسببها لعدم وفاء الرجال (مخاوفهن على مستقبلهن ومستقبل اولادهن) ، فـإن تحرر النساء ، المتحقق بفضل تلك الواقعة ، سيساهم في تحقيق وحدة روجات الرجال مما سيساهم في تحقيق تعدد ازواج النساء »

شكل « متعال » من وحدة الزواج

حاول بعض من رفاقنا ان يستند الى لينين ، بيـــد ان النجاح لم يحالفه ولست انوي هنا دراسة افكار لينين عن الزواج والاسرة بيـــد انني استطيع الاشارة الى ان لينين كان يتبنى تماما التبني تصورات ماركس وانجلز المعروضة في مقالي فعندما نشر في عام ١٩٠٣ الترجمة الروسية لـ « الثـورة الاجتماعية » ، احد افضل مؤلفات كاوتسكي ، ارتأى انـــه من الضروري ان يضيف الى هذا الكراس الفصل الاخير من الجزء الثاني من « المسألة الزراعية » وهو مؤلف آخر لكاوتسكي كان يحظى بتقديره وكان هـذا الفصل يتعلق بـ « مستقبل السكن الخاص » وقد اقام كاوتسكي ، بعـد ماركس وانجلز ، البرهان على ان التطور الاقتصادي سيغني اكثر فأكثر عن الحاجة الى المطبخ والبيت الخاصين وانـــه سيزعزع اكثر فأكثر اساس الاسرة الاقتصادي فهـــل تعني هذه الظاهرة ان الاسرة بالذات ستختفي ايضاً ؟ كلا فهي تملك من الآن اساساً جديداً واسمى الفرد .

« ان النزعة الفردية ، اي الميـــل الى تطور حر للفرد ، ستعرف في المجتمع الاشتراكي قوة وانتشاراً اوسع بما لا يقاس منها في المجتمع الرأسمالي ، وذلك كلما انتشر التعليم والرفاه ووقت الفراغ ومع النزعة الفردية يتفتح ايضاً الحب الجنسي الفردي الذي لا يلبى الا في وحدة الحيـــاة المشتركة مع فرد محدد من الجنس الآخر وفي المجتمـــع الاشتراكي الذي لا يعرف لا البؤس ولا الغنى والذي يلغي اكثر فأكثر الاقتصاد الخاص ، سيتجلى الطابـــع الفردي للاسرة والزواج بملء الحرية. وهذا الطابع الفردي يعتبر من الآن معياراً اخلاقياً لتقييم الزواج والاسرة » وعلى هذا فإن زوال الا اد الخاص لا يعني البتـــة الغاء الزواج والاسرة ومـــع الغاء البيت الخا لن يلغى البتة السكن الخاص فالحضارة الحديثة تعرف روابط زوجية غير روابط المطبخ والغسيل وزوال الاقتصاد الخاص لا يعني الا تطور الاسرة الـــتي تتحول من وحدة اقتصادية الى وحدة اخلاقية خالصة انه يعني تحقق تلك الصموات الاخلاقية التي تجلت حتى في عصرنا الراهن ، تحت تأثير تطور النزعة الفردية المدعومة بنمو القوى المنتجة الحديثة

وليست لغتنا غنية بما فيه الكفاية لتطلق تسمية خاصة على هـــذا الشكل الجديد من وحدة الزواج. وانما نحو هذا الزواج الفردي الجديد على وجه التحديد يتقدم المجتمع البشري وهذا الزواج قائم على المبـــدأ الاخلاقي ومتطهر من عناصر البغاء المذكر والمؤنث على حد سواء. والمجتمع يتقدم نحو هذا المثل الاعلى بتحرره من قيود الملكية الخاصة ، وكلما تخلت الحيوانية عن سلطانها للانسانية ، كلما انتصرت فكرة الفرد ولا نقصد بهـذه الفكرة فكرة الفرد الذي يتحقق تطوره ، او بتعبـير ادق يشترى تطوره في المجتمع الطبقي على حساب اضطهاد الفردية في الطبقات المستثمرة ، وانما فكرة فرد حر ومتطور تطورا شاملا ولا يمكنه اصلا ان يتطور الا في مجتمع « يكون التطور الحر لكل فرد فيـه شرطاً للتطور الحر للجميع »

ان انجلز يسوه عن حق بن هي التي باشرت بتقليص نطاق الزواج متعدد والشكل الاعلى من وحدة الزواج يفترض حرية الطلاق التامة ونقاوة خلاقية واستقامة كاملة وعلاقات بين الرجل والمرأة متحررة من كل كذب ورياء. وسوف يتوكد هذا الشكل اكثر فأكثر كلما تحررت المرأة من العبودية وكلما تحرر الرجل من كل أثر من آثار الحيوانية وسوف يختفي البغاء المذكر والمؤنث كما تعاظم احترام الذات والغير

ليس كل تزاوج رواجاً والقرد قريب من الانسان ، لكن على الانسان الا يبقى في مستوى تطور القرد واني لاكرر الفكرة التي صاغها ماركس لانسانية تتحرر ، عليها ان تتحرر وسوف تتحرر من مشاعر الحيوانية التي تتطور في الحمة[1] البشرية ومؤكد انها لا تستطيع التحرر من قوانين الطبيعة لكنها تجعل حاجاتها الحيوانية كافة انسانية ، اذ هي تخضعها للعقل وعديمو لادراك اخلاقياً هم وحدهم الذين يمكنهم ان يتغنوا بتلك « النزعة المادية » التي لا تميز بين تلبية الجوع وتلبية الغريزة الجنسية فموضوع الحاجة الاولى موضوع خامد ، وموضوع الحاجة الثانية كائن انساني قادر على التمتع والتألم

ان الغريزة الجنسية تكون في درجة محددة من التطور الفيزيولوجي احد شروط الرئيسية لتفتح القوى الجسمانية والاخلاقية لكن من الضروري الا تشكل تلبية هذه الغريزة سوى احدى العلاقات التي لا تكون الحياة الانسانية بدونها كاملة بيد ان هذه الظاهرة يجب الا تعتبر ابداً هدف الحياة الانسانية ذلك ان الشكل الاكثر تطوراً من الزواج الفردي ، القائم على الاحترام المتبادل وعلى المساواة الاجتماعية التامة بين الشخصين المختلفين فيزيولوجياً ، هو وحده الذي « يحول الغريزة الطبيعية الى لحظة من لحظات الاتحاد الروحي » على حد تعبير ماركس

---

(١) جمع خم بيت الدجاج

وفي الختام انتقل الى المشكلة التي كانت سبب عرضنا هذه الآراء النظريـــة العامة واساس تشريعنا عن الاسرة

فالقانون الجديد ينص على ان تسجيل الزيجات يـتم لصالح الدولة والمجتمع وقد كان دعاة التجديد المتحمسون اكثر ممـــا ينبغي يريدون ان يحولوا القانون القديم، الذي قال عنه لينين بحق انه واحد من اكثر قوانين ثورة اوكتوبر جذرية الى مجرد قانون بورجوازي ، معلنين ان التسجيل لا يتم الا بهدف حماية الشخص والملكية وهكذا كانوا يخضعون تطور الحقوق السوفياتية للسياسة الاقتصادية الجديدة

والرفيق بريوبراجنسكي ، الشغيل الممتاز في الحزب الشيوعي ، يعرف ان كل نقاش حول هذا الموضوع ان هو الا ثرثرة بورجوازية وفوضويـة ، اذ ليس على المجتمع ان يتدخل في هذه العلاقات

يلاحظ الرفيق بريوبراجنسكي: « ان عضو المجتمع الذي يعتبر جسده ملكيته الخاصة يعبر ، من وجهة النظر الاشتراكية ، عن فكرة سخيفـة ، اذ ان الفرد ليس سوى نقطة صغيرة منفصلة في التطور الذي يحققـــه عرق من العروق من الماضي نحو المستقبل لكن الاسخف من ذلك بعشر مرات التصور المماثل عـن ذرية الفرد »

ويطالب الرفيق بريوبراجنسكي بـ« ملاحقات عديمة الشفقة ضدالذين ينشرون امراضاً جنسية من دون ان يفكروا بالجريمة الـــتي يقترفونها ضد سائر اعضاء المجتمع وحتى ضد رفاقهم الطبقيين » وهو يعترف بـ « حق المجتمع غير القابل للنقض في التدخل في الحياة الجنسية بهدف تحسين العرق عـن طريق الانتخاب الجنسي الاصطناعي

وعلى الرفيق بريوبراجنسكي بالتالي ان يقر بأنـني كنت على صواب تام عندما صرحت بان تسجيل الزيجات المترافق بحرية الطلاق التـــامة ضروري للدولة

والمجتمع فالتسجيل يمثل شكلاً وديعاً للغاية لتنظيم الزيجات وهـذا الشكل هو وحده الذي يوفر امكانية مراقبة الشروط التي يفرضها المجتمع المتقـدم على طريق الاشتراكية والدولة التي تشكل فيها البروليتاريا الطبقة السائدة ، المواطنين لصالح تطور المجتمع حد العمر الصحة الجسمية والنفسية ، الخ وهذه الشروط جميعاً لا تشكل سوى الحد الادنى من المعايير التي تمليهـا ، في رأي بريوبراجنسكي ، « مشكلات حفظ العرق

اننا نعيش اليوم في مرحلة انتقالية يتطور فيها المجتمع الى مجتمع اشتراكي ولقد حققنا الشروط التمهيدية فالسلطة في ايدي البروليتاريا ووسائل الانتاج الرئيسية في ايدي المجتمع لكننا لم نحقق بعد الاشتراكية. وهذه مسألة تتطلب عدداً كبيراً من السنين

وليس المجتمع الاشتراكي ، هو نفسه سوى مرحلة اولى من التطور نحـو الشيوعية التي هي مرحلة عليـا وسوف نتحرر في ظل النظام الاشتراكي من مجموعة كاملة من القواعد الحقوقية وغير الحقوقية التي ما زلنا نحتفظ بها في المرحلة الانتقالية ولا نستطيع اليوم اكثر من تخفيف وطأة هذه القواعد ، حتى لاتضر بتطور الاشتراكية

لكن يوم تتحقق الاشتراكية فعـلاً ويوم تتقلص سلطة الدولة الى اقصى حد وتتحطم نهائياً مقاومة الطبقات المقهورة، فان بعض القواعد والعادات والفروق بين البشر ، التي ورثناها عن النظام القديم ، ستظل قائمة وصحيح ان الملكية الخاصة لن تتحول بعد الآن الى ملكية خاصة رأسمالية، وصحيح انها لن تكون بعد الآن وسيلة لاستغلال الانسان من قبل الانسان ، لكنها ستظل قائمـة لمدة طويلة من الزمن ايضاً مع اساسها وتتمتها الاقتصاد الصغير وينبغي ان ننتظر مدة طويلة من الزمن ايضاً حتى يختفي هـذا الاقتصاد الصغير ، وحتى تتحرر المرأة من اعبائها بفضل شبكة واسعة من رياض الاطفال والمطابخ الجماعيـة ، وحتى تصبح جميع النساء القـادرات على العمل اعضاء في جيش الشغيلة ، وحتى

تتقلص مدة يوم العمل وآنذاك فقط ستتوفر الشروط الضرورية لتحقيق الشيوعية ومع زوال الدولة ستزول ايضاً كل سلطة اضطهادية وسوف يربى كل عضو في المجتمع وسوف يكون على قدر كبير من الوعي لواجباته الاجتماعية بحيث ان التزاماته ستصبح بالنسبة اليه حاجات طبيعية. ولن تعود هناك حاجة الى حفز الناس على العمل بوسائل مصطنعة كالعقود والمكافآت وسوف يكون كل انسان نافعاً للمجتمع حسب قابلياته وسوف يتلقى مكافآته حسب احتياجاته وسوف تتلاشى كل تبعية للنساء تجاه الرجال ولن تعود المرأة اسيرة بيتها

هل سيبقى تسجيل الزيجات ، في هذا المجتمع الاعلى ، ساري المفعول ؟ اجل. لكن هذا التسجيل سيصبح واجباً طبيعياً ازاء المجتمع لا يقل طبيعية عن العمل نفسه. ومن غير الممكن تصور الشيوعية بدون تسجيل جميع قوى المجتمع وجميع حاجاته. والانسان، في المجتمع الشيوعي ايضاً ، يكون اثمن قوة منتجة.

واننا لنجد هذا المقطع في القرار الذي صاغه ماركس والذي تبناه مؤتمر الاممية الاولى

« ان اوعى قسم من الطبقة العاملة يفهم تماماً ان مستقبل الطبقة ، وبالتالي مستقبل الانسانية، يتوقف على الجيل الجديد. وهؤلاء العمال يفهمون ان الاطفال والمراهقين يجب ان يحرروا من التأثير الضارّ للنظام الراهن ، الشيء الذي لا يمكن ان يتحقق الا عندما يصبح العقل الاجتماعي قوة اجتماعية ولا وجود في الشروط الراهنة لوسائل لبلوغ هذا الهدف غير القوانين المدعومة بسلطة الدولة»

ولن يكون هناك من ناظم للمجتمع الشيوعي غير العقل الاجتماعي الذي سيكون مدعوماً بالهيبة المعنوية التي ستكون للمجتمع على الفرد

وسوف يكون تسجيل الزيجات احدى القواعد السارية المفعول لصالح تطور المجتمع وسوف يتم تنفيذ تعليمات العقل الاجتماعي بفضل الانضباط الحر في

العمل والانصياع الحر للقواعد المقررة على نحو جماعي

بد من بذل المزيد من الجهود الشاقة لازالة كل اثر من آثار الماضي مكروهة ، ومن ضمنها الغاء ، ذلك الشكل الاكثر دناءة والابعث على الاشمئزاز من شكال استثمار الانسان

نظروا الى ما يحدث عندما في الدولة التي تتقلد فيها البروليتاريا زمام السلطة انه ليغمرنا خجل مرير ونحن ما نزال نرى ، في العام العاشر من الثورة البروليتارية ، الهوان العميق الذي تعيش فيه النساء المكرهات على بيع اجسادهن وشعورهن في سبيل لقمة العيش

ن الشيوعية التي تلغي الملكية الخاصة ، وكل ايديولوجيتها ، والتي تلغي الفروق الاجتماعية داخل المجتمع ، هي وحدها التي ستفضي الى انتصار الانسانية على الحيوانية والى تحرر المرأة النهائي

نقلاً عن مجلة « انصار »

عدد تشرين الاول والثاني ١٩٦٦

لينين والمسألة الجنسية

بقلم كادرا زتكين

كثيراً ما حدثني الرفيق لينين عن مسألة المرأة وكان يعلق على هذه المسألة اهمية كبيرة ، لان الحركة النسويـــة كانت في نظره جزءاً اساسياً ، وفي بعض الظروف ، جزءاً حاسماً من حركة الجماهير وغني عن البيان انـــه كان يعتبر مساواة المرأة التامة مبدأ لا جدال حوله من مبادىء الشيوعية ولقـد جرى اول حديث مطول بيننا حول هـذا الموضوع في خريف ١٩٢٠ في مكتب عمله بالكرملين. كان لينين جالساً امام طاولته التي تكدست عليها الكتب والاوراق الشاهدة على نوع انشغاله وعمله، لكن من دون تلك « الفوضى المميزة للمبقرة » وبعد ان حيّاني شرع يقول

— ان من اول واجباتنا ان نخلق حركة نسوية عالمية ، قائمـــة على اساس نظري واضح ومحدد وبديهي انه لا يمكن ان توجد ممارسة حسنة بدون نظرية ماركسية وعلينا ، نحن الشيوعيين ، ان نتمسك في هذه المسألة بكل نقـاوة مبادئنا علينا ان ننفصل انفصالا صريحاً عن جميع الاحزاب الاخرى ومن المؤسف ان مؤتمرنا الاممي الثاني لم يكرس وقتاً لمناقشة المسألة النسوية او لاتخاذ موقف بصددها بالرغم من ان هذه المسألة قد طرحت على بساط البحث. والخطأ في ذلك يقع على كاهل اللجنة التي تترك الامور تجرجر اذيالها. ان على اللجنة ان تضع صيغة قرار وموضوعات ، وخطاً حازماً . لكن اعمالها لم تتقدم حتى اليوم

وعليك ان تساعديها في ذلك »

كان قد سبق لي ان سمعت كلاماً يشبه ما يقوله لينين لي الآن ، وابديت له اندهاشي كنت متحمسة لكل ما انجزته النساء الروسيات اثناء الثورة ، ولكل ما هن في سبيلهن الى انجازه للدفاع عنها وتطويرها. اما عن وضع النساء ونشاطهن في الحزب البلشفي، فقد كان يخيل الي ان الحزب هو فعلاً على مستوى مسؤوليته في هذه المسألة المحددة فالحزب البلشفي هو وحده الذي يعطي الحركة النسوية الشيوعية العالمية ملاكات متمرسة ، مثقفة ، ويقدم في الوقت نفسه قدوة تاريخية كبرى وقد لاحظ لينين وهو يبتسم ابتسامة خفيفة

هذا صحيح ، صحيح تماماً ففي بتروغراد ، وهنا في موسكو ، وفي المدن والمراكز الصناعية النائية ، كان موقف النساء البروليتاريات رائعاً. فلولاهن لكان من المحتمل حداً الا ننتصر هذا هو رأيي يا للشجاعة التي برهن عليها ويا للشجاعة التي ما زلن يبدينها الى اليوم تصوري كل الآلام والحرمانات التي يكابدن منها لكنهن رابطات الجأش ، مصممات ، لانهن يحامين عن السوفييتات ، لانهن يردن الحرية والشيوعية

« اجل ، ان عاملاتنا لرائعات، مناضلات طبقيات حقيقيات. انهن جديرات باعجابنا وحبنا

« اجل ، ان لدينا في حزبنا نساء شيوعيات موثوقات وذكيات ونشيطات بشكل لا يعرف الكلل وفي وسعهن ان يشغلن مناصب هامة في السوفيات واللجان التنفيذية ومفوضيات الشعب والادارة والكثيرات منهن يعملن ليل نهار في الحزب ، او بين الجماهير البروليتارية والفلاحية او في الجيش الاحمر وهذا شيء ثمين للغاية بالنسبة الينا وهذا شيء هام بالنسبة الى نساء العالم قاطبة لانه شهادة على طاقات النساء وعلى قيمة عملهن الرفيعة بالنسبة الى المجتمع

« ان دكتاتورية البروليتاريا الاولى تشق الطريق فعلاً نحو المساواة الاجتماعية

التامة للمرأة فهي تستأصل شأفة الآراء المسبقة على نحو اكثر جذرية بكثير مما تفعله الكتابات عن المساواة النسائية وبالرغم من هذا كله ، فاننا لا نملك بعد حركة نسوية عالمية وعلينا ان نتوصل الى انشائها بأي ثمن علينا ان نعمل على تنظيمها بدون اي تأخر وبدون هذه الحركة سيكون عمل اممينا وشعبها ناقصاً وسيبقى ناقصاً

« ان عليا ان نتابع عملنا الثوري حتى النهاية قولي لي اين وصل العمل الشيوعي في البلدان الاجنبية ؟ »

اطلعته على جميع المعلومات التي امكنني جمعها ، وكانت معلومات محدودة نظراً الى الصلة الواهية واللانظامية التي كانت قائمة آنذاك بين الاحزاب المنتمية الى الاممية الشيوعية وكان لينين ، المنحني قليلاً الى الامام ، يصغي الي بانتباه من دون ان تصدر منه أمارة من أمارات السأم او قلة الصبر او التعب بل كان يهتم شديد الاهتمام حتى بالتفاصيل الثانوية الاهمية

انني لا اعرف شخصاً اكثر مقدرة منه على الاصغاء وعلى تصنيف الوقائع وتنسيقها بمثل تلك السرعة وكان هذا واضحاً من الاسئلة المقتضبة ، لكن البالغة التحديد دوماً ، التي كان يطرحها بين الفينة والفينة اثناء حديثي ، ومن طريقته في الرجوع فيما بعد الى تفاصيل محادثتنا وكان لينين قد سجل بعض الملاحظات المقتضبة

وغني عن البيان انني تكلمت بوجه خاص عن الوضع في المانيا وقد قلت له إن روزا (لوكسمبرغ) تقدر انه من بالغ الاهمية كسب الجماهير النسائية للنضال الثوري فعندما شكل الحزب الشيوعي ألحت روزا على نشر صحيفة مكرسة للحركة النسوية وعندما كان ليو جوغيشيس يدرس معي خطة عمل الحزب اثناء مقابلتنا الاخيرة ، قبل ست وثلاثين ساعة من اغتياله ويطلعني على المهام الواجب تنفيذها ، اطلعني ايضاً على خطة لعمل منظم بين العاملات وقد عولجت هذه المسألة منذ المؤتمر الاول غير المشروع للحزب ... وقد باشر الحزب

عملاً منهجياً بين العاملات وصحيح اننـــا في البداية ، لكنها بداية حسنة وقال لينين

— هذا ليس بالشيء السيء ، ليس بالشيء السيء البتة لكنني سمعت ، بالمناسبة ، رفيقات روسيات وألمانيات يتفوهن باشياء غريبة ويجب ان اقص عليك الامر. لقد روي لي ان شيوعية موهوبة للغاية تطبع في هامبورغ صحيفة للغايا وتحاول ان تنظمهن للنضـال الثوري ولقد تصرفت روزا ، بوصفهـــا شيوعية ، على نحو انساني عندما كتبت مقـــالاً دافعت فيـه عن احدى الغايا السجينات لانتهاكها بعض قوانـــين الشرطة المتعلقة بمهنتها المحزنة والحق ان البغايا ، ضحايا المجتمع البورجوازي مرتين ، جديرات بالرثاء

« انهن ، اولاً ، ضحايا نظام الملكية اللعين ، وثانياً ، ضحايا الرياء الاخلاقي اللعين . هـــذا واضح وأجلاف القلوب وحسيرو العيـــون هم وحدهم الذين يتناسون ذلك

« ولكن أليس في المانيا عاملات صناعيات ينبغي تنظيمهن ينبغي طبـع جريدة لهن؟ ينبغي جرهن الى النضال؟ ان هذا لانحراف مرَضي. وانه ليذكرني بالصرعة الادبية التي تجعل من كل بغي سيدة عذراء وديعة وصحيح ان «الجذر» كان هنا ايضاً سليماً الاشفـــاق الاجتماعي ، إستنكار الرياء والبورجوازية المحترمة لكن هـــذا الجذر السليم قد ذوى بعد ان انتقلت اليـــه العدوى البورجوازية فالبغاء في بلده ايضاً سيطرح امامنا مشكلات عديدة صعبة الحل والمطلوب هو اعادة البغيّ الى العمل المنتج، وتمكينها من اخذ مكانها في الاقتصاد الاجتماعي ، وهـــذا امر معقد وصعب التحقيق في الحالة الراهنة لاقتصادنا وفي الشروط الحاضرة ذلك هو احد جوانب المشكلة النسوية التي تنطرح علينـــا بكل سعتهـا طالبة الحل وهذه المشكلة بعيدة عن ان تكون قد سويت بعد في روسيا السوفياتيـة ولكن لنعد الى حالتكم الخاصة في ألمانيـا ان الحزب لا يستطيع ، في اي حال من الاحوال ، ان يغض النظر عن مثـل هذه الاعمال

غير المنظمة من جانب اعضائه فهذا يزرع الالتباس في الامور ويضعف قوانا وانت ، ماذا فعلت حتى تحولي دون ذلك ؟

ومن غير ان ينتظر لينين حوابي تابع

« ان لائحة اخطائك ، يا كلارا ، لم تنفد بعد فقد سمعت انك تهتمين بوجه خاص ، في امسيات المطالعة والنقاش مع العاملات ، بمسائل الجنس والزواج سمعت ان هذا الموضوع يحتـــل مركز المحور في اهتماماتك وتعليمك السياسي وعملك التربوي والحق انني لم اصدق اذني

« ان دولة دكتاتورية البروليتاريا الاولى تكافح ضد جميع مناهضي الثـورة في العالم ووضع المانيا بالذات يستدعي اكبر التلاحم بـين جميع القوى الثورية البروليتارية لرد هجمات الثـورة المضادة التي لا تني تزداد قـــوة والحال ان الشيوعيات النشيطات يعالجن اثناء ذلك مسألة الجنس واشكال الزواج في الماضي والحاضر والمستقبل ويقدرن ان واجبهن الاول هو تثقيف العاملات بمثل هذه الافكار. ومما يزعم ان كراسة احدى الشيوعيات الفيناويات عن المسألة الجنسية تتمتع بانتشار واسع جداً. يالبلاهة هذه الكراسة ! فالقليل من المفاهيم الصحيحة التي تشتمل عليها ، سبق للعاملات ان اطلعن عليه من بيبـــل ، وهذا ليس في شكل مخطط جاف ومملا كما في تلك الكراسة ، وانمـــا في شكل دعاية تأخذ عليك لبك ، دعاية مليئة بالهجمات على المجتمع البورجوازي وفرضيات فرويد الواردة في الكراسة المذكورة تعطي الكتـاب ، على حد ما يزعم ، طابعـــاً « علمياً » ، لكنه ليس في الواقع سوى خربشة بدائيـة ونظرية فرويد لم تعد اليوم هي نفسها سوى نزوة من نزوات الموضة انني لا اثق البتة بتلك النظريات الجنسية المعروضة في مقالات وتقارير وكراسات الخ وباختصار في ذلـــك الادب النوعي الذي ازدهر بغزارة في تربة المجتمع البورجوازي وانني لارتاب في اولئك الذين تشغلهم باستمرار وعناد مسائل الجنس ، مثلهم مثـــل الفقير الهندي في تأمله سرّته .

انه ليخيل الي ان هذه الوفرة من النظريات الجنسية التي ليست في معظمها سوى فرضيات تعسفية تنبع من ضرورات شخصية تماماً ، اي من حاجة المرء الى تبرير حياته الشاذة او غرائزه الجنسية المشتطة في نظر الاخلاق البورجوازية والى استصدار قرار بالعفو عنها

« ان هذا الاحترام المستتر للاخلاق البورجوازية يثير اشمئزاري بقدر ما يثيره ذلك التحمس للمسائل الجنسية وهذا الاهتمام ، مهما اتخذ من اشكال هدامة وثورية ، يظل في خاتمة المطاف اهتماماً بورجوازياً خالصاً. واولئك الذين يؤثرون الانصراف اليه هم المثقفون وسائر فئات المجتمع القريبة منهم ولا مكان البتة لهذا النوع من الاهتمامات في الحزب وفي اوساط البروليتاريا المناضلة والواعية لروحها الطبقية »

وقد لاحظت بدوري ان المسائل الجنسية والزوجية في ظل نظام الملكية الخاصة تثير مشكلات عدة ، وانها احد اسباب الصراع والالم بالنسبة الى النساء من جميع الطبقات والفئات الاجتماعية وقلت ان الحرب ونتائجها قد ضاعفت بالنسبة الى المرأه من شأن الصراع والالم اللذين كانت تنطوي عليهما في السابق العلاقات بين الجنسين. فالمشكلات التي كانت مستترة حتى الآن تكشفت لأنظار النساء ، وهذا في مناخ الثورة التي هلت بشائرها وعالم العواطف القديمة والافكار القديمة يتداعى من كل جانب والروابط الاجتماعية الماضية تضعف وتتحطم وتظهر الى الوجود بذور منطلقات ايديولوجية جديدة ، لم يتحدد شكلها بعد ، للعلاقات بين البشر وما تثيره هذه المسائل من اهتمام يجد تفسيره في الحاجة الى اتجاه جديد وهنا يبرز ايضاً رد الفعل على تشويهات المجتمع البورجوازي واكاذيبه وتبدل الاشكال الزوجية والعائلية على مر التاريخ ، من خلال ارتباطها بما هو اقتصادي ، يشكل وسيلة حسنة لاستئصال جذور الايمان بخلود المجتمع البورجوازي من اذهان العائلات. والنقد البورجوزي لهذا المجتمع يجب ان يؤدي الى تقطيع اوصال النظام البورجوازي والى تعرية

اهيبه ونتائجه والى فضح الاخلاق الجنسية الزائفة الطرق جميعها تفضي الى روما. وكل تحليل ماركسي يتعلق بجزء هام من بنية المجتمع الفوقية الايديولوجية او بظاهرة بارزة يجب ان يقود الى تحليل النظام البورجوازي واساسه ، الملكية الخاصة وكل تحليل من هذه التحاليل يجب ان يقود الى الاستنتاج التـــالي ينبغي ان تهدم قرطاجة

كان لينين يبتسم وهو يهز رأسه

ـ حسناً انه لتبدو عليك سيماء المحامي الذي يدافع عن رفاقـه وحزبه يقيناً ، ان ما تقوليه هنا لصحيح لكن اكثر ما يوسع هذا الكلام هو ان يعذر الغلطة المقترفة في المانيا ، لا ان يبررها ان الغلطة المقترفة تظل غلطة هل تستطيعين ان تضمني لي حديـــاً ان المسائل الجنسية والزوجية لا تناقش في اجتماعاتكم الا من وجهة النظر المادية التاريخية الحيوية المفهومة فهماً حسن هذا ليفترض معارف واسعة ، معمقة ، المعرفة الماركسية الواضحة بجملة هائلة من المواد هل تملكون في الوقت الراهن القوى الضرورية كان الجواب ان نعم ، لما كان امكن ان تستخدم كراسة كتلك التي تحدثنا عنها كمادة للتعليم في امسيات المطالعة والنقاش لديكم. وانتم توصون بهذه الكراسة وتوزعونها بدلاً من ان تنقدوها إلامَ يؤدي ، في خاتمة المطاف، هذا الدرس الناقص وغير الماركسي للمسألة ؟ انه يؤدي الى عدم فهم المسائـل الجنسية والزوجية بوصفها جزءاً من المسألة الاجتماعية الرئيسية ، بل يؤدي على العكس الى ان تبدو المشكلة الاجتماعية الكبرى نفسها وكأنها جزء من المشكلة الجنسية واستطالة لها. وهكذا يتراجع ما هو رئيسي الى الخلف وكأنه ثانوي وهـــذا لا يضر بوضوح المسألة فحسب ، بل يشوش ايضاً الفكر بشكل عام ووعي العاملات الطبقي

وثمة ملاحظة اخرى لا تخلو من فائدة لقد كان سليمان الحكيم يقول كل شيء في وقته فقولي لي ، ارجوك ، هـــل هذا هو الوقت المناسب لاشغال العاملات طوال اشهر كاملة لتحديثهن عن الطريقة التي يُحِب بها المرء ويُحب ،

او عن كيفية المغازلة لدى الشعوب المختلفة ، في الماضي والحاضر والمستقبل ؟ وهل هذا هو ما يسمى بفخر بالمادية التاريخية ! ان كل افكار العاملات يجب ان تكون موجهة الآن نحو الثورة البروليتارية فهذه الثورة هي التي ستخلق ايضاً اساساً لشروط الزواج الجديدة وللعلاقات الجديدة بين الجنسين اما في الوقت الحاضر فيجب ان تحتل المقام الاول مشكلات اخرى غير تلك التي تتعلق بأشكال الزواج لدى رنوج اوستراليا او الزيجات المعقودة بين اعضاء الاسرة في العصور القديمة

« ان التاريخ يضع في جدول اعمال البروليتاريا الالمانية مسألة السوفييتات ومعاهدة فرساي وتأثيرها على حياة الجماهير النسائية ومسألة البطالة وانخفاض الاجور والضرائب وغيرها من المسائل الهامة وباختصار ، لقد كان رأيي دوماً ان هذا النمط من التثقيف السياسي والاجتماعي للعاملات ليس هو النمط الواجب كيف امكنك ان تلزمي الصمت ؟ لقد كان عليك ان تستخدمي نفوذك »

وشرحت لصديقي المحتدم انني لم افوّت قط اي مناسبة للنقد وللرد على الرفيقات القياديات ، ولاسماع صوتي في شتى المناسبات بيد ان عليه ان يعلم ان ما من نبي في وطنه ولا بين اقاربه وقد اثرت ، بانتقاداتي هذه ، الشكوك حول بقائي وفية لمخلفات النزعة الاشتراكية—الديموقراطية والروح البورجوازية الصغيرة الفائت اوانها بيد ان انتقاداتي اتت ثمارها في خاتمة المطاف فمسائل الجنس والزوج لم تعد تعتبر هي الرئيسية في حلقاتنا وامسياتنا

وتابع لينين عرض فكرته قائلاً

— انني اعرف ، اعرف ان الشكوك تثار حولي انا ايضاً بانني لا افقه في مسائل العصر الحديث لكن هذا لا يثير انفعالي. فالجهلاء والبليدون من الشبان ما يكادون يخرجون من بيضة التصورات البورجوازية حتى يتصوروا انفسهم

غاية في الفهم والذكاء والحق ان حركة الشباب قد انتقلت اليها هي ايضاً عدوى الاتجاه الحديث والانسحار المشتط بالمسائل الجنسية

وقد شدد ليبين بسخرية على كلمة الحديث » واضاف مستنكراً

– لقد قيل لي ان المشكلات الجنسية هي ايضاً الموضوع المحبذ للدراسة في منظمات الشبيبة لديكم وما اكثر المحاضرين في هذا الموضوع وهذا شيء مثير للاستنكار وخطر للغاية بالنسبة الى حركة الشبيبة فهذه المواضيع تستطيع بسهولة ان تساهم في اثارة وحفز حياة بعض الافراد الجنسية وفي هدم صحة وقوى الشبيبة ان عليك ان تناضلي ضد هذه الظاهرة ايضاً دلك ان بين حركة النساء وحركة الشبيبة نقاط اتصال عديدة ان على رفيقاتنا الشيوعيات ان يشتركن مع الشبيبة في كل مكان في عمل منهجي وسيكون من ذلك رفعهن ونقلهن من عالم الامومة الفردية الى عالم الامومة الاجتماعية ومن الاهمية بمكان المساهمة في كل يقظة للحياة الاجتماعية والنشاط لدى المرأة حتى تتمكن من الارتفاع بنفسها فوق العقلية الضيقة ، البورجوازية الصغيرة ، الفردية النزعة لحياتها المنزلية والعائلية

ان قسماً كبيراً من شبيبتنا نحن ايضاً يعمل مشابراً على اعادة النظر في التصور البورجوازي عن « الاخلاق » في المشكلات الجنسية ، وانها ، يجب ان اقول ذلك ، نخبة شبيبتنا ، النخبة الحافلة بالوعود الكثيرة حقاً وكما قلت فإن القيم الايديولوجية القديمة تنهار في المناخ الذي ولدته الحرب وبداية الثورة ، وتفقد القوى التي كانت تسندها والقيم الجديدة لا تتبلور الا ببطء وبالنضال

« ان التصورات عن العلاقات بين الرجال والنساء قد انقلبت شأنها شأن العواطف والافكار ومن حديد بدأ تحديد حقوق الفرد وحقوق الجماعة ، وبالتالي واجبات الفرد وان هذه لصيرورة ، بطيئة ومؤلمة في غالب الاحيان ، من الاضمحلال والولادة وهذا ينطبق ايضاً على ميدان العلاقات الجنسية فيما يتعلق بالزواج والاسرة . ان انحطاط الزواج البورجوازي وتعفنه ووحله ، مع

مصاعب فسحه وحرية الزوج وعبوديـة المرأة ، والكذب الدنيء الذي تنطوي عليه الاخلاق الجنسية والعلاقات الجنسية ، ان هذا كله يثير لدى افاضل الناس شعوراً بالقرف العميق

« ان النير الذي تغل به قوانين الدولة البورجوازية الزواج والاسرة يزيـد ايضاً من استفحال الداء ومن حدة التناقضات انه نير عدم جواز انتهـاك حرمة الملكية الخاصة الذي يضفي طابعاً شرعياً على الخسة والقذارة وقابلية كل شيء للشراء بالمال ، بالاضافة الى كذب مواضعات المجتمع البورجوازي «المحترم». ان الناس يثورون على تشويهات الطبيعة هذه وفي العصر الذي تنهار فيه الدول القوية وتتلاشى اشكال السيطرة القديمة ويفسح عالم اجتماعي كامل تتبـدل عواطف الفرد المعزول بسرعة

ان الظمأ اللحوح الى مسرات متنوعـة يكتسب بسهولة قوة لا تقاوم واشكال الزواج والعلاقات بـين الجنسين بالمعنى البورجوازي لا تعود مرضية ان ثورة في هذا المجال تقترب مع اقتراب الثورة البروليتارية ومن المفهوم ان هذه المجموعة البالغة التعقيد من المسائل تشغل اهتمام النساء والشبيبة على حـد سواء فالنساء والشبيبة يشكون من هذا الاختلاط واللبس في العلاقات الجنسية والشبيبة تحتج على وضع الاشياء هذا بالحماسة واللجبة المميزتين لهذه السن هذا مفهوم واكبر خطأ نرتكبه هو ان نعظ الشبيبة بزهد الاديرة وبقداسة القذارة البورجوازية ولكن ليس من المستحسن في نظري ان تصـح المشكلات الجنسية ، التي رفعتها اسباب طبيعية الى المقام الاول ، الشاغل الرئيسي للشبيبة في هذه الاعوام فنتائج ذلك قد تكون في بعض الاحيان مشؤومة

« ان الشبيبة في موقفهـا الجديد من المسائل المتعلقة بالحيـاة الجنسية ، لا تتوانى من حيث المبدأ عن الرجوع الى النظرية. والكثيرون يصفون موقفهم بأنه « ثوري او « شيوعي » وهم يؤمنون صادق الايمان بذلك وانا اكبر سناً من ان يفرضوا علي ايمانهم هذا. وبالرغم من انني لست البتة زاهداً متنسكاً

متعتاً ، الا ان الحياة الجنسية الجديدة للشباب وحتى للراشدين ، تبدو لي في غالب الاحيان بورجوازية تماماً ، مظهر من المظاهر العديدة للاخور بورجوازي. ان هذا كله ليس له من علاقة بـ حرية الحب كما نفهمها نحن الشيوعيين انت تعرفين بلا شك النظرية المشهورة القائلة ان تلبيـة الغرائز الجنسية والحاجة الى الحب لن تعدو في المجتمع الشيوعي ان تكون اكثر من امر بسيط تافه كاجتراع كأس من الماء ان نظرية كأس الماء هذه قـد جعلت شبيبتنا مستكلبة مستكلبة بالمعنى الحرفي للكلمة

لقد كانت هذه النظرية مشؤومة على الكثيرين من شبابنا وشاباتنا. ويؤكد انصارها انهـا نظرية ماركسية فشكراً لهذه الماركسية الـتي ترى ان كل الظاهرات وكل التبدلات التي تطرأ على بنية المجتمع الفوقية الايديولوجية تستنبط مباشرة ، وبخط مستقيم ، وبدون اي تحفظ ، من الاساس الاقتصادي وحده ان الامر ليس بمثل هذه البساطة التي يبدو بهـا ان شخصاً يدعى فريدريك انجلز قد بين ، منذ زمن بعيد ، حقيقة المادية التاريخية هذه

« انني اعتبر نظرية « كأس الماء المشهورة غير ماركسية ومضادة للمجتمع فضلاً عن ذلك ففي الحياة الجنسية لا يتجلى ما اخذناه عـن الطبيعة فحسب ، بل ايضاً ما اخذناه عن الثقافة ، سواء أكان سامياً او منحطاً

« ان انجلز يبين في « اصل الاسرة » اهمية تطور الحب الجنسي وتهذبه. والعلاقات بين الجنسين ليست محض تعبير عن عمل الاقتصاد الاجتماعي والحاجة الجسمانية المفرق بينهما فكرياً بالتحليل الفيزيولوجي

« ان الميل الى ارجاع تبدل هذه العلاقـات الى اساس المجتمع الاقتصادي ، بغض النظر عن كل صلة بالايديولوجيا ، ليس من المذهب الماركسي وانما من المذهب العقلاني يقيناً ، ان الظمأ لا بد ان يشفى غليله . لكن هل ينبطح انسان سوي في ظروف سوية ايضاً ، على بطنه على ارض الشارع ليشرب من مستنقع مـاء وسخ ؟ او حتى من كأس لوثت حوافها عشرات الشفاه الاخرى ؟ والاهم من ذلك

ايضاً الناحية الاجتماعية وبالفعل ، ان شرب الماء مسألة شخصيـــة لكن في الحب شخصين معنيين ، وهناك ثالث يأتي عنه كائن جديد وانـا ههنا تكمن المصلحة الاجتماعية ويولد الواجب تجاه المجتمع انني لا اشعر ، بوصفي شيوعياً ، بأي جاذبية نحو نظرية «كأس الماء» وان تلبست بلبوس مبدأ «الحب المنعتق» ، وفضلاً عن ذلك فإنها ليست بالجديدة ، هذه النظرية الشيوعية فأنت تذكرين ، على ما اعتقد ، انه جرى « التبشير » بها في الادب في اواسط القرن الماضي تحت عنوان « تحرير القلب » وقـد انقلبت ، في الممارسة البورجوازية ، الى تحرير للجسد وقد كان التبشير بها يتم يومذاك ببراعة اكبر اما عن الممارسة ، فلست بمستطيع اصدار حكم

« انني لا اريد التة ، بنقدي هذا ، ان ادعو الى الزهد فمـــن واجب الشيوعية ان تحمل للانسان لا الزهد وانما فرح الحياة والرفاه المرتبطين ايضاً بملاء الحب وفي رأيي ان الشطط الملحوظ اليوم في الحياة الجنسية لا يحمل في طياته لا فرح الحياة ولا الرفاه ، بـــل هو على العكس ينقص منهما والحال ان هذا لا يساوي شيئاً التة اثناء الثورة

ان ما تحتاجه الشبيبة بوجه خاص انما هو فرح الحياة والرفاه

« ان الرياضة والسبـــاحة والجولان وكل نوع من انواع التمارين البدنيـــة والاهتمامات الاخلاقية المتنوعة والدراسات والتحاليل والابحاث ، ان هذا كله يقدم للشبيبة اكثر بكثير مما تقدمه التقارير والمناقشات الـــتي لا نهاية لها حول المسائل الجنسية وحول طريقة « التمتع بالحياة » حسب التعبير الشائع

« روح سليم في جسم سليم »، لا ترهُّب، ولا دون جوانية، ولا ابتذال المأني كحد وسط انت تعرفين حق المعرفة رفيقك الشاب هوز انه شاب كامل ، عظيم الموهبة ، لكني اخشى الا يخرج منه شيء جيد فهو يتخبط وينتقـل من مغامرة غرامية الى اخرى. ان هذا لا يقدم شيئاً لا للنضال السياسي ولا للثورة، وانني لا اضمن لا الثقة ولاالحزم في النضال بالنسبة الى النساء اللاتي يختلط خيالهن

الشخصي بالسياسة ، ولا بالنسبة الى الرجال الذين يجرون وراء كل تنورة ويقعون صرعى اول كاعب حسناء يرونها كلا ، ان هذا لا يتفق والثورة ! »

ونهض لينين فجأة ، وضرب بيده على الطاولة وخطا بضع خطى في غرفته :

— ان الثورة تستدعي تركيز القوى وتوترهـا من جانب الجماهير وكل فرد على حدة وهي لا تتفق مع الاشتطاط في الشبـق كما هي حال ابطال وبطلات دانونزيوالمنحطين.ان الشطط في الحياة الجنسية علامة على الانحطاط البورجوازي ، والبروليتاريا طبقة صاعدة وهي ليست بحاجة لان 'تسكر ، وتدوخ ، وتثار . انها لا تطلب لا الثمل ولا الافراط في الجنس والكحول انها لا تجرؤ ولا تريد ان تنسى دناءة الرأسمالية ، ووحلها وهمجيتها وهي تستمد اقوى حوافزها النضالية من وضعها الطبقي ومن المثل الاعلى الشيوعي وما تحتاجه هو الوضوح والمزيد من الوضوح ولهذا ، انني اكرر ذلك ، لا تهاون ، ولا تبذير او تدمير للقوى ومعرفة ضبط النفس وسيطرة المرء على افعاله لا تعني العبودية وهذا ضروري في الحب ايضاً

« لكن ، اعذريني يا كلارا ، فقد ابتعدت كثيراً عن نقطة انطلاق حديثنا لمَ لم تلفتي نظري حتى اعود الى النظام ؟ ان قلقي قد جعلني اقول اكثر مما كنت اود ان مستقبل شبيبتنا يقلقني كثيراً فالشبيبة هي جزء من الثـورة واذا ما بدأت التأثيرات الضارة للمجتمع البورجوازي تمتد الى عالم الثورة ايضاً، شأن الجذور الكثيرة التشعب لبعض الاعشاب السامة ، فمن الافضل ان نقـاومها في الوقت المناسب لا سيما وان هذه المسائل هي جزء ايضاً من المشكلة النسوية ».

كان لينين يتكلم بكثير من الحدة والقناعة وكنت اشعر بأن كل كلمة من كلماته تخرج من اعماق قلبه وكان تعبير وجهه شاهداً على ذلك وكانت حركة قوية من يده تدل احياناً على فكرته وما اذهلني هو انني وجدت لينين ، مـع اهتمامه بالمسائل السياسية البالغة الاهمية ، يعير انتباهاً عظيماً للظاهرات المنعزلة ويحللها بعناية بالغة ، وهذا ليس فيما يتعلق بروسيا السوفياتية فحسب ، بـل

ايضاً بالبلدان الرأسمالية وكان لينين ، بوصفه ماركسياً كاملاً ، ينظر الى كل ظاهرة منعزلة ، في اي شكل ومكان تتجلى فيهما ، من خلال المشكلة الكبرى ، من خلال الكل ، مقدراً قيمة الاولى بالنسبة الى الاخيرة ولم تكن ارادته وهدفه الحيوي الراسخ الذي لا يتزعزع كقوة لاتقاوم من قوى الطبيعة يستهدفان سوى شيء واحد التعجيل بالثورة التي يرى فيها قضية الجماهير كان لينين يقيّم كل ظاهرة من زاوية التأثير الذي يمكن ان تمارسه على القوى المكافحة في سبيل الثورة ، على نطاق قومي واممي معاً ، لانه كان يرى دوماً امامه ، مع اخذه بعين الاعتبار التام الخصائص التاريخية في مختلف البلدان وفي مختلف مراحل تطورها ، ثورة بروليتارية عالمية واحدة غير قابلة للقسمة

وهتفت

— كم يؤسفني ، ايها الرفيق لينين ، ان مئات والوف الاشخاص لم يسمعوا كلماتك هذه وانت تعلم انه ، بالنسبة الي ، لا حاجة الى اقناعي لكن من الاهمية بمكان ان يطلع اصدقاؤنا واعداؤنا على السواء على رأيك

كان لينين يبتسم بسذاجة وطيبة

— لعلي سألقي ذات يوم خطاباً او اكتب حول هذا الموضوع ليس الآن ، وانما فيما بعد فاليوم علينا ان نركز كل وقتنا وكل قوانا حول نقطة اخرى ان لدينا في الوقت الراهن هموماً اخطر واصعب فالنضال من اجل الحفاظ على السلطة السوفياتية وتوطيدها ما يزال بعيداً عن ان يكون قد انتهى وعلينا ان نبذل كل ما في وسعنا لاستخلاص النتائج من الحرب مع بولونيا. ان ورانجل ما يزال في الجنوب وقناعتي القوية ، انا واثق من ذلك ، اننا سنتغلب عليه ، الشيء الذي سيجعل الامبرياليين الانكليز والفرنسيين وصغار اتباعهم يفكرون. لكن الشيء الاصعب هو اعادة البناء

« وسوف تكتسب مشكلة العلاقات بين الجنسين ومسائل الزواج والاسرة المزيد من الأهمية من خلال هذه المسيرة أيضاً . وبانتظار ذلك ، عليكم أن

تناضلوا دوماً وفي كل مكان عليكم الا تسمحوا بمعالجة هذه المسائل عن غير الطريق الماركسي ، وألا تسمحوا بان تخلق تربة مناسبة للانحرافات والتشويهات المؤذية

ونظر لينين الى ساعته ، وقال

— ان الوقت المتاح لي قد انصرم بنفسه لقد تكلمت اكثر مما ينبغي ان علينا ان نكتب اطروحات تستلهمها النساء في عملهن الشيوعي انني اعرف مبادئك وتجربتك العملية وعلى هذا فان حديثنا حول هذه النقطة سيكون قصيراً اذن ، الى العمل

عن كتاب كلارا زتكين

« لينين كما كان »

رأي لينين في الحب الحر

[وضعت اينيس آرمان ، المناضلة الفرنسية المعاصرة للينين ، مشروعاً في مستهل عام ١٩١٥ لكتابة نشرة للعاملات عن العلاقات بين الرجل والمرأة وقد بعثت بمخطط هذه الكراسة الى لينين الذي كان موجوداً آنذاك في سويسرا، وقد انحى عليها هذا الاخير باللائمة بود لكن بحزم ، في رسالتين منه اليها لمطالبتها للبروليتاريا بـ « الحب الحر » وقد نشر نص هاتين الرسالتين لاول مرة في موسكو عام ١٩٣٩]

١

١٥ كانون الثاني ١٩١٥

صديقتي العزيزة

ارجو منك المزيد من التفصيل في كراستك ، والا فإن اشياء كثيرة ستظل غير محددة

اود من الآن ان اعبر لك عن رأيي بصدد نقطة محددة

انني انصحك بحذف الفقرة الثالثة « المطالبة (للمرأة) بالحب الحر » .

فهذا ليس بمطلب بروليتاري ، وانما بورجوازي !

ماذا تقصدين بذلك ؟ ماذا يمكن ان يفهم من ذلك ؟

– التحرر من الحسابات المادية المالية) في الحب

٢ – من الهموم المادية

٣ – من الآراء المسبقة الدينية

٤ – من النواهي الابوية ؟

٥ – من آراء المجتمع » المسبقة

٦ – من البيئة الخسيسة الفلاحية البورجوازية الصغيرة ، المثقفة البورجوازية

٧ – من عراقيل القانون والمحاكم والشرطة ؟

٨ – من تبعات الحب الجدية

٩ – من انجاب الاولاد ؟

١٠ – السماح بالزنى ؟ الخ

لقد عددت كثيراً من النقاط (وليس جميعها) وانت لا تقصدين ، هذا مؤكد ، النقاط من ٨ الى ١٠ ، وانما النقاط من ١ الى ٧ ، او شيئاً قريباً من النقاط من ١ الى ٧

ولكن ينبغي ، بالنسبة الى النقاط من ١ الى ٧ ، اختيار صيغة اخرى، لان الحب الحر لا يعبر دقيق التعبير عن هذا النوع من الاهتمامات

ان الجمهور وقارىء الكراسة سيفهمان حتماً من « الحب الحر » شيئاً من نوع النقاط من ٨ الى ١٠ ، حتى ولو لم تشائي ذلك

ولان الطبقات الاكثر ثرثرة والاكثر لغطاً والاكثر « بروزاً » في المجتمع الراهن تفهم بالحب الحر النقاط من ٨ الى ، لذا فهذا المطلب ليس ببروليتاري وانما هو بورجوازي .

اما بالنسبة الى البروليتاريا فإن النقاط الاهم هي النقطتان ١ و ٢ ، ثم النقاط من ٣ الى ٧ ، ولكن ليس هذا هو الحب الحر » بحصر المعنى

وليست المسألة ما « تقصدينه ذاتيـــاً بهذا وانما المسألة مسألة المنطق الموضوعي للعلاقات الطبقية في الحب

اصافحك مصافحة الصديق

(٢

٢٤ كانون الثاني ١٩١٥

صديقتي العزيزة

اعتذر عن تأخري في الرد عليك فقد كنت اريد ان افعل ذلك البارحة ، ولكن الظروف حالت دون ذلك ولم يسنح لي الوقت للكتابة لك

فيما يتعلق بمخطط الكراسة ، وجدت ان « مطلب الحب الحر » غير دقيـق وانه يظهر ، بغض النظر عن ارادتك ورغبتك (اشرت الى ذلك بقولي: المسألة هي مسألة العلاقات الموضوعية الطبقية وليست مسألة رغباتـــك الذاتية) في الشروط الاجتماعية الراهنة كمطلب بورجوازي وليس بروليتارياً

انت غير موافقة

حسناً لنمحص القضية مرة اخرى

رغبة مني في التحديد عددت عشرة تأويلات ممكنـــة (ومختمة في شروط صراع الطبقات) ولاحظت ان التأويـلات من ١ الى ٧ ستكون ، في رأيي نموذجية او مميزة للعاملات ، وان التأويـلات من ٨ الى ١٠ نموذجية بالنسبة الى البورجوازيات .

واذا كنت تنفين ذلك فعليك ان تثبتي ما يلي

١ — ان هذه التأويلات خاطئة (وعندها يتوجب استبدالها باخرى او رد الخاطىء منها)

٢ — او ناقصة (وعندها يجب تكميلها

٣ — او انها لا تنقسم الى تأويلات بروليتارية وبورجوازية

وانت لا تفعلين شيئاً من هذا

وانت لا تتعرضين الى النقاط من ١ الى ٧ اذن هـل تعترفين (بوجه عام) بصحتها ؟ ان ما تكتبينه عن بغاء العاملات وتبعيتهن استحالة ان يقلن لا » يتفق تماماً مع النقاط من ١ الى ٧ وليس هناك من خلاف البتة بيننا حول هذا الموضوع

ثم انت لا تمارين في انه تأويل بروليتاري

تبقى النقاط من ٨ الى ١٠

انت « لا تفهمينها تماماً » و « تعترضين » « انني لا افهم كيف يمكن (انها كلماتك) توحيد (!!؟؟) الحب الحر » مع النقطة ١٠

يتضح اذن انني « اوحّد » ، وانت على استعداد لتدميري وسحقي

كيف ذلك ؟

ان البورجوازيات يفهمن بالحب الحر النقاط من ٨ الى ١٠ ، ذلك هو رأيي

فهل تنكرينه ؟ اذن قولي ما تفهمه السيدات البورجوازيات بالحب الحر ؟

انت لا تقولينه الا يثبت الادب والحيـــاة ان البورجوازيات يفهمنه على الضبط هكذا ؟ انهما يثبتان ذلك ! وانت تقرين به بصمتك .

واذا كانت هذه هي الحال ، فهذا نابع من موقفهن الطبقي ، ومن المستحيل والساذج معاً « انكاره »

ينبغي ان نقيم حدا فاصلاً واضحاً،وان نعارضهن بوجهة النظر البروليتارية. ينبغي ان نأخذ بعين الاعتبار هذه الحقيقة الموضوعية وهي انهن ، اذا لم نفعل ذلك ، سيقتبسن من كراستك تلك المقاطع ، ويفسرنها على طريقتهن ، ويعملن على ان يحولن كراستك الى سلاح في ايديهن ، ويشوهن طبيعة افكارك امام العاملات ، ويزرعن اللبس في عقولهن (بإيقاظهن لديهن الخوف من ان تأتيهن بافكار غريبة عنهن والحق ان في متناولهن ، هن اكداساً من الصحف ، الخ

وانت ، بتخليك كلياً عن وجهة النظر الموضوعية والطبقية ، تنتقلين الى « الهجوم » علي، متهمة اياي بانني «اوحد» الحب الحر مع النقاط من ٨ الى ١٠ هذا رائع ، رائع حقاً

« حتى الهوى العابر والعلاقة العابرة » « اكثر شاعرية ونقاوة » من « القبل بلا حب » المتبادلة عادة بين زوج وزوجة هذا ما تكتبينه وهذا ما تنوين كتابته في كراستك مدهش

هل هذه المعارضة منطقية ؟ ان القبل العارية من الحب التي يتبادلها الزوج والزوجة عادة دنسة موافق فلمَ تريدين معارضتها ؟ بقبلة مليئة بالحب ، على ما يبدو ؟ كلا ، انك تعارضينها بـ « الهوى » (ولمَ لا تقولين الحب ؟) «العابر» (لمَ العابر ؟) وينجم عن ذلك منطقياً ان هذه القبل العارية من الحب (طالما انه عابر) تتعارض مع القبل العارية من الحب التي يتبادلها الزوج والزوجة غريب حقاً ! أفليس من الافضل ، في كراسة شعبية ، معارضة الزواج القذر والدنيء غير القائم على الحب (انظري النقطة ٦ او ٥ لدي) بالزواج البروليتاري القائم على الحب (على ان تضيفي ، اذا كنت تصرين على ذلك ، ان علاقة الهوى

العابر يمكن ان تكون قدرة او نقية) انت لا تقيمين تعارضاً بين نماذج طبقية ، وانما بين حالات ، انا لا اشك في انها ممكنة الحدوث . ولكن هل المسألة مسألة حالات خاصة واذا ما اخذنا كموضوع حالة خاصة ، حالة فردية من قبـــل دنسة متبادلة في زواج ومن قبـــل نقية متبادلة في علاقة عابرة فمثل هذا الموضوع يصلح لرواية (لان الشيء الاساسي في الروايـــة هو وصف افراد ، وتحليل طبائع ، وبسيكولوجيا نماذج محددة) ولكن في كراسة

لقد فهمت تماماً فكرتي بصدد الاستشهاد ، المساء اختاره ، بـــكاي عندما قلت بالفعل انه من « السخف » لعب دور « الاستاذ في الحب » صح ولكن دور الاستاذ في الحب العابر

انني لا اريد الدخول في مناظرة وكان بودي ألا اكتب هذه الرسالة وان انتظر مقابلتنا القادمة لكني ارغب في ان تكون الكراسة جيـدة ، وفي ألا يتمكن اي انسان من اقتباس جمل محرجة لك منها (ان جمـــلة واحدة تكفي احياناً لتكون مثل قليل من العلقم) [٢] ، وفي الا يتمكن اي انسان من تقويلك ما لم تقوليه وانني لواثق هنا ايضاً ان ما كتبته قـد كتبته من غير ان تريديه » ، وانني لا ارسل اليك هذه الرسالة الا اعتقاداً مـــني بان تحليلك للمخطط سيكون افضل ، بعد هذه الملاحظات ، مما سيكونه بعد مقابلة ذلك ان المخطط شيء بالغ الاهمية

أليست لك صديقة فرنسية اشتراكية ؟ ترجمي لها (كما لو انك تترجمين مـن الانكليزية) نقاطي من ١ الى ١٠ وملاحظاتك عـن الحب « العابر » ، الخ

---

(١) هيلين كاي ، اديبة سويدية (١٨٤٩ - ١٩٢٦) ، دافعت عن قضية الشعب والمرأة .

(٢) مثل روسي يقول : « قليل من العلقم يفسد الكثير من العسل »

(المترجم)

وامعني النظر فيها واصغي اليها بانتباه ستكون هذه تجربة صغيرة لمعرفة ما سيقوله اناس من الخارج ، وما ستكونه انطباعاتهم وما ينتظرونه من الكراسة

اصافحك ، متمنياً لك ان يخف الملك من اصداع الرأس وان تتعافي بسرعة.

ف. أ.

حدود التصور الماركسي
عن مشكلة المرأة

بقلم : فرانسواز دوبون

يشكل ظهور الماركسية في تاريخ حركة انصار تحرر المرأة حدثاً لا يقل اهمية عن حدث ظهور اعمال باستور في تاريخ الطب. فكما ان اكتشافات باستور التي لم يكن هدفها تطوير الطب قد خدمته اكثر مما فعلت جميع المحاولات التي كانت قد بذلت في هذا الاتجاه حتى ذلك التاريخ ، كذلك فان ماركس بدراساته الهادفة الى تحرر البروليتاريا ، قد ساهم في ارساء الاسس الجديدة لحركة مناصرة لتحرر المرأة لم تكن قد نجحت في بنائها لا المسيحية ولا الموسوعية ولا الفوريية ولا اي اشتراكية مثالية

ان الخطوة الحاسمة التي قيض لماركس ان يخطوها بين الماضي والمستقبل هي اكتشافه ان مصير المرأة مرتبط بالتطور التاريخي ، وان نيلها حقوقها وحرياتها مرتبط بنيل البروليتاريا قاطبة حقوقها وحرياتها وكان هذا اكتشافاً ، من خلال المجهر ، للجرثومة التاريخية لاضطهاد اوحد لم يكن اي كائن قد خالجه الشك في وجوده قط ، اللهم الا باستثناء فلورا تريستان التي وجهت ، محفوزة بعبقرية سيملفايز ، في « الاتحاد العمالي » في عام ١٨٤٣ النداء المدهش التالي الى بروليتاريي عصرها :

« اقيموا البرهان ، وانتم تطالبون بالعدل لكم ، على انكم عادلون منصفون . اعلنوا ، انتم الرجال الاقوياء ، الرجال ذوي الزنود العارية ، انكم تعترفون بالمرأة مساوية لكم »

لكن كما ان سيملفايز ، بشير باستور ، لم يتجاوز عتبة التجريبية ، كذلك لم تستطع فلورا تريستان ان تتخطى قط حدود مناصرة المرأة عاطفياً وانما مع ماركس وانجلز هجرت مسألة تحرر المرأة ضباب الاشتراكية المثالية لتدرك ما هو عيني عن طريق ارتباطها بالاشتراكية العلمية

ومن المفيد من هذه الزاوية ان نمحص قرب موقف لينين من المسائل الجنسية التي كانت بمثابة حدود نائية للحركة العامة لانصار تحرر المرأة فقد اجرى بهذا الصدد مقابلة مع كلارا زنكين في خريف ١٩٢٠ وكثيراً ما ورد ذكر هذه المقابلة فيما بعد عندما خيل لاحفاد جيل اكتوبر ١٩١٧ ان من واجبهم ان يصححوا في هذا المجال مسلك قسم من الشيوعيين الذين كاد مذهبهم الاخلاقي ان يصبح مذهب روسيا السوفياتية قاطبة وتلك المقابلة لم تكن في الاصل سوى توكيد للمراسلة التي جرت بين لينين واينيس آرمان حول المواضيع نفسها في عام ١٩١٥

(تثبت فرانسوازدوبون هنا نص مقابلة لينين مع كلارا زنكين التي ترجمناها آنفاً ، ثم تتابع تحليلها قائلة

ان افكار لينين هذه قد نشرت على نطاق واسع فيما بعد للنضال اولاً ضد تهمة الفجور و « تشريك النساء » التي يرفضها الشيوعيون بوصفها جزءاً من « الشيوعية الجلفة » ، وللرد ثانياً على بعض النظريين الذين ظهروا صدفة في فوضى ثورة اوكتوبر والذين كانوا يعلنون ان زوال الاسرة القائم على وحدانية الزواج مرتبط بزوال المجتمع البورجوازي فقد كانت كولونتي تعلن آنذاك في كتابه « الاسرة والدولة الشيوعية » « ان الاسرة تكف عن ان تكون ضرورة بالنسبة الى الاعضاء الذين تتألف منهم وبالنسبة الى الدولة في الوقت

نفسه كما كان الحقوقي هواشمارغ يعتبر في مقدمته لقانون الزواج البلشفي الصادر في عام ١٩١٩ ، ان الاسرة القائمة على وحدانية الزواج هي شر ضروري لبعض الوقت ايضاً ، لكنه يحمل في ذاته « جرثومة فنائه » والتطور النهائي للستالينية لا يشكل رد فعل ، بل على العكس عودة ، بصدد هذا الموضوع ، الى مصادر ماركس وليبين

ان موقف لينين هذا ، البالغ الوضوح والبالغ الانسجام ، يحظى باهتمامنا من حيث انه موقف مميز لذلك النظري الماركسي الكبير والماركسية هي كما رأينا مدهب اوغل اكثر من كل المذاهب السابقة في طريق التحرير التام للنساء وسوف تتيح لنا دراسة موقف لينين ان ندرك الى اي حد تختلط قضية المرأة بقضية الفرد المضطهَد لاسباب اجتماعية واقتصادية وفي اي لحظة تنفصل عنها لتختلط بمسألة الجنس ، والى اي حد تغوص هذه القضية في خضم ماهو احتماعي والى اي حد تغوص في ما هو لا اجتماعي

ومن الممكن النظر الى الموقف الذي يقفه لينين في مقابلته مع كلارا زتكين من منظورين مختلفين منظور رجل التكتيك ومنظور رجل النظرية

منظور رجل التكتيك

ان موقف لينين ، من وجهة نظر التكتيك المحض ، موقف منطقي ومتماسك وصحيح الى حد لا يقبل جدالاً ومضمونه الايديولوجي لا يمكن ان يوضع موضع نقاش فأشد الناس تصميماً في عدائهم للماركسية واصدقهم عداء للينين لا يمكن الا ان ينحني امام حسه الاستراتيجي وكل ما قاله لكلارا زتكين بصدد تسلسل المواضيع الملحة الواجب نقاشها ودرسها والسلوك المنطقي للثوري حيال نظام معين للأشياء والاطارات الاخلاقية للشبيبة الشيوعية والحركات العمالية النسائية صحيح من الالف الى الياء وفي مستطاعنا كل الاستطاعة ان نفهم الحزم الذي يبديه لينين في نصه ، في عالم يتداعى من كل جانب ، سداً

منيعاً امام الاشتطاطات العاطفية والجنسية التي تهدد باضعاف وهدر القوى التي يجب ان تكون متوترة نحو هدف اوحد ومركزة على ايمان واحد وليس في مستطاع اي محرض آخر للبشر ، واعٍ بما فيه الكفاية لعظمة مهمته واهميتها ، ان يسلك غير هذا المسلك حيال مبادهات بعيدة عن العقل كتلك التي اشار اليها لينين وحيال الانحرافات العاطفية او البورجوازية الصغيرة لمذهب يتطلع الى تغيير وجه العالم في ادق تفاصيله ولكنه يرى ان المهمة الاولى والاكثر الحاحاً هي تطبيقه الثوري

المنظور النظري

ولكن الى اي حد يسلك لينين ، في مقابلته هذه وفي تراسله مع اينيس آرمان ، مسلك رجل التكتيك ؟ والى اي حد يقترب من المجال النظري ؟

ان لمن السهل تمييز ذلك فلينين يعرض، مستنداً الى حادث يتعلق بانضباط الحزب ، بعض مظاهر نظرياته الشخصية بصدد العلاقات بين الجنس والثورة ومن وجهة النظر هذه فإن حكمه على « كأس الماء » ثمين للغاية ، وسوف يقدم فيما بعد لابناء ثورة اوكتوبر حججاً اورثوذكسية وحاسمة ضد جميع من هم على شاكلة كولونتي وهواشبارغ . وانه لمن الامور الايجابية الا تكون المسألة محض مسألة استراتيجية عندما يلفظ لينين او يكتب صيغاً بالغة الاهمية مثل « من الافضل معارضة الزواج القذر والدنيء غير القائم على الحب بالزواج البروليتاري القائم على الحب » على معارضته بـ « العلاقة العابرة » و بـ « الحب الحر » على حد تصور اينيس آرمان او ايضاً « من واجب الشيوعية ان تحمل للانسان لا الزهد وانما فرح الحياة والرفاه المرتبطين ايضاً بملاء الحب » فلينين يعبر هنا عن حقائق تبدو له خالدة خلود الماركسية ولا دخل لها بضرورات مؤقتة يفرضها الانضباط الشيوعي وعلى هذا فإن موقفه واضح وسهل الادراك

ان لينين يتجلى ، في مقابلته مع كلارا او تراسله مع اينيس ، على انه خصم

لدود لنظرية الحب الحر » التي ترتد في نظره الى نظرية « كأس الماء اتجاه بورجوازي صغير منزل منزلة الصمود الثورية ، رغبة محمومة في التمتع تنـــذر بتمديد وتثليم قوى البروليتاريا الصاعدة وهما نعاود السقوط في منظور رجل التكتيك) وفي رسائله الى اينيس تلك الرسائل الآيـة في الوضوح والمنطق والمحاجة ، يعترض على مشروع هذه الاخيرة بالمطالبة في الفقرة ٣ من احـــد الكراسات بـ « الحب الحر ويشبه هذه العبارة بالعبارات الواردة في المطالب المتضمنة في « النقاط من ٨ الى وهذه النقاط من ٨ الى المعددة في رسالة سابقة ، هي التالية التحرر من تبعات الحب الجدية ومن انجاب الاطفال ومن « الزام الوفاء الزوجي وهو يرد هذه النقاط الثلاث بوصفها متناقضة مع الاخلاق البروليتارية المستقلة ومن العدل ان نقول انه اذا كان الاجهاض قد سمح به ابان الاعوام الاولى من النظام السوفياتي وحتى مرسوم ٢٧ حزيران ١٩٣٦ فقد اعتبر دومـاً شراً اجتماعياً » لا مناص من التغاضي عنه طالما ان مخلفات الماضي الاخلاقية وشروط الحاضر الاقتصادية الصعبـة ترغم بعض النساء على اللجوء الى تلك العملية هذا هو على الاقل رأي ممثلي النظام وهو رأي اورثوذكسي للغاية في لينينيته اما عن رأي الجمهور فـــان محاولة للاستفتاء سبقت مرسوم ١٩٣٦ قد اثارت رد فعل عنيفاً بما فيه الكفاية للبرهان على ان المرسوم لن يكون شعبياً

ان موقف لينين هو من وجهة النظر السلبية موقف واضح كل الوضوح اذن وما يسميه البورجوازيون الصغار والفوضويون بـ « الحب الحر » لا مكان له بـين المطالب البروليتارية . ولا ينبغي معارضة زواج البورجوازيين « القذر والدنيء » بـ « علاقة عابرة » وانما بزواج بروليتاري قائم على الحب واقصى ما يسمح به لينين لاينيس آرمان هو ان تنوه بان العلاقة العابرة يمكن ان تكون اكثر نقـاء وصفاء من الزواج البورجوازي غير المبني على الحب لكن جوهر المسألة ليس هنا في رأيـه . ومن المستنكر نشر صحيفة للغايا في الوقت الذي توجد فيـــه

عاملات بحاجة الى التأطير والتنظيم اما قلق الشباب وغلواؤه فخير علاج لهما الرياضة والجولان وحلقات الدراسة ، وليس الكراسات البلهاء عن المسائل الجنسيه حتى وان تلبست لبوس العلم باستشهادها بفرويد الذي لايعدو ان يكون اكثر من « نزوة من نزوات الموضة

وقبل ان ننتقل الى دراسة وجهة النظر الايجابية لنتوقف لحظة عند الفكرة الاخيرة هذه

يقيناً ليس من النادر ولكن من المدهش دوماً ان نرى رجلاً عبقرياً يتفوه بالترهات عندما يخرج من « وطنه » ويخيل اليما دوماً انه يشق على النفس ، بالرغم من سخف هذا الشعور ، ان نجد شخصاً عبقري الالهام في بعض المواضيع تخونه الحجة في بعض المواضيع الاخرى لكن الدماغ الكوني اسطورة وما اقرب موليير (وباسكال) عندما يتحدث عن الرسم الى لينين عندما يتحدث عن التحليل النفسي ومعروف ايضاً ان لينين كان يدلل على عدم التفهم التام نفسه فيما يتعلق بالشعر . وسذاجتنا هي ان ندهش لذلك فالكثير من الامثلة يبرهن لنا على ان الفكر كلما اوغل في اتجاه ، ضاق مجال وعيه ولا شك في ان فكر لينين هو فكر واسع للغاية من حيث العمق ولكن اي « مثقف فضولي » يفتقر كل الافتقار الى العمق يسهل عليه ان يدلي بدلوه في كل موضوع اكثر بكثير من مارد الماركسية ذاك

الماركسية والتحليل النفسي

مهما يكن من امر ، فلا بد من قدر معين من الشجاعة حتى يثبّت جامع كراسة شيوعية مثل « المرأة والشيوعية »[1] مقابلة لينين ـ كلارا بحذافيرها ،

---

(١) « الشيوعية والمرأة » ـ جمع جان فريفيل وتقديم جانيت فيرميرش ـ المنشورات الاجتماعية بباريس .

وحتى يهمل حذف تلك الجملة المتعلقة بفرويد ، وهذا في عصر رسخ فيه التحليل النفسي حذوره في الاذهان الى حد ان بعض انصار التحليل النفسي يؤكدون انهم شيوعيون وقد نشرت صحيفة خاصة بالنساء الشيوعيات ، بعد التحرير ، سلسلة طويلة من المقالات عن تربية الاطفال لا تعدو ان تكون اكثر من تبسيط للاكتشافات الفرويدية ، ويستطيع كل انسان ان يستشهد بدكاترة وبرجال علم مناضلين ، بل مكلفين بمسؤوليات ، يطبقون مناهج التحليل النفسي الفرويدي على تربية اطفالهم

ومن المؤكد ان التحليل النفسي لا تفوح منه رسمياً رائحة القداسة بالنسبة الى الحزب الشيوعي ففي مستهل الكراسة نفسها يعلن السيد جان فريفيل في الوقت الذي تحس فيه الرجعية التقليدية المرأة في اعمالها المنزلية ، تحبسها الفرويدية في جنسها وهكذا يحرم التحليل النفسي المرأة من كل امل في التحرر »[1]

هذا صحيح تماماً فيما يتعلق بالتحليل النفسي البدائي. لكن التحليل النفسي تطور منذ فرويد وقليلون هم اليوم الفرويديون الذين ما يزالون يتشبثون بأضاليل الفيناوي الطب القلب بصدد عقدة النقص لدى المرأة بوجه خاص ، والسلوك النسوي بوجه عام ومعروف انه تفوه في هذا المجال بترهات لا تقل غلواء عن ترهة لينين بصدد الفرويدية نفسها والحق ان اتباعه الاكثر تحمساً يعبرون بوجه الاجمال عن تحفظات بصدد هذا القسم من اعماله وان يكون التحليل النفسي ما يزال قابلاً لان يخدم بسهولة وجهات نظر ابوية ورجعية وبورجوازية ، فهذه ايضاً حقيقة واقعة فنظراً الى انه ما يزال علماً فتياً وغض العود ، فإنه يقدم مادة اولية طيعة لنظريين تحركهم نوايا ليس اقل عيوبها انها غير ثورية ونحن نرى الكنيسة اليوم بعد تراجع مذعور في البداية ، تبذل

---

(١) « الشيوعية والمرأة » المنشورات الاجتماعية .

قصارى جهدها للسيطرة عليه من غير ان تبالي بغرابة هذا المسلك. ومن الممكن ان يكون الاتجاه الايديولوجي الاول الذي سيمثـــل التحليل النفسي صاحب القدح المعلى في الاسهام في اغناء المعرفة الانسانية وليس هناك من قانون يحتم ان تكون هذه المساهمة ذات طابع روحي اكثر منه مادياً، او رجعي اكثر منه ثورياً لكن من العدل القول ، دفاعاً عن لينين انه ما كان يستطيع بالرغم من كل قوة عبقريته ان يتوقع ، اللهم الا اذا كان نبيـاً ، تطور التحليل النفسي واتساعه واحتمال استخدامه من قبل الديالكتيك الماركسي كما برهنت على ذلك اعمال الدكتور هينار ومـن المؤكد ان الفرويدية الاصلية كانت تطرح نفسها طرحاً رجعيـاً صريحاً بارادتها حصر المرأة في نطاق الجنس وبمركزيتها الجنسية التي بدت وكأنها تتجاهل كل التطور التاريخي والاقتصادي

نظرية لينين في الاخلاق الجنسية الايجابية

اذا كنا نرى بوضوح ضد اي شيء يحتج لينـــين في عرضه المبادىء الاولية لنظريته الاخلاقية الجنسية ، يحق لنا ان نتساءل عن الناحية الايجابية في وجهة النظر هذه ، في مقابلته مع كلارا او في تراسله مـــع اينيس ، لماذا ادلى برأيه ؟ ما هدفه ؟

هنا تشوش الرؤية ويغيم الوضوح

اننا نجد عدداً لا بأس به من الاشارات بصدد موضوع البغايا على سبيل المثال. فلينين ، في الوقت الذي ينحي فيه باللائمة على مسادهة تلك الشيوعية التي اسست صحيفة للبغايا في هامبـــورغ ، يرثي لهن بوصفهن ضحايا الملكية الخاصة والرياء ويعلن ان مشكلة اعادة مكانتهن في المجتمع اليهن و « ارجاعهن الى العمل المنتج » ستنطرح قريباً ويبدو عليه هنا انه اقل اهتماماً – وهو في ذلك مصيب اصلاً – بالاخلاق بالمعنى الصرف للكلمة منه بالكرامة الانسانية وباستخدام قوى العمل المحال بينها وبين الانتاج وهنـا ينضم استنكاره الى الاستنكار الذي اجتاحه

في مناسبة اخرى ، عندما فضح في كل ربة بيت طاقة انسانية مهدورة في عمل غير منتج وعديم الجدوى مثل عمل بنات دانواس وفي رسائله الى اينيس آرمان يرد كما رأينا « النقاط من ٨ الى ويوافق على « النقاط من ١ الى ٧ » بوصفها مطالب مشروعة وهي التحرر من الحسابات المادية والمالية في الحب والتحرر من الهموم المادية والتحرر من الآراء المسبقة الدينية ، والنواهي الابوية ، والآراء المسبقة للمجتمع والبيئة الخسيسة ، ومن عراقيل القانون والمحاكم والشرطة لكنه يضيف « بيد انه من الواجب ، بالنسبة الى النقاط من ١ الى ٧ ، اختيار صيغة اخرى لان « الحب الحر » لا يعبر دقيق التعبير عن هذا النوع من الاهتمامات »

وأياً كانت الزاوية التي ننظر منها الى المسألة ، فإن كل ما له صلة بالجنس يأخذ بسرعة في نظر لينين مظهراً اجتماعياً وهذا المظهر الاجتماعي — الاهم بلا شك ولكن ليس الوحيد — هو الذي يضعه في المقام الاول من اهتماماته ولهذا واذا ما ألححنا وبحثنا في النصوص اللينينية المتعلقة بالنساء وبمسائل النساء عن نظرة اخلاقية جنسية ايجابية ، وجدنا الضباب يتكاثف شيئاً فشيئاً، وهذا شيء نادر واستثنائي في اعمال لينين البالغة الوضوح ، البالغة القوة ، البالغة النفاذ ان اخلاقه الجنسية اخلاق سلبية خالصة فكل ما يساعد المرأة او الشبيبة الشيوعية على النضال في سبيل الغاء الرأسمالية وفي سبيل الوصول الى زواج متحرر من المصلحة المادية وفي سبيل شكل جديد من الاسرة يحرر الام ، هو صالح وصحيح وكل ما يبعثر قوى الشاب الثوري او المناضلة ويوهنها هو طالح وضار والشعار الذي يرفعه « لا ترهب ولا دون جوانية ولا ابتذال الماني. » يظل شعاراً بالغ الابهام. فإذا كان في وسعنا بسهولة ان نتبين متى يكف المناضل

---

(١) « المؤلفات الكاملة » ـ المجلد ٢٤ ص ٤٧٢ وبنات دانواس هن ٥٠ فتاة قتلن جميعهن في ليلة زفافهن (باستثناء واحدة) ازواجهن وقد حكم عليهن بملء برميل لا قاع له بالماء. (المترجم)

عن ان يكون راهباً ، فمتى يسعه ان يتبين انه اصبح دون جوان او ان تتبين المناضلة انها اصبحت ميسالين ؟ وما عدد المغامرات الذي يؤدي تخطيه الى خيانة الاخلاق البروليتارية ثم ان لينين يثور على « الحب الحر » الذي ينال من « تبعات الحب الجدية » ومن الوفاء بين الزوجين. ولكن أليس تشريع الاجهاض والطلاق شكلاً معيناً من اشكال المساس بها ؟ لقد رأينا ، بالفعل ، ان الاجهاض لم يعتبر الا شراً ضرورياً وقد ألغي في روسيا السوفياتية وأمسى الطلاق اصعب مما كان في غداة ثورة ١٩١٧ لكن هذا لا يمنع ان الحق في الطلاق والاجهاض كان واحداً من احصنة المعركة بالنسبة الى الثورة البلشفية. وباختصار يبدو انه كان هناك دوماً نوع من اللايقين ، تأرجح بين قطب وآخر ، في التصور الشيوعي عن الاخلاق الجنسية تأرجح ولايقين يرجع فيهما السبب على ما يبدو الى انعدام النصوص الصريحة لقد قالت لي ذات يوم مجازة ماركسية « أود لو اكتب بحثاً اخلاقياً ماركسياً ان المسيحيين افضل تسليحاً منا بكثير بصدد هذه المسألة ، وحتى في خضم الاعداد للثورة تنطرح يومياً مشكلات فردية على المناضل » هذا مؤكد واذا كان المناضل يعرف ان نظرية كأس الماء هرطقة فإنه لا يستطيع ان يجد مبدأ مناسباً مقابل هذا النفي ومنظور الزواج البروليتاري القائم على الحب وشعار « لا ترهب ولا دون جوانية » يتركان له حرية تجعله متحيراً احياناً وهذه الحيرة تنعكس على تنوع مسالك المناضلين الشيوعيين في هذا المجال

مسالك متنوعة

يستحيل على من يتردد على الاوساط الشيوعية ان يكوّن فكرة محددة عن المبادىء التي يطرحها المناضل او المسؤول على نفسه بصدد مسألة العلاقات بين الجنسين وهناك ما يدعو الى الاعتقاد بان هذه المبادىء خاصة بكل فرد ، ومنوطة بمزاجه الفردي ، ومتميزة عن كل ما يتصل بايمانه الثوري. وهذا لايعني بالطبع ان كل نوع من انواع الترابط منعدم وقد رويت لنا قصة اسباني وجه

اليه تقريع شديد من قبل اللجنة المركزية المحليـة لاعتياده على ضرب زوجته ، فعبر عن دهشة صادقة ولم يعد الى ضربها لكن مسالك المناضلين الشخصية تبقى على وجه الاجمال مشروعة بقدر ما انهـا لا تشكل دعاية مضادة ففي صحيفة شيوعية نسائية محلية انفجرت بعد التحرير فضيحة اخلاقية وقد اثار زوج احدى « المتورطات » لغطاً كبيراً حتى ان اللجنة المحلية وجدت نفسها في موقف بالغ الحرج ثم ساورها شعور بالانفراج عندما علمت ان القضية لا تخلو من عامل فظاظة وقلة ذوق ، فاغتنمت الفرصة لتفصل المذنبين كليهما ولقد كانت هذه العقوبة ضرورية واضطرارية للحفاظ على سمعة الصحيفة الطيبة ، وصعبة التطبيق في الوقت نفسه حيال قضية لم تتجاوز حدود الجنسية المثلية وقـد استمرت واحدة من اكثر المسؤولات عن هذه الصحيفة تفانياً وذكاء — وكانت بالاضافة الى ذلك بطلة من بطلات المقاومة — في حياتهـا الزوجية الشرعية وفي علاقتها بصديقة رقيقة لها ، متزوجة هي الاخرى ولها اولاد ، كانت قد عرفتها قبل زواجها ولم تسبب لها لجنتها المحلية اي ازعاج بهذا الخصوص

هذه الحادثة استثنائية بلا شك . والمناضلون في غالبيتهم — ولا سيما مـن الطبقات المتواضعة — يكيفون حياتهم مع اخلاق بورجوازيـة لا مأخذ عليها وهنا كما في اي مكان آخر ليس للجنسية المثلية من وجود تقريباً الا لدى المثقفين؛ ولكن مهما يكن نمط حياة المناضلين ، فانـه يصعب علينا ان نجد واحداً بينهم يقول انه يتقيد باخلاق ماركسية خالصة فإما ان مسلكهم لا يتميز البتة عـن مسلك بورجوازيي حيهم الذين يسمونهم « اولئك الحمر القـذرين »، واما انهم يحاولون — ولا سيما المثقفين منهم — بعض « الابتكارات » التي ما كانت ستلقى من لينين الا العبوس والتي لا تميزهم هم ايضاً عن المثقفين البورجوازيين الشبان الذين يرتعدون ذعراً اذا ما صادفوهم في المقهى وبصدد الجنسية المثلية لا نذكر

---

(١) الشيء الذي يثبت انه لم يقم قط من رابطة بين ايديولوجيته وبين ضربه او عدم ضربه امرأته .

ان لينين قد تحدث عنها قط ولو كان فعل ذلك ، لما كان دافعه سيكون بلا ريب سوى دمغها بوصفها شكلاً من الانحطاط البورجوازي والفساد المضاد للثورة . ومع ذلك ، وفي اللحظة التي حمل فيها خريف ١٩١٧ الى الارض ربيعاً مدهشاً وضاء بالدم ، خيل للكثيرين من اللواطيين الغربيين انهم واجدون في هذا الفجر نهاية عالم كان يدينهم ورغبوا في تقبل ما يعنيه ويؤكد فيكتور سيرج ان اندريه جيد صارح ستالين باستنكاره الازدراء الذي تعامل به روسيا السوفيانية اللواطيين . وفي وسعنا نحن ، إذا اردنا ان نتسلى ، ان نتخيل الافكار التي راودت ستالين وهو يستمع بصمت مهذب الى المؤلف المستقبل لكتاب « العودة من الاتحاد السوفياتي » ومع ذلك فإن الدون جوانية او الجنسية المثلية — او الزهد الرهباني ، لمَ لا ! — لا تشكل دافعاً كافياً في الوقت الراهن للفصل من الحزب الشيوعي الفرنسي على الاقل إذ لا وجود لأخلاق جنسية ماركسية

وانما بدءاً من اللحظة التي يتخطى فيها الشرط النسوي الشرط الانساني الاجتماعي والاقتصادي ، تكف المرأة عن ان تجد في الماركسية ملاذاً واضحاً محدداً وأقصى ما هنالك انها تستطيع ، اذا كانت تملك شكلاً معيناً من الذكاء ، ان تستمد منها المنطلقات الضرورية لإرساء أسس اخلاق فردية لكن هذه الأخلاق لن تكون ملزمة إلا لها وحدها ، ولا يمكن ان تكتسب قيمة انسانية شمولية . وعلينا هنا ، متجاوزين لينين ، ان نبحث لدى انجلز عن أصل هذا الوضع القائم

حدود انجلز

لقد ربط كتاب انجلز « أصل الأسرة » مصير المرأة بمصير البروليتاري مع ان « المرأة كانت عبدة قبل ان يكون العبد » كما يقول بيبل فكيف تحول النظام المشاعي الى نظام الملكية الخاصة مؤدياً بالتالي الى اضطهاد المرأة ؟

كيف ولمَ أخلى نظام الأمومة الساح لنظام الأبوة ولعل سيمون دي بوفوار غالت بعض الشي عندما أنحت باللوم على انجلز لأنه لم يفسر الرابطة المصلحية التي تربط الرجل بالملكية إذ يخيل الينا ان هذه الرابطة بديهية وفي غنى عن الشروح المستفيضة ولكن من الصائب التنويه بأنه اذا كان مجيء عصر البرونز قد ادى ، كما لاحظ انجلز ، إلى إصابة نفوذ المرأة بتراجع اكيد نظراً الى أنها هي الأضعف جسمانياً ، فإن هذه الدونية الجسمانية ما كان من الممكن ان تكون دافعاً للاضطهاد المباشر إلا بموجب تصور اخلاقي معين للرجل ذلك اننا لا نفهم للوهلة الأولى لم لا تشكل القدرة على منح الحياة والأعمال المنزلية او الزراعية (كانت الاعمال الزراعية وقفاً على النساء في ذلك العصر مساواة في الحقوق تجاه أعمال الصناعة او الصيد البري او البحري

مهما يكن من أمر ، فمن الواضح ايضاً ان انجلز ربما كان مجترئاً عندما اشتق اضطهاد المرأة من هذا السبب الأوحد الوحيد قيام نظام الملكية الخاصة ، إذ يبدو انه من الصعب إرجاع المرأة الى محض قوة عمل منتجة ومع ذلك فإننا نسجل مرة اخرى تحفظنا في تأييدنا لأطروحة سيمون دي بوفوار عندما تؤكد ان المادية الاقتصادية « لا ترى في الرجل وفي المرأة سوى كيانات اقتصادية »[٢] ودليلنا على ذلك مقابلة كلارا زتكين مع لينين التي اكد فيها هذا الاخير « ان الميل الى ارجاع تبدل هذه العلاقات (بين الجنسين) الى أساس المجتمع الاقتصادي بغض النظر عن كل صلة بالايديولوجيا ليس من المذهب الماركسي وانما من المذهب العقلاني » اذن فالديالكتيك الماركسي لا يتنافى البتة

---

(١) لكن فارق القوة الجسمانية بين الرجال والنساء لا يبدو انه كان له وجود في المراحل الاولى . ويبدو ان السبب في ذلك يعود الى تمايز المشاغل ولكن لم خصت النساء بالمشاغل المنزلية ؟ ولم حرمن حتى قبل عصر البرونز ، من حملات القنص او الحرب الكبيرة ؟ ان هذه المسألة لم يوضحها احد قط .

(٢) « الجنس الثاني » - الجزء الاول - ص ١٠٣

مع محاولة البحث عن الصلة بين العلاقات بين الجنسين في تلك العصور الموغلة في القدم وبين الايديولوجيا السائدة في تلك العصور كما تفعل ذلك سيمون دي بوفوار هو تكملة لفكرة انجلز ، تكملة نستطيع قبولها او ردها ، لكنها لا تستطيع البتة تخطئة الديالكتيك الماركسي نفسه

لكن ثمة حقيقة واقعة لا يمكن نكرانها وهي ان النظرية الاخلاقية الاشتراكية تصطدم بصعوبات كبيرة — لا مستحيلة — حيال مشكلات الشرط النسوي فما السبيل الى تنظيم ايروس ؟ وكيف نطلب من الفرد المؤنث ان يتحمل عبء الامومة وان يحترم حريته وان يحترم جوهر القيم الكامنة في فعل الحب والانجاب في آن واحد ؟ اين تبدأ واين تنتهي ، في هذا المجال ، السلطة الشرعية لدولة اشتراكية فعلاً ؟ ههنا بلا شك نضع اصبعنا على سبب ما لاحظناه من افتقار كبار نظريي الماركسية الى نظريات ايجابية بصدد المسائل الجنسية فالغريزة الجنسية تفلت جزئياً مما هو اجتماعي وفي وسع لينين ان يقول بسداد تام « ان في الحب شخصين معنيين ، وهناك ثالث يأتي عنه ، كائن جديد. وانما ههنا تكمن المصلحة الاجتماعية ويولد الواجب تجاه المجتمع... » والحق ان هذه الملاحظة سديدة للغاية فيما يتعلق بالحب الدائم ، اساس الرابطة العائلية. ولكنها لا تعود كذلك حيال الايروسية في حالتها الصافية ، الحالة التي لا تأبه بأي مبرر والتي يمكن ان تظهر في « البيت البروليتاري » الاكثر وعياً والاحسن تنظيماً كما في « العلاقة العابرة » التي رفض لينين ان يعارض بها « الزواج البورجوازي القذر والدنيء ، غير القائم على الحب » ونحن نخالف سيمون دي بوفوار مرة اخرى عندما تنحي باللائمة على الاتحاد السوفياتي لانه يبعث اكراهات قديمة باعتبار ان « الدعوة وجهت في خطاب قريب العهد الى المواطنات السوفييتيات للاعتناء بمظهرهن ، ولاستخدام الماكياج ، والى التظرف ، حتى يمسكن بأزواجهن ويؤججن رغباتهم » [1] . وباختصار ، الى ان يصبحن « موضوعاً ايروسياً » .

---

(١) « الجنس الثاني » ـ الجزء الاول ـ ص ٣

فنحن لا نرى في هذه الدعوة كارثة بالنسبة الى روسيا السوفياتية اما فيما يتعلق بحركة تحرر المرأة بحصر المعنى ، فسوف نعود الى علاقتها بدور المرأة كموضوع ايروسي ويخيل الينا ان « نقص » المادية التاريخية ، وليس«خطأهما» يكمن في ناحية اخرى

الحرية والامومة

ان مسألة حرية الامومة او تنظيمها ، على سبيل المثال ، هي احد المظاهر الاساسية لمشكلة العلاقات بين الشرط النسوي والدولة الاشتراكية فهل من حق الدولة الاشتراكية ان تلغي بمرسوم الاجهاض الشرعي في اللحظة التي ترى فيها ان انصاف القوانين ومستوى الحياة المرتفع بما فيه الكفاية يحرران الام والطفل من الهموم المادية ؟ فمثل هذا المسلك يعني ارجاع دوافع العقم الارادي الى اسباب مالية او اجتماعية صرفة . ولكن الا يمكن ان توجد بالنسبة الى المرأة اسباب اخرى لرفض الامومة ؟ ألا يمكن على سبيل المثال ان تنظر الى زميلها بوصفه افضل رفيق ومعاون وعشيق مع انكارها عليه في الوقت نفسه صفة الابوة او خشيتها من عامل وراثي سلبي ؟ وحتى لو حررتها الدولة جزئياً من عبودياتها المنزلية بانشائها دور حضانة ورياض اطفال ومنظمات شبيبة ، أفليس من الممكن ان تعتبر ما يتبقى عليها بالضرورة من عبء تربوي عقبة في بعض الحالات أمام مستقبل عملها الشخصي الذي وهبت نفسها له ؟ واخيراً فان هناك سؤالاً حقوقياً يطرح نفسه الى اي حد تخص الولادة في المستقبل الام ؟ والى اي حدّ تخص الدولة ؟

من الممكن الاعتراض بان على الفرد واجبات تجاه المجتمع ، وبان الحرية المطلقة فيما يتعلق بايروس والامومة ستؤدي الى الاشتطاط في المتعة والانانية والى تراجع نسبة الولادات وهذا هو الرأي الذي انطلقت منه الحملة الصحفية التي مهدت في روسيا السوفياتية لالغاء الإجهاض المشروع

« انني بحاجة الى البشر. والاجهاض الذي يدمر الحياة غير مقبول في بلادنا. ان للمرأة السوفياتية نفس حقوق الرجل، لكن هذا لا يعتقها من الواجب العظيم المشرف الذي خصتها به الطبيعة انها ام ولها قدرة منح الحياة. وهذه بالتأكيد ليست مسألة خاصة ، وانما هي قضية ذات اهمية اجتماعية رفيعة

كلا ، انها لقضية خاصة وهي ايضاً قضية ذات اهمية اجتماعية رفيعة لكن الجملة الاولى في هذا الاستشهاد هي ذات الدلالة الاهم « اننا بحاجة الى البشر » فمن حق المجتمع ان يريد تلبية هذه الحاجة ، ومن حقه ان يسعى الى رفع نسبة الولادات ومن حق الفرد المؤنث ايضاً في بعض الحالات ان يرفض الامومة وحرية الام وحق الدولة يحد كل منهما الآخر ويبدو انه من الصعوبة بمكان اقامة حد فاصل

ويمكننا ان نلاحظ بسداد ان الاجهاض عملية خطرة ، لا من حيث اخطاره الجسمانية — التي هي ضئيلة في الوضع الراهن للطب — وانما بالدرجة الاولى من حيث انعكاساته النفسية والقيم التي يمسها ويمكننا ان نلاحظ ايضاً انه قبل الوصول الى الاجهاض توجد هناك وسائل اخرى اكثر عقلانية لتحديد النسل ولكن هل هذه الوسائل متسعة في روسيا السوفياتية ؟ واذا لم تكن هناك من طريقة لمنع الحمل غير القذف الخارجي ، ففي وسعنا ان نقدر — اعتماداً على رأي الاطباء — انه كان من الخطأ تحظير التحليل النفسي في الاتحاد السوفياتي بحجة انه لا يمكن ان يوجد عصاب في بلد الاشتراكية

ومهما يكن من امر ، فانه لا يبدو ان الدول قد اهتمت حتى الآن كثيرا باقامة توازن بين حقوقها وحقوق الام بوصفها فرداً وانما نلاحظ بالاحرى تأرجحاً من القطب الفردي النزعة الى القطب الجماعي النزعة فتارة يكون الحق الفردي ملكاً تقريباً كما في السويد واميركا والبلدان الانكلو — ساكسونية

---

(١) « ترود » ٢٧ نيسان ١٩٣٦

بوجه عام فيتم الاعتراف رسمياً بطرائق منع الحمل (بما في ذلك الاجهاض احياناً وبالمقابل تخنق متطلبات الدولة — او الدين — في البلدان التوتاليتارية او الكاثوليكية اللاتينية حرية الفرد اما الصيغة التي تبنتها فرنسا فهي متأثرة بكلا الاتجاهين المتناقضين من غير ان تتوصل الى توازن ويصعب علينا في الوضع الراهن للعلاقات الدولية ان نكوّن فكرة صحيحة عن الشرط النسوي في الاتحاد السوفياتي بصدد هذه النقاط المحددة

ان الأسطر السابقة يجب ألا تعتبر نقداً لاشتراكية الدولة ، ويجب ألا يغيب عن بالنا أبداً ان المهمة الأولى والألح لحركة تحرير المرأة هي مهمة اجتماعية ، وأن الواجب الأول هو تحرير المرأة من الهموم المادية التي تثقل بباهظ وطأتها على حياتها اليومية كأم وكشغيلة ولكن يستحيل علينا ألا نلاحظ ، بكل حسن نية ، ان المشكلة النسوية ، مع ارتباطها إلى حد كبير بالمشكلة الاقتصادية والاجتماعية ، تتخطى هذه المشكلة في خاتمة المطاف وتبلغ بحدودها عناصر ذات طبيعة مغايرة

وثمة نادرة تؤكد هذه الملاحظة يروي موريس بيديل انه حضر ، أثناء رحلة له إلى الاتحاد السوفياتي قبل عام ١٩٣٦ ، استشارة لإحدى الطبيبات . فقد جاءت عاملة حامل تطلب الإجهاض وقد ألقت عليها الطبيبة في البداية ، وفاء منها لتعليمات الحزب ، خطبة صغيرة لتجعلها تعدل عن هذه الفكرة ، بعد أن علمت منها ان الشروط المادية تسمح بإنجاب الطفل فقالت المرأة « انني أود الاحتفاظ به ، لكن زوجي هو الذي لا يريده وقد هددني بهجري » فقالت لها الطبيبة « حسناً ! دعيه يذهب وسوف يحكم عليه بأن يدفع لك نفقة غذائية ، وسوف يساعدك الحزب معنوياً ، وتساعدك الدولة مادياً من يرغمك على الخضوع لشريعة زوجك ؟ ان الرجال والنساء متساوون الآن » فقالت المرأة وهي تنتحب « لا أستطيع فأنا أحبه »

والواقع ، ان لم يكن نظرياً أيضاً ، ان ممثلي الاطروحات الماركسية قد

نفوا حتى الآن وجود هذه المشكلة النسوية النوعية وما تنطوي عليه من طابع لا اجتماعي، كما نفوا بوجه عام وجود المشكلة الجنسية التي أرجعوها تقريباً إلى كفاح طبقي وظنوا انهم واجدون حلاً لها بتحويل بنية الأسرة وهذا بلا ريب مفيد ، لكنه غير كافٍ بيد انه من المؤكد مع ذلك انه خرج من المجتمع الذي تصوروه وشادوه نمط من الحب متمايز ومؤثر هذا التحول في العلاقات بين الجنسين قد أعلن عنه ورسمه مايا كوفسكي في هذين البيتين

ينبغي ربط حياة الرجال والنساء
بالكلمة التي توحد بيننا « رفاق

نمط جديد من الحب

هذا ، على صعيد الشعر ، نتيجة منطقية لبديهية ماركس « ان العلاقة المباشرة ، الطبيعية ، الضرورية ، بين الانسان والانسان هي علاقة الرجل بالمرأة » ولعل افضل مثال عيني عن هذه العلاقة يتجسد اكثر منه في اي قطعة « ادبية » ، في الرسالة التالية التي كتبها فوشيك في احدى امسيات ايار ١٩٤٣ قبيل اعدامه

« في هذه الليلة سيأخذون غوستا الى برلوتيا ان قلبي وراسي مليئان اليوم بغوستين ، تلك المخلوقة الانسانية السامية النبل ، الرائعة الحمية ، تلك الرفيقة النادرة المخلصة لحياتي الشاقة المضطربة وفي كل مساء ، اغني اغنية لها اغنية تتحدث عن معارك الانصار ، عن امرأة قوزاقية تناضل بجانب الرجال في سبيل نيل الحرية ، تتحدث عن شجاعتها وعن كيف انها لم تنجح ، في احدى المعارك ، في الارتفاع عن الارض

« آه ! يا رفيقتي في الكفاح !... ان النضال والانفصال المتصل قد جعلا منا عاشقين خالدين لا يحققان مرة واحدة بل مئات المرات الاويقات الملتهبة للمداعبات الاولى ، للتعرفات الاولى لقد عملنا سوية طيلة سنوات وتبادلنا

المساعدة على النحو الذي لا يعرف ان يفعله سوى رفيق لرفيق لقد كانت طيلة اعوام قارئي الاول وناقدي الاول ، وغالباً ما كانت تصعب علي الكتابة حين لا ترمقني بنظرتها العذبة »

ان هذه الرسالة ، التي لم نستشهد منها إلا بالمقاطع الأعمق دلالة ، تعطي فكرة واضحة عن أن شيئاً ما قد تبدل في الحب البشري ولا يعترضن احد بأن كل الشهداء عن كل القضايا في وسعهم كتابة مثل هذه السطور ! وبالفعل ، كان في وسع مسيحي من المسيحيين الأوائل أن يدلل على مثل هذا الحب المتأجج بعقيدة مشتركة ، لكنه كان سيكون جاهلاً بهذا الانسحام ، هذا التفاهم بين روحين جمعت بينهما إيروسية متأججة كل التأجج وصادقة كل الصدق وكان في وسع ابطال آخرين لأيديولوجيات مغايرة ان يعبروا عن انفسهم بمثل هذه الالفاظ ، ولكن من غير أن يلفظوا بمثل تلك العفوية وتلك البساطة المساواة بين العاشقين كما لو انها شيء بديهي والحق انه قيض للعقيدة الاشتراكية وحدها ان تنشىء لأول مرة في التاريخ ذلك النمط النوعي من الحب الذي يجمع بين همّة الذات وبين مثل أعلى يتجاوز الحب بالذات ، بين غبطة الحواس والأخوة التامة بين الرجل والمرأة ، « الرفيقين » كليهما ، « زميلي الكفاح » كليهما

نفي وتردد

ان مثل هذا النمط من الحب لفتح انساني نبيل
لكن هذه النجاحات لا يمكن ان تنسينا لب المشكلة

ان الاشتراكية تتيح فرصاً جديدة للحب الجنسي بإلغائها بعض الآراء المسبقة ، وباهتمامها العقلاني بتطهير الزواج والأسرة من كل مسألة لها صفة المصلحة المادية وهي تعلن المساواة العينية بين الرجل والمرأة ، الشيء الذي يتيح للرجل نشوة « إخضاع الجسد بدون استلاب الحرية » وبهذا المعنى يمكن

(١) « رسائل المعدومين » ـ منشورات « فرنسا اولاً » ـ ص ١٣١

القول عن المادية التاريخية بأنها كانت «فاتحة» في مجال تحويل العلاقات الجنسية لكن هذا مجال ، البناء فيه لا يعني السكن فليس جميع الناس متاحاً لهم الحظ المتاح لفوشيك وغوستا ، الحزبيين المتحدين حتى الشهادة والماركسية تمنح الحب فرصاً جديدة ، ولكنها لا تمنحه أي نظرية اخلاقية محددة ويبدو أن نظريها ، ان لم تكن هي نفسها ، ينفون ، بالتزامهم الصمت حول هذه النقطة ، أن تكون هناك حاجة الى مثل تلك النظرية ومن هنا كانت كثرة المحاولات مؤخراً في روسيا السوفياتية لتلمس الطريق وميدان التخيل الأدبي يعكس بالأصل هذا التردد بين مسالك شتى وقد صور لنا مالرو ، أيام كان شيوعياً ، نموذجاً للعاشقين — الرفيقين في كيو وماي اللذين كانا يمزجان تفاهمها الايديولوجي بحرية فريدة من نوعها في الحب فعندما كانت ماي تعود مساء كانت تقول لكيو « أتعرف ، لقد نمت مع فلان من الناس » ، وهذا شيء ما كان لينال بالتأكيد استحسان لينين . ألا يقال لنا أصلاً ان الاتحاد السوفياتي بعيد عن فرنسا وعن أدبها ؟ انني لأتذكر كتاباً نقدياً صغيراً لإيليا اهرنبورغ يغربل فيه غربلة رواية «الشرط الانساني» ولا يجد ما يعلق به على تلك الطريقة في فهم الحب لدى مناضل شيوعي وما اكثر الأمثلة على غياب النظريات الاخلاقية هذا ، وعلى ذلك النوع من التجريبية التي تتلمس طريقها تلمساً والتي طبعت بطابعها السلوك الجنسي في المجتمع السوفياتي

ولهذا ، وبالرغم من الفتوحات القيّمة ذات الصفة الاجتماعية ، وبالرغم من النمط الجديد في الحب الذي تبين قصة فوشيك وغوستا امكانياته ، نعتقد انه في وسعنا ان نضع في مصاف « النافين » لمظهر معين من مظاهر المشكلة النسوية — مظهرها النوعي اللااجتماعي الذي يستطيع علم الاخلاق وحده أن يضفي عليه صفة اجتماعية جزئية — المذهب المادي التاريخي الذي كان على كل الأحوال مذهباً محرراً للمرأة على نحو لم يعرفه التاريخ من قبل . ومن الممكن كل الامكان ألا يبقى وضع المادية التاريخية على ما هو عليه في المستقبل فالديالكتيك الماركسي ليس معتقداً جامداً ، وانما تقنية مرنة وحية تتجدد باستمرار وتعانق

في كل لحظة مجالات انسانية جديدة ومن الممكن كل الإمكان دات يوم أن ينكب الديالكتيك الماركسي ، بعد أن يكون قد أنجز المهمات الألح والأعجل ، على هذه المشكلة البالغة الدقة والصعوبة التي تتحد على كل الأحوال إلى حد كبير مع مشكلة التوازن بين حق الفرد وواجبه تجاه المجتمع ، ولكن التي تتجاورها في الوقت نفسه لتتصل بما هو لا اجتماعي ، فلا يعود في الامكان الإحاطة بها إلا عن طريق مجهود تربوي وسع من كل مجهود بذل في هذا المجال حتى يومنا هذا

كتاب « عقدة ديانا »

شرط المرأة في العالم المعاصر

بقلم : جان بابي

بالرغم من الحقوق السياسية التي نالتها المرأة في بعض البلدان ، وبالرغم من تمتعها بشيء من المساواة الحقوقية ، وبالرغم من المهن العديدة التي فتحت أمامها ، فإنها ما تزال كائناً تابعاً ، لا يملك غير حريات حزئية ، وحياتها كلها مرهونة بهذه التبعية

وحتى نفهم شرط المرأة في العالم المعاصر لا بد أن نعود إلى الماضي البعيد ففي المجتمعات الغابرة كان تقسيم العمل يلقي على النساء بعبء بعض الوظائف الملائمة لقوتهن الجسدية والمتناسبة بوجه خاص مع واجبهن الأول، واجب إنجاب الاطفال وإرضاعهم والاعتناء بهم في أعمارهم الاولى . وبالمقابل كان الرجال ، الأقوى والاكثر حرية في حركاتهم ، ما دامت الاهتمامات العائلية لا تأسرهم ، يكرسون أنفسهم للصيد وصنع الأدوات والحرب

وطوال تلك المرحلة ما قبل التاريخية الطويلة كان الرجال يملكون بالطبع الأدوات التي يصنعونها ويستخدمونها بأنفسهم ، ولا سيما الأسلحة ، بينما كانت النساء يملكن الادوات المنزلية والملابس والفرش ولم تكن ملكية الرجال والنساء الفردية لتمثل شيئاً ذا أهمية بالمقارنة مع الملكية الأساسية : ملكية

العشيرة المشتركة لأراضي الصيد البري والبحري أو القطاف أو الزراعة

وكان توارث الخيرات الفردية يتم على أساس أواصر القرابة. وكانت الزيجات من داخل العشيرة الواحدة محظرة. وكان الأب والأم في الأسرة الواحدة ينتميان بالضرورة إلى عشيرتين مختلفتين ونظراً إلى أن سلالة الأم هي وحدها الصريحة غير المشوبة ، لذا كان الأولاد ينتمون إلى عشيرة الأم لا إلى عشيرة الأب ولما كانت كل عشيرة حريصة على الحفاظ على ثروات أفرادها ، لذا كان الأولاد يرثون أمهم في حال موتها ، أما إذا مات الأب فلا يرثه أبناؤه وإنما أهله الأقربون من عشيرته ، أي أشقاؤه وشقيقاته أو أولادهم

ولم يكن لهذا الميراث من أهميـــة تذكر ما دامت انتاجية العمل ضعيفة للغاية وطالما كان الانتماء إلى الأم ، كان في وسع المرأة أن تلعب دوراً رفيعاً في المجتمع . وكان هذا « الحق الطبيعي » يضفي على المرأة هالة من الكرامة فهي التي تنجب الاطفال وتزود بهم العشيرة والاولاد يمثلون الغد ، القوة التي تضمن مكانة العشيرة في المستقبل

ولقد تعدل الموقف مع نمو انتاجية العمـــل ، ولا سيما مع تأهيل الحيوانات وتشكيل قطعان من الماشية تمثل ثروة مادية أهم من أي ثروة وجدت حتى ذلك اليوم والحال ان قطعان الماشية ، المشتقة من الصيد وتأهيل الحيوانات البرية ، كانت ملكاً للرجـال ما داموا هم الذين خلقوا هذه الثروة ولكنهم ما كانوا يستطيعون توريثها لأولادهم الذين ينتمون ، عن طريق أمهم ، إلى عشيرة مختلفة عن عشيرة الأب وكانت هذه الثروات الثمينة تنتقل بالتالي إلى أقرب الأقارب من عشيرة الأب

ولقلب هـــذا الوضع رأساً على عقب كان يكفي أن يصبح الانتماء إلى الأب بدلاً من الأم ولقد كان لهذا الحدث ، التافه الأهمية في الظاهر ، نتائج حاسمة الأهمية لا يزال لها أثرها في حياتنا المعاصرة

وإلى انجـــلز يعود الفضل في اكتشاف وتحليل هذا الأصل المحدد للاضطهاد

الذي تعاني منه المرأة منذ بضعة آلاف من السنين وإليه يعود الفضل أيضاً في الخروج من دوامة الآراء الساذجة، التقليدية، المتوارثة عن النساء وعن نفسيتهن الخاصة، وفي تقديم تفسير اقتصادي يمكن على ضوئه دراسة كل المشكلات المتعلقة باضطهاد المرأة وكذلك بتحررها

وبالاضافة إلى فضل انجلز في الكشف عن « الهزيمة التاريخية الكبرى » التي لحقت بالجنس المؤنث بنتيجة تبديل خط الانتماء والنسب، كان له أيضاً الفضل في كشف العلاقة بين شرط المرأة وظهور الطبقات المتحددة هي الأخرى بتطور الملكية الخاصة ولقد كتب حول هذا الموضوع

« إن أول تناحر طبقي ظهر في التاريخ متواقت مع تطور التناحر بين الرجل والمرأة ضمن نطاق مؤسسة الزواج، كما أن الاضطهاد الطبقي الأول متواقت مع اضطهاد الجنس المؤنث من قبل الجنس المذكر »

فالطبقة الحاكمة تستطيع اضطهاد الطبقات الكادحة لأنها هي التي تملك وسائل الانتاج، والرجل يستطيع اضطهاد المرأة ضمن نطاق الأسرة لأنه هو القيّم على أملاك الأسرة ومنذ استعباد المرأة أصبح تفوق الرجل في الأسرة ركيزة كل المجتمعات المنقسمة إلى طبقات متناحرة وقد استخدمت كل الوسائل لتبرير وتعزيز هذه الهيمنة فأعلنت معظم الأديان بدون أي محاججة دونية المرأة، وحملتها وزر الخطيئة الاولى وقد أصبحت هذه الخطيئة فيما بعد «خطيئة الجسد»، وبنيت حولها كمية هائلة من الخرافات التي اضفت صفة الرجس والدنس على الفعل الجنسي الذي لم يعد مقبولا إلا ضمن حدود سر الزواج المقدس » ثم ان الفعل الجنسي ليس له من مبرر، في نظر الكنيسة الكاثوليكية بوجه خاص، إلا من حيث انه العامل الضروري في إنجاب الاطفال ولم يكن هذا كله يهدف إلا الى توكيد سلطة الأب، وضمان صفاء ذريته، وإفساح المجال له لتسوية مسائل الزواج والارث حسب مصلحته

ووفاء الزوجة في مثل هذا الزواج يجب أن يكون مضموناً بأي ثمن . فمن

الواجب إذن أن توضع المرأة في موقف لا يمكنها معه أن تعيش إلا كما تقتضي مصالح زوجها وسيدها وينبغي بوجه خاص ان تبقى بريئة كل البراءة ، أي عذراء طاهرة ، بانتظار يوم الزواج الاكبر ولقد كان لهذا المطلب الأرعن لهذا الانحراف الذي يعلق قيمة صوفية على البكارة ، وطأة ثقيلة على النساء ، لعنة كانت وما تزال وستبقى اداة خفية للاضطهاد

وسوف نتكلم فيما بعد عن هذه المسائل الجنسية ، أما الآن فيكفي أن نشير إلى أن التغني بالبكارة كان اللازمة الاولى طوال قرون وقرون في نشيد الاخلاق التقليدية وإلى اليوم أيضاً ما يزال الكثير من الرجال الذين يعتبرون أنفسهم متحررين من الآراء المسبقة يتمنون في أعماق نفوسهم أن يكونوا « الأوائل » والفتيات التي كانت لهن علاقات جنسية قبل زواجهن يشعرن بأنهن مذنبات بهذا القدر أو ذاك ويعملن على كتمان تلك العلاقات

وإذا كان وفاء المرأة خاضعاً للرقابة الحازمة ، وإذا كان الزنى يعتبر من أخطر الجرائم ويعاقب في بعض الاحيان بالموت والرجم فإن الرجل بالمقابل يكاد يكون متحرراً من هذه الالتزامات فنظراً إلى أن الرجال هم السادة ونظراً إلى أن غريزتهم الجنسية متقلبة على حد ما يزعمون ، فإن من حقهم أن يتدبروا أمورهم بحيث تكون لهم علاقات جنسية قبل الزواج ، وعلاقات جنسية حرة بعده ، وبعبارة أخرى ، من حقهم أن تكون تحت تصرفهم محظيات أو عاهرات. والحق ان البغاء ، الذي يحتل مكانة هامة في مجتمع منقسم إلى طبقات تعترف فيه القوانين والأعراف بتفوق الرجل ، لا يمكن أن ينفصل عن الزواج البورجوازي الذي هو تكملته الضرورية فهذا البغاء يكفل للرجل أن يبقى « زوجاً طيباً » و « أباً طيباً » مع توفير بعض الحرية له في تلبية رغباته الجنسية وكما يقول انجلز « إن وحدانية الزواج والبغاء نقيضان في العالم المعاصر ، ولكنهما نقيضان غير قابلين للانفصال »

وطبيعي أن تتململ المرأة تحت نير الإكراهات المفروضة عليها ، ولهذا كان

الزنى أمراً محتوماً بالرغم من كل النواهي والمحـــاذير وكما يقول انجلز أيضاً « ليس للزنى من دواء إلا عند الموت » والواقع أن الخيانة الزوجية ، على حد التعبير الدارج ، أكثر شيوعـاً لدى الرجال منها لدى النساء ، نظراً إلى نتائجها الخطرة عليهن ومع ذلك فإن عدد المخدوعين من الأزواج ليس بالقليل ، وهذا في الحقيقـة ثأر عادل من العبوديات المفروضة على المرأة والحقيقة أيضاً ان الزانية في معظم أرجاء العالم ما عادت ترجم ، وقد أصبح الرأي العام أكثر تسامحاً تجاههـــا وعندما يخون الرجل زوجته فإن هذه لا تصبح موضع هزء وسخرية ، وبالمقابل فإن الزوج المخدوع هو موضوع دائم للتندر والتنكيت والسبب في ذلك واضح بسيط فنظراً إلى أن الرجل يعتبر هو السيد ، فإن كرامته تثلم عندما تخدعه زوجته فيفقد ماء وجهه ويثير عليه ضحك النـاس شأنه شأن الملك الذي يترنح على عرشه ويتمدد على الارض اثناء احتفال رسمي . أما تسامح الرأي العـــام النسبي تجاه المرأة الزانية ، فإنه ينم بصورة خفية عن الشعور بأن المرأة تؤكد حريتها بفعلها هذا ، وان بصورة ناقصة

ولقد حاولت المرأة ، شأنها شأن كل المضطهدين على الارض ، ان تتحرر عبر العصور والقرون ولقد أظهرت النساء في الأزمنة الحاسمة ، أي في أيام الحروب والثورات والإضرابات العامة ، الفضائل الكامنة فيهن ولقد أتين من الأعمال والمآثر في بعض الاحيان ما رفعهن إلى مستوى الابطال ولكن وطأة النظـام الاجتماعي ، المعزز بالغيبيات الرجعية ، قـــد أبقت عليهن بشكل عام في حالة مزرية من الجهل والعبودية ولم تفتح لهن آفاق جديدة إلا مع تطور الرأسمالية والصناعة الكبيرة فلقد أمكنهن ، مع تحولهن إلى أجيرات شأن الرجال تماماً ، أن يدلفن إلى مجالات كانت وقفـــاً حتى ذلك اليوم على الرجال ، وأن يظهرن بالتالي طاقاتهن وامكانياتهن وفي الحروب الكبرى الأخيرة أخذن محل الرجال في أشق الأعمال وأدقها ولقد اقمن البرهان على أن ذكاءهن في ميدان الاعمال الفكرية والتعليم والطب لا يقل عن ذكاء « سادتهن » . ولقد برهنّ في الكثير

من الاعمـال الصناعية أو الادارية على مهارة وسرعة متفوقتين ولقد اكتسبن بذلك مكانة وكرامة ، ولكن هذا لا يعني انهن تحررن

لقد فرض الرجـال ، منذ أن أصبحوا سادة ، فكرة أن النساء من ماهية اخرى ، وان طباعهن مغايرة بحكم طبيعتهن بالذات ، وان امكانياتهن العامة هي دون امكانيات الرجال ، الخ والله أدرى بما كتب عن « الأنوثة » وعن نفسية المرأة الخاصة ، وعن سلوكها اللاعقلاني ومكرها ونزواتها والحق ان هـذه الترثرة كلها باطلة

ان ثمة شيئين اثنين أكيدان ولا يقبلان جدالاً الاول ان اعضاء الرجل والمرأة من وجهة النظر الجنسية متعارضة ومتكاملة والثاني ان المرأة لا تقـل قدرة على المقاومة من الرجل من وجهة النظر الجسمانية ، وان كانت بشكل عام أقصر وأضعف عضلياً أما دماغها فإنه لا يقل فعالية أو غنى بالخلايا العصبية وأجهزتها الحسية أقوى بشكل عام وإذا كان الرجل والمرأة من وجهة النظر الجنسية يشكلان عنصرين متعارضين وغير قـابلين للانفصال تتولد من اجتماعهما وحدة الكائن الانساني بهدف التناسل ، فإن ما يميز الرجل والمرأة في كل ما لا يتعلق بالجنس هو اتحاد طبيعتهما ووحدة هويتهما وحدة هوية في الوسائل التي يملكانها للتنقل والتغذي والدفاع عن النفس والاتصال والتفكير ولا اعتقد أن بنـا حاجة إلى التوكيد بأن الرجال والنساء يملكون وسائل فكرية واحدة ، وكل ما هنالك ان الحياة الاجتماعية لا تسمح لهم ولهن باستخدامها على نحو واحد.

لقد درست عالمة السلالات البشرية الاميركية ، مرغريت ميد ، العديد من المجتمعات البدائية ، مدفوعة بالرغبـة في دراسة شروط تكييف الشخصية الاجتماعية لكل جنس،بأمل تسليط بعض الضوء على الفرق بين الرجال والنساء. وكانت تعتقد شأن سائر الناس أن لكل جنس طباعاً محددة ، ولم تكن لتشك في أن الطباع والأمزجة المميزة لكل جنس قد لا تكون غير مشتقات من المزاج البشري العـام ، وفي أن التربية لها دورها الحاسم في تمايز الرجال والنساء أو

تقاربهم ولقد بدلت معتقداتها بعد الدراسات التي أجرتها تبديلاً جذرياً ، وأبدت خلاصة رأيها في كتابها « الأعراف والجنس في اوقيانوسيا » وقد جاء فيه قولها اننا مضطرون إلى الاستنتاج بأن الطبيعة البشرية قابلة بيسر عظيم للعجن والتغيير ، وخاضعة بأمانة للأوامر الصادرة اليها من الهيئة الاجتماعية وإذا كان فردان اثنان ، ينتمي كل منهما إلى حضارة مختلفة ، لا يتشابهان فيما بينهما ، فهذا يرجع قبل كل شيء إلى أنهما تعرضا إلى شروط مختلفة ، ولا سيما في سنيهما الاولى والحال أن المجتمع هو الذي يقرر طبيعة هذه الشروط. وتكوين شخصية كل جنس خاضع هو الآخر لهذه القاعدة ، فهذه الشخصية هي من صنع مجتمع حريص على أن يكون كل جيل ، مذكراً كان أم مؤنثاً ، مطابقاً للنمط الذي فرضه عليه هذا المجتمع »

ولنلخص الآن العناصر الاساسية التي تتيح لنا أن نقيّم بصورة موضوعية شرط المرأة العام في المجتمعات المعاصرة اننا نعلم

١ — أن تبعية المرأة ليست ناجمة عن نقص في التكوين وإنما هي النتيجة التاريخية لواقعة اقتصادية زيادة انتاجية العمل واحتكار الرجال للثروات الاساسية التي تخلقها هذه الانتاجية المزدادة

٢ — أن تطور الملكية الخاصة ، المحتكرة من قبل الرجال ، قد أفسح المجال لتعزيز سلطة الزوج في الأسرة إلى أقصى الحدود ، محولاً المرأة إلى أمَة بيتية خاضعة كل الخضوع لإرادة زوجها

٣ — أن كل أمل بانعتاق المرأة كان مستحيلاً ضمن نطاق تلك البنية العائلية القائمة على حماية الملكية الخاصة ، وعلى توارثها ، نظراً إلى أن مصالح رجال الطبقات السائدة كانت مرتبطة بتلك البنية

٤ — أن انحلال الأسرة بدأ مع تطور الصناعة الكبيرة التي انتزعت المرأة من العبوديات العائلية لتفرض عليها عبوديات جديدة ، وأن وصول النساء إلى وظائف كانت وقفاً في الماضي على الرجال كان بداية الطريق نحو استقلالهن

الاقتصادي وأتاح لهن ، في بعض البلدان ، بلوغ درجـــة محددة من المساواة الحقوقية مع الرجال

٥ – أن الطريقة الـــتي تؤدي بها النساء الوظائف الاجتماعية التي أمكنهن الحصول عليها قد برهنت على أن طاقاتهن الفكرية وقدرتهن على التقرير وروحهن التنظيمية ليست البتة دون مستوى طاقات الرجال

٦ – أن التعارض أخيراً بين الطباع، أو ما يسمى بالأمزجة المذكرة والمؤنثة التي تؤكد التقاليد المتوارثة انفصالها وتباينها، ليس إلا نتيجة الضغط الاجتماعي، وأنه لا وجود هناك لطبع مذكر وطبع مؤنث نوعي ، وانما هناك فقط عمليات شرط تاريخية متناسبة مع مصالح اجتماعية محددة

وحتى نفهم كيف تُعد النساء لتقبل العبوديات التي يخصهن المجتمع بها ، يجب أن ننطلق من تكوينهن

فالأسرة تبذل قصارى جهدها ، منذ نعومة اظفارهن لتكييفهن مع منظور الزواج التقليدي الذي ينتظرهن ، فتنمّي فيهن النشاطات الـــتي تفصلهن عن الصبيان ، وتشجع مواقفهن التي تجعلهن مرغوبات في نظر الذكور وألاعيبهن المفضلة هي الدمى وأدوات الطبخ والخياطة والحياكة التي تولد فيهن مسبقاً حب العبودية البيتية أما الألاعيب العلمية والميكانيكية فلا تقدم إلا للصبيان ، مع ان البنات قـــد يجدن فيها نفس اللذة والفائدة ومنذ نعومة اظفارهن ايضاً ينفصلن عن الصبيان بملابسهن وبالحلي ومظاهر التبرج والتظرف. وما ان تترعرع الفتـــاة قليلاً حتى تجد اشغال البيت بانتظارها ، ولا سيما إذا كانت من أسرة فقيرة فهي تساعد أمهـــا وتعتني بالأطفال الأصغر منها سناً وتتعلم الخياطة والطبخ ، الخ وكلما تقدمت في الحياة ، ارتسم أمامها مستقبلها كزوجة وأم .

وطوال حقبـــة مديدة ، وبهدف تأخير البلوغ الجنسي يُفصل الصبيان والبنات في المدارس ، وتفرض على الفتيات دون الصبيان رقابة مشددة أمـــا المثل الأعلى فكان وما يزال الحفاظ على البكارة بهدف رفع سعر « البضاعة » يوم

يحين موعد الزواج بيد ان متطلبات الحياة الحديثة ، ولا سيما ضرورة التعليم المختلط في الدراسات العليـــا ، وصعوبة مراقبة الفتيات عندما يكون الأهل مضطرين إلى العمل، وشروط العمل في المصانع أو الورشات بالنسبة الى العاملات الشابات ، إن هذا كله قد خفف من وطأة الإكراهات على الفتاة، ولكن الأهل لا ينون يرددون على مسامع ابنتهم أنها يجب أن تبقى عاقلة وأن تحـــافظ على شرفها ، وهذا من دون ان تترافق هذه التوصيات بنصائح عملية تتيح للفتاة أن تتفهم تفهماً أفضل المشكلات الجنسية

وإنما في هذا الجو من الجهل والاكراه والخوف تتطور العاطفية عند الفتاة ولما كانت الميول الطبيعية حقيقة حية لا يمكن وأدها ، ولما كان انجذاب الفتيات نحو الصبيان لا يقل قوة عن انجذاب الصبيان نحو الفتيات ، لذا فإن الحيـــاة العاطفية تجـد نفسها حبيسة شبكة هائلة من الكذب والتكتم والأحلام التي لا يمكن التخلص منها بسهولة

وخلاصة القول أن التقاليد والآراء المسبقة تدفع بالأسر ، بمساندة المؤسسات الاجتماعية ولا سيما الدينية ، إلى الفصل فصلاً كاملاً بين تربية البنات والصبيان ، وإلى ابقائهم في جهل متبادل ، وإلى تكييف البنات بصورة لا يكون لهن من هدف معها غير الحصول على زوج

والأهـــالي يعلمون ولا بد هم أنفسهم وبطريق التجربة أن الواقع يختلف عن هذه الاساطير ، ولكنهم قد اعتادوا على اعتبار الزواج المخرج الوحيد، ويعللون أنفسهم بأن هذه المغامرة ستكون أقل تعاسة أو أكثر توفيقاً بالنسبة إلى أولادهم. ولا بد من الاعتراف علاوة على ذلك بأن شرط النساء العازبات شرط تعيس لا يحسدن عليه في غالب الاحيان ، وبأنهن لا يعرفن من الحياة غير الحسرة والكبت

ولا ريب في أن بعض الأسر تعيش في انسجام طيلة أيام حياتها ولكن هذه حالات نادرة ، ولعل الظواهر تخفي أحياناً واقعاً اكثر مرارة ، والحفاظ على

الظواهر طابع مميز للزواج البورجوازي ومهما يكن من أمر فإننا لا نستطيع اعتبار الزواج البورجوازي مصدراً اساسياً للسعادة ، لأن من النادر ان يتوصل الزوجان الى التفاهم والتوافق التامين هما اللذان عاشا طفولتهما وشبابهما منفصلين تمام الانفصال ورضعا مع الحليب فكرة تمايزهما. ثم إن هيمنة الرجل الاجتماعية ، المعترف بهـا حقوقياً ، والمعززة بالتقاليد والأعراف ، تقف عقبة دائمة في وجه التفاهم العميق بين الزوجين

وهكذا يبدو الزواج البورجوازي أشبه ما يكون بفخ يحاول المجتمع بكل جهده أن يدفع اليه بممثلي كلا الجنسين عن طريق استثارة شهواتهم وبنـاء ميثولوجيا كاملة حول لذائذ الحب والسعادة الروحية وكما يقول المثل الصيني « إن الزواج أشبه بحصن محاصر ، يريد من هو داخـله الخروج منه ، ومن هو خارجه الدخول اليه » ذلك ان الزواج ليس بالمؤسسة التي تهدف الى تأمين سعادة الأفراد ، انما غرضه أن يضمن أولاً بقاء النوع وأن يضمن ثانياً انضباطاً معيناً في العلاقات الجنسية ، وأن يخلق اخيراً الاطار الحقوقي الضروري لعمـل المجتمع اقتصادياً

والحقيقة ان بقاء النوع البشري والعلاقات الجنسية التي هي شرطه الضروري هما ، بالاضافة الى النشاط الاقتصادي ، الأساس المادي للحياة الاجتماعية ولقد كان انجلز أول من أشار الى ذلك في مقدمته لـ « أصل الأسرة

« ان العامل الحاسم في التاريخ هو ، في نظر التصور المادي ، انتاج الحياة المباشرة وإعادة انتاجها وهذا الانتاج هو بدوره ذو طبيعة مزدوجة . من جهة اولى انتاج وسائل الحياة ، أي وسائل التغذية والملبس والمسكن وما تستلزمه من أدوات ، ومن الجهة الثانية ، انتاج البشر بالذات ، أي استمرار النوع »

وفي العهد الستاليني كان يقال في الاتحاد السوفياتي وفي غير الاتحاد السوفياتي إن انجلز قد أخطأ عندما صرح أن اعادة انتاج الحياة، أي النشاط الجنسي ، هي الأساس المادي للحياة الاجتماعية ، شأنها شأن انتاج وسائل الحياة أي انـه

أخطأ عندما وضع على سوية واحدة بقاء النوع وانتاج وسائل الحياة كشرطين أساسيين لتطور المجتمع والمؤسسات

ولكن هذا التشويه الخطير للفكر الماركسي قد صحح في الاتحاد السوفياتي. ولقد صرح أ م روميانتسيف في خطابه الافتتاحي أمام الندوة التي انعقدت في براغ في عام ١٩٦٢ حول « دور المرأة والتقدم الاجتماعي » بقوله

في مرحلة عبادة شخصية ستالين رفضت افكار انجلز بوصفها مناقضة للتصور المادي والجدلي على حد ما زعم وقد اتهم انجلز زوراً وبهتاناً بأنه بالغ في تقدير أهمية « إعادة انتاج الحياة المباشرة » ، واعتبرت مسألة الأسرة مسألة ثانوية ، ثم جرى تجاهلها بصورة تامة وبنتيجة ذلك نفيت الفكرة العميقة عن وحدة العمل والأسرة ، مع انهـا جوهرية إذا ما أردنا ان نطرح المشكلة النسوية طرحاً نظرياً صحيحاً فهذه الفكرة هي التي تساعدنا اليوم على توضيح هذه المسائل الهامة فما خصائص الارتباط بين العمل والأسرة ، آخذين بعين الاعتبار الدور الأولوي للعمل (وانجلز هو الذي أكد أولوية العمل في هـذه الوحدة) ؟ وبأي صورة ، وفي أي اتجـاه تؤثر الشروط الجديدة على الأسرة ؟ وعلى النقيض عن ذلك ما تأثير العناصر الجديدة في العلاقات العائلية على عمل النساء الاجتماعي ؟ [١] »

ان هـذا الموقف يمثل تقدماً هاماً بالنسبة الى المواقف السابقة بيد ان روميانتسيف على ما يبدو يشعر ببعض الحرج في الحديث مباشرة عن المشاكل الجنسية فهو يتهرب منها مكتفياً بالانفتاح على مشاكل الأسرة وهـذه بلا أدنى ريب مسائل متصلة لا يمكن الفصل بينها ، بيد أن الجنس يحتل مكانة بالغة الأهمية في حياة الرجال والنساء ينعدم معها أي سبب لعدم الحديث عنه مباشرة ، ولا سيما ان هذه المسائل كانت موضع أبحاث علمية جدية للغاية منذ قرن من

---

(١) « المجلة الدولية الجديدة » ـ تموز ١٩٦٢ ـ ص ١٣٦ .

الزمن . ولم يدلل لينين على شيء من هذا الخجل في محاورته المشهورة مع كلارا زتكين

وليس المقصود بالطبع دراسة الجنس مفصولاً عن سياقه الاجتماعي وانما على النقيض من ذلك تماماً فشروط المجتمع الاقتصادية ، أي الطريقة المنظم بها العمل الاجتماعي ، تؤثر مباشرة على سلوك الأفراد الجنسي ولقد أخذ الجنس والايروسية [1] في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة مكانة مبالغاً فيهـــا وأصبحا مصدراً لا ينفد للربح بالنسبة الى المتاجرين بها وهذه ظاهرة طبيعية من ظواهر تفسخ حضارة حبيسة أكاذيبها وعاجزة إلا عن الاستغلال التجاري لحـــالات القلق والوسواس والعصاب التي هي مصدرها ومبعثها

ومما يزيد الطين بلة ان مصدر العديد من الاضطرابات والعذابات التي يعاني منها عدد كبير من الشبان والنساء والرجـال هو الكبت المفروض على النشاط الجنسي الطبيعي ولن نتكلم هنـا إلا عما يخص النساء فالمسائل الجنسية هي سبب شقاء الكثير من الأسر ، والنساء هن اولى ضحاياها وهذه نتيجة طبيعية لكل التربية المصطنعة والقسرية التي تُنشأ عليهـــا الفتاة فقد أدخل في روع البعض منهن أن العلاقات الجنسية استعباد منفر بعض الشيء ولكن لا مفر من تحمله لأداء « الواجب الزوجي » كما ان البعض الآخر يُترك بدون أي ثقـافة جنسية ولمـا كانت غالبية النساء ينتظرن يوم الزواج ليعرفن أسرار الجنس ، ولما كان معظم الرجال مغرورين ، خجولين ، جاهلين بالشروط التي تقود المرأة الى النشوة الجنسية التامة ، لذا فإن العلاقات الجنسية بين الزوجين الشابين تكون تجربة مرة في غالب الأحيان ومما يزيد الطين بلة الخوف من الحبل غير المرغوب فيه ومن هنـــا يصبح عدد كبير من النساء باردات من البداية ، الأمر الذي

---

(١) نسبة الى ايروس إله الحب عند الرومان والايروسية هي كل نشاط جنسي بغير هدف النسل . « المترجم »

يسبب لهن تعاسة كبيرة كما يسبب للرجال شعوراً بالنقص والإثم

إن النساء بحاجة إلى حياة جنسية سوية وهذا شرط لتوازنهن ولما كانت الكثيرات منهن محرومات من متعة هذه الحياة ، فإنهن يلجأن إلى ما يسمى في علم النفس بالتمويل فيوجهن عواطفهن نحو أولادهن أو نحو مشاغل أخرى ، وقد يعانين من اضطرابات تجعل حياتهن وحياة من حولهن جحيماً لا يطاق والحقيقة أنهن غير مسؤولات عن ذلك وليست « الطبيعة » النسوية هي السبب ، وإنما الشروط التي يفرضها عليهن مجتمع منظم من قبل الرجال

ن تربية الفتاة تشكو من تناقض جوهري فمن جهة اولى تحاط ميولها جنسية بسور من الإثم والتنفير ، ومن الجهة الثانية تُلقن ان تكون موضوعاً للرغبة جنسية ومن هنا يتحول الحب عندها إلى نوع من الهوى الذي يتغذى بالأحلام الأوهام والأساطير ومثل هذا التحول ينمي فيها مركزية الذات ، ويشل قدرتها العقلية ونشاطها الاجتماعي ، ويحد من آفاقها ، وبكلمة واحدة ، يبلدها وهذا ما يتضح في رسائل القارئات إلى المجلات النسوية ان مثالهن الاعلى هو دوماً « بيت صغير وأطفال وطمأنينة وزوج هو لي دوماً وحدي »

إن الأهمية التي تعلقها النساء على الحب لا تعود إلى تكوينهن الجسدي — فحاجتهن إلى العلاقات الجنسية لا تزيد ولا تنقص بشكل عام عن حاجة الرجال — وإنما إلى التكوين النفسي المفروض عليهن منذ نعومة أظفارهن. فلقد حظر عليهن أن تتفتح شخصيتهن تفتحاً حراً ولهذا فإنهن يندفعن اندفاعاً ، تحرد ان يستطعن ذلك ، في مـا يرين فيه المغامرة الكبرى ، بنفس الحرارة

) نشرت مجلة «السكان» في العدد الاول من عام ١٩٦٤ تحقيقاً اجرته في تشيكوسلوفاكيا « جنة السكان القومية » مع ٣١٩١ امرأة متزوجة حول « الزواج ومنع الحمل والإجهاض في تشيكوسلوفاكيا » وقد كانت الأسئلة صريحة ومفصلة ويدل التحقيق على ان الخوف من الحمل جرم % من النساء من المتعة الجنسية الكاملة وعلى ان ٢٤،٧ % من النساء لامبالیات أو ردت وأن ٢،٨ % منهن ينفرن من العلاقات الجنسية وأن ٢،٨ % منهن ايضاً يشعرن متعة الكاملة . وهذا في بلد يعتبر فيه وضع المرأة افضل منه مما في البلدان الأخرى

وبنفس الجهل اللذين تتميز بهما عادة مغامرات الأطفال

ولو أردنا تعداد كل مظاهر شقاء المرأة الجنسي ، لما انتهينا وخلاصة القول ان النساء المفصولات عن الرجال بالتربية ، والملقنات أن يعتبرنهم سادتهن الطبيعيين ، والمدفوعات إلى كبت مشاعرهن الجنسية حتى يجدهن الزوج القادم « طاهرات وبريئات » وحتى يجد لذة في إزالة غشاوة الجهل والسذاجة عن أعينهن ، والراغبات في نيل الاعجاب إلى حد يستحيل معه عليهن أن يكون لهن موقف بسيط وصريح ، يسقطن بسهولة في فخ الحب كما يسقط الذباب على الورق اللصاق

وما ان يتم الزواج حتى تتبدد الأوهام ، وبسرعة كبيرة احياناً فالرجل ليس ذلك الكائن الاعلى الذي تصورنه ، انما هو مخلوق لا يقل عنهن نقصاً وضعفاً ، وغير قادر على إمتاعهن الإمتاع الكامل ، ونادراً ما يكون مخلصاً وفياً وإذا ما انجبت المرأة منه اولاداً ، وإذا كانت مواردها المادية ضيئلة ، فانها تخشى هجرانه مهما بدا منه من عدم وفاء وفي هذه الحال لا يبقى عليها إلا أن تستسلم لانهيار الأحلام والبؤس والوحدة القاتلة. وفي بعض الأحيان تلجأ الى «التحويل» ، فتنصب من نفسها طاغية على أولادها وفي أحيان أخرى تفتش عن مغامرات عاطفية خارجية وسرية

والأدب الروائي لا هم له إلا أن يصور هذه المواقف ـ المآسي ولقد قال مورياك « انها دوماً قصة السيد والسيدة » والزواج عادة لا يقرب بين الشر بل يباعدهم . ولقد كتب تشيكوف يقول « إذا كنت تخشى الوحدة فلا تتزوج »

ومن عذابات المرأة الأخرى خوفها من الشيخوخة فهي تعلم أن الرجل يجذبه الشباب والفتنة الجسدية ، ومن هنا كان جهدها الدائم ، الذي يستغرق كل تفكيرها ، لكي تكون مرغوبة مشتهاة ومما يزيد الطين بلة الدعاية الهائلة في البلدان الرأسمالية المتقدمة لمسائل الموضة والتحمل والتبرج ولا شك في أن

المرأة يسرها أن تكون جميلة ، أنيقة ، رشيقة ، ولكن جهادها يضيع عبثاً إن كان قصدها من وراء ذلك الحفـــاظ على وفاء زوجها لها ، لأن وفاء الزوج أو خيانته لا يتجددان بجمال الزوجة

ان الحـــاجة إلى التأنق والتجمل حاجة طبيعية لدى الانسان ولكن في الظروف الراهنة لمجتمعاتنا تمثل هذه الحاجة شكلاً خطيراً من أشـــكال استلاب المرأة وتحويلها عن النشاطات التي يمكن أن توفر لها تلبية أعمق وأكثر دواماً

ثم ان ذلك التغني الأرعن « الانوثة وتلك الحملات الهوجاء من دعـــاية « مجلات القلوب » تقود أة حتماً إلى الضياع فلا تعود ترى في نفسهـــا غير اداة لاستثارة شهوة الذكور وكل ما تحاوله في هذا المجال وكل ما تتكبده من مشقات لا يقربها من الرجال بل يبعدها عنهم ، إذ يحولها عن النشاطات الاجتماعية التي هي سبيلها الوحيد إلى مساواة فعلية مع الجنس الآخر

وعندما تأتي الشيخوخة — وهي لا بد آتية — وتذبل فتنة الجسد ، تصبح الوسائل المصطنعة للحفاظ على هذه الفتنة مدعاة للهزء والسخرية وهذا مظهر أساسي من مظـــاهر عذاب الشيخوخة ، ومما يزيد في مشقة تحمله بالنسبة الى النساء أنهن لم يعددن الاعداد الكافي لمواجهته

إن الرجـال والنساء ، المختلفين من زاوية الجنس ، متشابهون من زاوية الفكر ، واهتمامهم بمسائل الحياة الاجتماعية يمكن أن يكون واحداً والحـال ان الحياة الجنسية ، مهما تكن هامة ومهما يكن من الضروري منحها المكانة التي تستحقها ، ليست الحياة كلها ان المظهر الرئيسي للحياة الانسانية هو النشاط الاجتماعي ، وقبل كل شيء العمل الخلاق الذي يغذي حماسة الانسان ويهبه الفرح الدائم . ومأساة النساء تكمن في استسلامهن لمعتقدات ودروب تتقدم فيها المسائل الجنسية ومستلزماتهـا الاخرى من رومانسية غرامية وتظرف ومنافسة وغيرة

وعدم رضى وعصاب ، على كل المظاهر الأخرى للحياة ويوم تتحرر الحياة الجنسية من كل الغيلان والمسوخ التي ولدها اضطهاد أحد الجنسين من قبل الجنس الآخر ، ويوم تحتل المكانة اللائقة بها والمناسبة لأهميتها بدون تهويل أو تهوين ويوم تكف عن تسميم الوجود اليومي ، يومذاك فقط تكون الكثير من العقبات قد رفعت من أمام امكانية حياة سعيدة للبشر من كلا الجنسين

أما في الوقت الراهن فان المرأة ، مهما تكن الاكاذيب التي تعلل بها ، هي كائن مضطَهد انها حبيسة التصورات التي يفرضها المجتمع عليها بصدد الأنوثة ، أسيرة التزاماتها العائلية ، تابعة للرجل الذي يقيم أودها ، تعيش في خوف من الهجران والوحدة ، وفي ذعر من الشيخوخة وزوال الفتنة الجسدية . ووضعها هذا لم يعد مقبولاً بشكل من الاشكال في العالم المعاصر ومشكلة تحررها الكامل أصبحت مشكلة حيوية وراهنة شأنها شأن تحرر الطبقة العاملة

من كتاب « عالم افضل »

النضال ضد الاضطهاد الجنسي

بقلم جان – ماري بروم

من الواضح انه من غير الممكن الكلام عن الجنس أو عن «المشاكل الجنسية» بدون التعرض إلى النضال ضد الاضطهاد الجنسي وضد الطهرانية النضال ضد الجاهلية الاكليريكية أو الرياء العلماني لشتى القوى الرجعية المتحالفة في حمية مقدسة للدفاع عن النظام العام و « الأخلاق الحميدة » (تلك الترهة البورجوازية والبورجوازية الصغيرة المنزلة منزلة العقيدة الحقوقية والاخلاقية المنبثقة عما « يقبل به عامة الناس » ، المتحالفة للسهر بعناية على الأخلاقية وعلى حسن سلوك الشبيبة « التي تتدهور » ، المتحالفة أخيراً وبخاصة لصد كل الهجمات « الماكرة » على الزواج والوفاء الزوجي وعلى واجب التناسل والعفة ما قبل الزوجية وبكلمة واحدة ، النضال ضد الرجعية التي تقاتل مستميتة لمنع تحرر المرأة وحرية الحب والحق في الجنسية الحرة

ولا يسع الماديين أن يتطرقوا إلى المشكلة الجنسية إلا سلبياً ، أي من زاوية النضال ضد القوى التي تلغي وتشوه وتخنق الحرية الجنسية التي هي ، شئنا ذلك أم أبينا ، مركب أساسي من الحرية بوجه عام

والموقف الوحيد الممكن ، الموقف الذي يشكل في رأيي حجر الزاوية في

معالجة نقدية ماركسية ،هو الموقف العملي ، النضال الفعلي ضد البؤس والارهاب الجنسيين ، ضد دورة الاضطهاد ، النضال الذي يخلف وراءه بعيداً كل الثرثرات المتفاوتة في حذريتها والصادرة عن اولئك الذين « يعكفون » على دراسة المشكلات الجنسية وأنا لا انكر ان هناك مشكلات جنسية في ذاتها » ، مشكلات معقدة وعديدة في غالب الاحيان ، وهي تلك التي يدرسها علماء الجنس المختصون لكني اؤكد بالمقابل أن هذه المشكلات تولد على أرضية مجتمع رأسمالي تمزقه تناحرات طبقية لا تني تزداد عمقاً وتصبح فيه العلاقات الانسانية متناقضة ومستلبة أكثر فأكثر ان المشكلة الجنسية هي حالة خاصة من المشكلة العامة للمجتمع الطبقي ، وما الاستلاب الجنسي إلا أحد المظاهر المتعددة للاستلاب الذي يخترق نصله قلب المجتمع الرأسمالي من أقصاه إلى أقصاه

اسس المشكلة الجنسية

ان النضال ضد الاضطهاد الجنسي يرجعنا إلى النضال ضد مجتمع استغلال الانسان من قبل الانسان وضد نظامه المتوارث ولكن هنا على وجه التحديد تكمن الصعوبات كافة فعن أي الطرق ، بالفعل ، يمكن ربط النضال ضد الاضطهاد الجنسي بالنضال الثوري وما السبيل إلى النضال بأكبر قدر ممكن من الفعالية ضد الاضطهاد الجنسي وضد الاستغلال الرأسمالي معاً ؟ هل ينبغي على سبيل المثال ، أن ينذر المرء نضاله بصورة جوهرية لـ « النزعة الاصلاحية الجنسية » التي غالباً ما توصف ، عن حق اصلاً ، بأنها بورجوازية صغيرة ، أم ينبغي ان ينذر نفسه للنضال الثوري وحده ، مقدماً بصورة منهجية وعملية الكل على الجزء (باعتبار ان الاستغلال الاجتماعي يشمل ويؤسس الاستلاب الجنسي) ؟ ان الاشتراكية — والماركسيون جميعاً مقتنعون بذلك — تتنافى مع كل شكل من أشكال الاضطهاد ، ولا سيما مع الاضطهاد الجنسي ، وتعني عينياً التلبية الحرة للحاجات الانسانية على أساس الوفرة والتمتع الحر وبالتالي على أساس الحرية الجنسية أيضاً .

وعلى هذا فالهدف هو التعجيل ، عن طريق جميع القوى المتوفرة ، بسقوط أسمالية وقيام الاشتراكية لكن هذا المطلب العادل كل العدل لا يمكن ان ينسينا أن الانسان لا يحيا بالسياسة وحدها وان الحياة اليومية ، التي تشكل الجنسية جزءاً منها ، تتطلب حلولاً عينية ، ايجابية ، بل مباشرة اذن فكل التناقض يكمن في هذا المستوى ليس هناك من حل واقعي نهائي للمشكلة الجنسية (وبالتالي للمشكلة النسوية ، الخ) في اطار مجتمع استغلال الانسان من قبل الانسان ، ومع ذلك ينبغي توفير أجوبة عملية للمسائل التي تنطرح بحدة (ولا سيما على الشبيبة العاملة والمستخدمة والطلابية في المدن والتي لا تحتمل التهرب منها لحقبة طويلة من الزمن

ان المشكلة الجنسية ، التي هي متناقضة ومعقدة ولكن هل هناك من مشكلة ليست بمتناقضة ولا بمعقدة هي مشكلة واقعية ، ومن الاجرام إغماض العيون دونها وغسل الايدي منها وهذا الموقف الموجود فعلاً — سنرى فيما بعد أسبابه — لا أساس له من الصحة لا نظرياً ولا عملياً ، لأن المسألة الجنسية مرتبطة بثلاث مشاكل اخرى أعم وأساسية بالنسبة إلى الممارسة الماركسية [طبيعي انه إذا كانت المسألة الجنسية ترجعنا الى تلك المشاكل الاخرى ، إلا أنها لا تتحدد بها ، وليس في ارادتنا أو استطاعتنا أن نحل المشكلات العامة عن طريق الحل الجنسي]

العلاقات بين المرأة والرجل

يقول ماركس « ان العلاقة المباشرة ، الطبيعية ، الضرورية ، بين الكائنات الانسانية هي علاقة الرجل بالمرأة » (مخطوطات ١٨٤٤) ومع ذلك تصبح هذه العلاقة مستلبة ما أن ينقسم المجتمع إلى طبقات ، ما أن تظهر الملكية الخاصة التي يكون الزواج تعبيرها وشرطها في آن واحد ، ما أن يقوم تقسيم العمل والاستلاب الاقتصادي والزواج يركب استلاب العلاقات بين الرجل والمرأة . وإلى اليوم ما تزال اللامساواة المخزية بين الجنسين قائمة ، وما تزال

قـائمة معها نتيجتها التي لا تقل خزياً عنها انحطاط المرأة والرجل الذي يقود البه الصاحبان الأزليان لوحدانية الزواج البورجوازي البغاء والزنى والمرأة « فريسة اللذة الجماعية وخادمتها » (ماركس « مخطوطات ١٨٤٤ » هي التي تتحمل دوماً تقريباً كل تكاليف « العملية » الجنسية انها هي التي تتحمل مذلة ، محتقرة ، منحطـة مهجورة ، كل بؤس العلاقـات الجنسية ، حتى في الاوساط التي يزعم انها « بروليتارية » أو « ثورية » أو في العائلات العمالية ودونية المرأة واضطهادها يشوهان ويحيلان كل العلاقات الجنسية إلى علاقات سيطرة ، علاقات السيد بالعبد وقد لاحظ فرويد ، الذي كان يتمتـع بصحو فكري كبير ، واقعة السيطرة الجنسية تلك وواقعة انحطاط الجنسية النسوية لكنه كان يعتقد انها واقعة اونطولوجية ، أزلية ، طبيعية ، في حين انها لم تكن إلا التعبير عن العلاقات البورجوازية المتشيئة

وليس ممكنـاً اليوم ، بالنسبة الى ثوري ماركسي ألا يفضـح بلا شفقة انحطـاط المرأة ذاك في الميادين كافـة ، من دون أن يناضل ضد آرائه المسبقة الذاتية في الموضوع. وليس ممكناً ترك نضال النساء في أيدي الجمعيات البورجوازية الصغيرة الامتثالية التي هي مع الأسف في غالب الاحيان الملجأ الوحيد للنساء اللاتي لا يردن تحمل مصيرهن

مشكلة التناسل

ان العلاقـات الجنسية تتجه في مجملهـا حتى يومنا الراهن إلى ضرورة التناسل البيولوجية التي يتوسطها اجتماعياً اضطرار الرأسمال إلى ضمان إعـادة انتاج قوة العمل الحية ، مصدر فضل القيمة اذن فالحرية الجنسية تقمع باسم الضرورات الاقتصادية والسكانية ، ضرورات زيادة أعداد جيش المأجورين وأيديولوجيا الأمومة الفادية أو السعيدة ، وأيديولوجيا التناسل (أسر عديدة الأفراد وفاضلة) ، والتضليل بصدد نسبة الولادات (سوفي وشركائه) تنطلق كلهـا من تلك الواقعة الارضية البحتة واقعة إعـادة الانتاج البيولوجية

والاجتماعية لقوة العمل وطبيعي ان المشكلة الجنسية تعكس على هذا الأساس كل نمط التنظيم الرأسمالي للعمل ومتطلبات علاقاته العملية المردود، الانضباط، الخ هذه المسألة التي لا يمكننا أن نعالجها في اطار هذا المقال ، هي مسألة حاسمة الأهمية

ان نمو الطاقة الانتاجية البشرية يتم في جوهره على حساب السنات والنساء وبذلك يكون الجنس قد أُلحق بالتناسل باعتبار أن الزواج تتويج لـ « الحياة » الجنسية وعلى هذا فإن قيام علاقات جنسية حرة سيزعزع رابطة الزواج — التناسل من أسسها ولهذا فلا غرو إذا ما وجدنا البعض يسعى إلى تخويف الشبان بشبح الطفل بوصفه عقوبة على البادرة الآثمة وعديدون هم الكهنة والأطباء الرجعيون الذين لا يترددون في القول بأن خير رادع للجنس هو الخوف من الحمل ومن هذه الزاوية لا يستطيع الماركسيون أن يلزموا الصمت أمام نتائج الحمل المعنوية والمادية التي ترزح بوطأتها على كاهل الشبان (الإجهاض، شتى أنواع المصاعب ، الخ

مسألة الايديولوجيا والتربية والاخلاق النافية للسعادة والحرية

ان المشكلة الجنسية هي في نقطة المركز من أنظمة القمع، من الدرك الروحاني الذي يقول ماركس إن « عقيدته الرئيسية » هي « التخلي عن الحياة وعن جميع الحاجات البشرية » وهدف هذه الانظمة « التربوية » هو اقتراح وتناقل مسالك متلائمة مع متطلبات النظام القائم ، وفرز افكار « معقولة » وامتثالية ، وتكييف الافعال والحاجات باتجاه التعلق بالسلطة القائمة ذلكم هو دور تلك الوكالات ، تلك المصانع الايديولوجية المضللة مثل الأسرة والمدرسة والكنيسة والصحافة والسينما والحال انه في جميع هذه « التشكيلات الثقافية » يشيع النموذج الجنسي نفسه ، وتنتشر صورة الجنس نفسها ، وترتسم المواقف نفسها ،

والقيم نفسها ، الخ (طبيعي أن وحدة الهوية هذه ديالكتيكية وحدة الهوية والغيرية ، أو الوحدة المتنوعة) فاللذة الجنسية مدانة بأشكال بارعة خفية في غالب الاحيان بوصفها دنيئة ومحتقرة (على درجات متفاوتة هذه اللذة الجنسية ، التي هي من أقوى اللذائذ وأكثرها فطرية وبدائية والتي هي نموذج اللذة بوجه عام ، كما بيّن ذلك فرويد ، يجب أن تكافح وتحارب أكثر من أي لذة اخرى ، وأن تطارد وتقمع بوصفها صورة نفي الزهد والامتناع بالذات. ولهذا فإن الكنيسة بوجه خاص هي أشد المؤسسات معارضة للتحرر الجنسي الذي يعني في نظرها انحلال جميع أساطيرها عن الجسد والخطيئة والاعتراف التي تلعب دوراً مرموقاً في تدين « المومياءات النباتية » على حد تعبير و رايش اذن فالمشكلة الجنسية ترجعنا إلى مسائل أعم كالنضال ضد الاخلاق البورجوازية والغيبيات وسائر البنى الفوقية الايديولوجية التي تساهم بكبير المساهمة تحت راية الدولة الرأسمالية وأجهزتها الجيش ، العدالة ، الشرطة ، الخ في تأييد نظام الاضطهاد ولا مجال في اطار هذا المقال لدراسة تفصيلية لكل آلية الاضطهاد ودوره ووظيفته ولكن لا مفر ، على ما يخيل إلي ، من الإلحاح على تلاحم وتماسك هذا النظام الجنسي القمعي الذي يمثل الزواج حجر الزاوية فيه إلى حد ما فالزواج ، بمحافظته على الملكية الخاصة ودعمه اياها ، يلقى منها كل الحماية المطلوبة بوصفه أحد شروطها بالذات ومن هنا فهو يصبح اسمنت الأسرة الزوجية المنجبة ، ومركز الحياة الجنسية وقناتها

التيارات التاريخية المحررة الكبرى

لقد حفزت النضال أو جسدته ، في رأيي ، ثلاثة تيارات تاريخية كبرى هذه التيارات تلتقي أحياناً من غير أن تتحد وهي

١ ــ التيار الفلسفي للمادية الثورية المناضلة

٢ ــ تيار الاشتراكية ــ الشيوعية الطوباوي ، ثم العلمي الثوري .

٣ – تيار العقلانية المستنيرة لانتلجانسيا الأوساط الجامعية العلمية

ان أحد الأوجه الأكثر جذرية للمادية الثورية هو المطالبة بالحق في اللذة وإعادة الاعتبار للسعادة المادية الحسية فالمادية الفلسفية ، من أبيقور إلى فيورباخ ، تناضل ضد القوى النافية للحياة والسعادة ، ضد المذاهب الروحانية أو المثالية التي تكيل الشتائم للمظهر الشرير ، اللااخلاقي ، للذة ، وبوجه خاص اللذة الجنسية التي توصف بالفسق والفجور ويكفي ، للاقتناع بذلك ، أن نعاود قراءة الماديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر ولا سيما « ملحق لرحلة بوغانفيل » لديدورو ، أو مؤلفات ساد ، أو كتابات هلفتيوس لنستمع إلى ما يقوله هذا الاخير على سبيل المثال « إن اللذة والألم هما وسيكونان دوماً المبدأ الوحيد لأعمال الانسان والحال ان لذة النساء هي التي تؤثر علينا أكثر من كل لذة اخرى بلا منازع ، وتهب روحنا أعظم القوة ولقد شاءت الطبيعة ، إذ ربطت بمتعتهن كبرى المسرات ، أن تجعل منهما واحداً من أقوى مبادىء نشاطنا والشبيبة تدين جزئياً للحاحة إلى اللذة بنشاطها وبما لها من تفوق في هذا الصدد على ألسن المتقدمة »

أما الاشتراكية فقد طورت من جهتها تراثاً كاملاً يؤكد للمضطهدين الحق في الجسد والمتعة ، والحق في اللذة المادية التي كانت وقفاً حتى ذلك الحين على الطبقات المالكة التي أنتج ايديولوجيوها نظرية التعفف للشغيلة والنضال الاشتراكي الثوري لا يجهل مشكلة الجنس هذه ، بل يدمجه على العكس ، كما سنرى ، بنضاله ضد المجتمع الرأسمالي مؤكداً بقوة أن الحرية الجنسية ستكون أحد مركبات الحرية الاشتراكية

وأخيراً التراث الديموقراطي للانتلجانسيا التقدمية التي كافحت بوجه خاص من خلال منظور الاصلاح الحقوقي والتي حاولت ، في الإطار البورجوازي ومن غير مس ببناه الأساسية ، أن تلغي المظاهر « المحرجة » حقاً والمرئية أكثر من

غيرها للجاهلية الجنسية ولاضطهاد المرأة والشبيبة وحل جهدها (ولا في أيامنا) يقوم على « تحرير » القانون باتجاه ليبيرالي ليكون مقبولاً من الجميع وقد اقتصر بوجه خاص على التشريع العائلي والقوانين القمعية

ان على الماركسية الثورية ، في أيامنا هذه ، أن تتابع النضال التحريري على جميع المستويات ايديولوجياً وحقوقياً وسياسياً الخ ، رابطة اياه بالطبع بالنضال من أجل تحرر البروليتاريا ، الضمانة الوحيدة والشرط الضروري للتحرر الجنسي. وعليهـــا أن تعيد عقد الأواصر مع التراث المادي التحريري وأن تناضل في سبيل حماية وتوسيع منجزات الديموقراطية البورجوازية المتعلقة بالجنس والمرأة والشباب ، وفي سبيل تربيـة الجماهير والشبيبة بروح الاشتراكية التي تستطيع هي وحدها أن تعطي مضموناً عينياً لهذه الحقوق

لقد كان لينين على سبيل المثال يقول

« مهما تكن حقوق النساء محدودة في ظل النظام الرأسمالي ، يدافع عنهـــا الشيوعيون ويناضلوا في سبيل توسيعها ، وهـــذا النضال هو جزء لا يتجزأ من العمل في سبيل حماية الديموقراطية »

وكان يحدد وجهة نظره بصدد الطلاق

« إن الحق في الطلاق ، كسائر الحقوق الديموقراطية بلا استثناء ، صعب التحقيق في ظل الرأسمالية ، فهو نسبي ، محدود ، شكلي ، ضيق ، ولكن ليس هناك من اشتراكي — ديموقراطي شريف يضع في مصاف الاشتراكيين ولا حق في مصاف الديموقراطيين رجلاً ينفي هذا الحق وهذا هو الشيء الجوهري . فكل « الديموقراطية » تكمن في إعـلان وتحقيق « الحقوق » التي تتحقق ، في ظل الرأسمالية ، على نحو متواضع جداً ونسبي للغاية ، ولكن بدون إعلانها ، بدون النضال الفوري والمبـــاشر في سبيل هذه الحقوق ، وبدون تربية الجماهير بروح

هذا النضال ، تكون الاشتراكية مستحيلة »

ولكن هذا لم يمنع الحزب الشيوعي الفرنسي من أن يجعل من نفسه سالب حق المرأة (حق المرأة غير المتزوجة) في حرية تجنب الحمل بتوكيده ، على لسان ج. فيرميرش (٢) ، ان « تحديد النسل والأمومة الإراديه تضليل للجماهير الشعبية وسلاح في أيدي البورجوازية ضد القوانين الاجتماعية

وربما كان من المفيد أن نبين كيف ولماذا هبت الاحزاب التي تسمي نفسها بأنها عمالية أو ثوريـــة (الحزب الاشتراكي ، الحزب الشيوعي ، الخ) إلى نجدة الأسرة والوطن والأخلاق (بأحرف كبيرة) . وربما كان من المفيد أيضاً أن نتتبع سياسة منظمات الشبيبة في ميادين الجنس وأوقـــات الفراغ الخ وتجاه الشبيبة ، وأن نحلل مناخها الداخلي بهذا الخصوص

وعلى كل الاحوال ، لا مناص اليوم من إجراء كشف وجرد بإفلاس هـــذه المنظمات والاحزاب في هـــذا المجال الذي هو مجال النضال ضد اضطهاد المرأة والشبيبة ، ذلك الإفلاس الذي هو بالطبع انعكاس أمين لإفلاسها السياسي العام.

المؤلفات الثورية لوهلم رايش

ان النضال الثوري ضد الاضطهاد الجنسي يجب أن يبـــدأ بنقد وفضح المنظمات البيروقراطية والاصلاحية المتكيفة مع النظام البورجوازي ، الهادفة إلى الإبقاء عليه ، المستسلمة له ، الواقفة جميعها ، مهما تنوعت الفروق والظلال ، مواقف بورجوازية وبورجوازية صغيرة في موضوع الجنس والاخلاق وسوف يـكون هذا النقد الخطوة الاولى نحو تجديد النضال ضد الاخلاق البورجوازية والقمع الجنسي اللذين يبدو أن الكثيرين من الماركسيين قد تكيفوا معهما

---

(١) « حول تحرر المرأة » ـ نصوص مختارة للينين

(٢) جانيت فيرميرش ، زوجة موريس توريز الرئيس الراحل للحزب الشيوعي الفرنسي. « المترجم »

ان هذا النضال ، الذي بودي أن أحدد بعض شروطه ، قد خاضه في رأيي بأكبر قدر من الشجاعة والإصرار ولهـــلم رايش ، الماركسي والمحلل النفسي ، الذي غالباً ما لُوِّث اسمه ظلماً وبهتاناً ، حق على أيدي الماركسيين. ان مؤلفات رايش ليست متجانسة بالطبع ، ولا يمكن أخذها بعين الاعتبار كلها فمؤلفات رايش الأخير ، الوضعي – العلمي النزعة ثم الصوفي – الكوني ، إذا كانت جديرة بإثارة اهتمام الاختصاصيين في العلوم الانسانية والبيولوجية إلا انهـــا لا يمكن أن تحظى باهتمام الثوريين ان القسم الحاسم من أعمـــال رايش ، القسم الواجب فهمه والاستفادة منه ، يشتمل على ... ة الاخلاق والايديولوجيا القمعية المناوئة للجنس وعلى تحليـــل الآليات السيكولوجية ، الطبعية ، للقمع والكبت ، وعلى تفسير العلاقات بين البنية التحتية والبنية الفوقية من وجهة نظر سيكولوجيا الجماهير وتظاهراتها اللاعقلانية ، وعلى تحليل بنى العائلة وتناقضاتها ودورها الأيديولوجي ، وأخيراً على دراسة العلاقات الديالكتيكية بين المـادية التاريخية والتحليل النفسي

وثمة مظهر من مظاهر نشاط ر... يكاد يكون مجهولاً وهو أي حد كان رايش لا ينسى الدلالة الجوهرية للماركسة والتحليل النفسي وحـــدة النظرية والممارسة المناضلتين وأقصد بذلك نضـــاله داخل الحزب الشيوعي الألماني والأممية الشيوعية (ولا سيما داخل منظمة الشبيبة الشيوعية في سبيل تسييس مشكلة الشبيبة الجنسية

والآن ما العمل ؟

المطلوب اليوم متابعة عمل رايش مع الوفاء لمضمونه الأساسي النضال ضد الاضطهاد الجنسي وليس المطلوب تحويـل رايش إلى صنم معبود بل تطوير تراثه الثوري وهذا ما تترتب عليه في رأيي المهام التالية

١ – ينبغي أن تحتل المشكلة الجنسية مكانهـا في النضال الثوري على صعيد التحريض والدعاية .

يقول لينين في «ما العمل» ان واجب الماركسي هو «أن يكون أول من يطرح ويشجب ويحلل كل مسألة ديموقراطية ذات طابع عام» وبالفعل، ان التربية السياسية الثورية تتطلب فضح جميع مظاهر السيطرة الطبقية البغيضة للبورجوازية وخدمها الاكليريكيين وعلى هذا فالماركسية هي تفهم المجتمع البورجوازي في جملته وادراك العلاقات بين جميع طبقات السكان وفئاتهم (نضالاتهم، قواهم، حاجاتهم)، ولكن دوماً من وجهة نظر مصالح البروليتاريا العالمية ونضالها والحال ان هذا النضال لا يمكن للبروليتاريا أن تخوضه إذا لم تكن تعرف الوسط الذي يحيط بها بكل تفاصيله وتناقضاته، أي إذا لم تكتسب وعياً اشتراكياً وهذا يقتضي أن تصبح الطبقة العاملة هي الطليعة في حماية المصالح ذات الطابع الديموقراطي العام، المصالح التي لها صلة بالحرية في جميع ميادينها وبالحقوق الديموقراطية وطبيعي ان عليها أن تنمي تلك المنجزات الديموقراطية وأن تخوض النضال في سبيل الاشتراكية القادرة هي وحدها على اعطاء مضمون فعلي لتلك الحريات والحقوق وعلى الحزب الثوري، حزب النضال ضد كل اضطهاد اقتصادي وسياسي واجتماعي وقومي»، أن يتدخل في كل المجالات وفي جميع مسائل الحياة الاجتماعية والسياسية، وأن يفضح «كل استغلال للسلطة وكل تظاهرة من تظاهرات التعسف والاضطهاد والعنف، مهما تكن الطبقات الواقعة ضحية لها وأن يرد عليها على وجه التحديد من وجهة النظر الاشتراكية — الديموقراطية (١)، لا من أي وجهة نظر اخرى» ذلك أن المطلوب إدخال الدعاية الثورية إلى كل المجالات على أن يجري تطبيق «التحليل والمعيار الماديين على كل أشكال نشاط وحياة شتى طبقات السكان وفئاتهم وزمرهم» وهذا يقتضي أن «تكون مهمتنا استخدام جميع تظاهرات الاستياء وتجميع ودراسة وصياغة أبسط عناصر الاحتجاج ولو كان جنينياً» إذن ينبغي «أن نحول، على أساس معرفتنا التامة بالحالة المعنوية لجميع فئات

---

(١) كانت «الاشتراكية الديموقراطية» تعني بالنسبة الى لينين آنذاك الماركسية الثورية.

المعارضة وبكيفية تزعم الحركة ، كل تظاهرة عفوية إلى تظاهرة سياسية نوسع طابعها السياسي » ، ولو كانت المسألة لا تتعدى نطاق « صا قانون ضد الصور والمؤلفات « اللااخلاقية » ادن فالمطلوب ، كما أكد رايش ، تسييس المشكلة الجنسية ، شأنها شأن سائر المسائل وهذا التسييس يتطلب محـلة ماركسية نظرية متخصصة في التحريض والدعاية ، قادرة على تفسير جميع المظاهر الاضطهادية للحياة الاجتماعية في المحالين الخاص والعام اليوميين، وقادرة على إثارة اهتمام الجماهير الواسعة وعلى فضح التأثير الدائم المضاد للثورة لكل تلك العلوم الانسانية المزعومة (علم النفس الا ، التربية ، علم العلاج ، الطب ، الـخ التي تبرر في خاتمة المطاف القائم وحقاراته مجلة مادية نقدية ثورية مكرسة للفضح في ميادين الاخلاق والتشريع والعلاقات الانسانية والتضليل البسيكولوجي والعلاج البسيكولوجي والصحة الخ... وهدفها تبيان رابطة هذه الايديولوجيا بعلوم الانسان

٢ ــ ينبغي إنشاء رابطة للنضال ضد الاضطهاد الجنسي

إن في وسع رابطة كهذه أن تضم ، بالاضافة إلى الماركسيين الثوريين ، ممثلي العلوم الانسانية والطب والآداب الـخ الذين ينقد بوصفهم ماديين ، اضطهاد المرأة والشبيبة ، والقمع الجنسي بوجه عام وفي وسع هذه الرابطة أن تكافح التشريع العائلي والطبي والقوانين القمعية الرجعية بوجه عام وعلى وجه الخصوص قانون ١٩٢٠ الدنيء المحظر الإجهاض وحرية الإنجاب وهي بذلك ستبرز فكرتين بسيطتين لكن واضحتين

أ ــ الحرية الكاملة في الإنجاب بدون أي تمييز على أساس الطبقة او العمر

---

(١) كل الفقرات الموضوعة بين قوسين هي للينين

ب — حرية الاجهاض في شروط طبية مناسبة وبهذا الصدد تقول سيمون دي بدفوار في مقدمتها لكتاب السيدة ويل — هاليه ان حرية المرأة تبدأ من البطن » والواقع ان الحرية الجنسية غير معقولة بدون حرية رفض الإنجاب، بدون حق المرأة في ألا تنجب أطفالاً لا ترغب فيهم لكن حرية الإنجاب في الشروط الرأسمالية اهنة غير كافية إذ ينبغي النضال من أجل الحق في الاجهاض ، أي حق المرأة في حرية التصرف بجسمها الذي هو في التحليل الأخير « ملكيتها » الاكثر مباشرة والاكثر تعرضاً للخطر هذا الحق في الإجهاض هو الضمانة الوحيدة الأخيرة للمرأة ضد حمل مرفوض وتعيس ولهذا ينبغي على الماركسيين ألا يتخوفوا من الدفاع عنه بلا قيد او شرط ، كما فعل رايش ، وكما فعل تروتسكي الذي أكد ان «الحق في الاجهاض هو أحد حقوقها المدنية والثقافية الأساسية ما دام البؤس والاضطهاد العائلي قائماً ، وبغض النظر عن كل ما يمكن أن يقوله الخصيان من كلا الجنسين »

وعلاوة على ذلك فان من واجب رابطة كهذه ان تناضل ، بنقدها جميع ايديولوجيي فرح الأمومة والأمومة السعيدة من أجل توسيع التخطيط العائلي [1] ليشمل النساء كافة ولا سيما حديثات السن منهن ، المتزوجات منهن وغير المتزوجات ، من دون أي تمييز على أساس العمر وطبيعي ان هذا النقد اليساري للتخطيط العائلي ونواقصه غير قابل للانفصال عن النضال في سبيل حمايته وتوسيعه ضد كل الجهاز الاكليريكي وضد كل الروابط العائلية الرجعية والطائفية ومن الواجب العمل على توسيع التنظيم الذي يتيح الحصول على وسائل منع الحمل مع النضال في سبيل اعطائه مضموناً حقيقياً هو مساعدة جميع الشبان وجميع الشابات على أن يعيشوا حياتهم الجنسية على الوجه الذي يحلو لهم.

٣ — يجب ان تعطى الكلمة للشباب

يكمن فضل رايش الكبير في انه اهتم بشروط حياة الشبيبة الجنسية

---

(١) مصطلح حديث لتحديد النسل « المترجم »

وبؤسهم ، وأخذ شهاداتهم ورغباتهم وحاجاتهم بعين الاعتبار ولقد كان هذا تجديداً عظيماً ولقد بذل رايش قصارى جهده ، وفضله عظيم من وجهة النظر هذه ، ليجعل الشباب يأخذ بيده مشاكله الخاصة ، وليساعده على صياغة حاجاته وعلى توفير الاحترام لها وقد واجه صعوبات كأداء ، وهـذا أمر لا يبعث على الدهشة ، ولكنه أشار إلى الطريق الـكلمة للشباب ! ألا فليعبر الشباب عن نفسه بحرية ، وليشعر بدعم الراشدين الرفـاقي له ، وليكن قادراً على ان يقرر بنفسه ما يناسبه وما لا يناسبه ، وليعرف أن الثوريين الراشدين يؤيدون حقوقه ويعرفون مشاكله

كان لينين يقول ان تحرر العمال يجب أن يكون من صنع العمال ، كما أن تحرر العاملات يجب أن يتحقق على أيدي العاملات أنفسهن » وكان في وسع رايش ان يضيف « ان الخط الاساسي النهائي للسياسة الجنسية بصدد الشباب يجب أن يقرر جماعياً ومن الشبيبة نفسها

وليس هناك ما يمكن اضافته إلى هذا القول

عن مجلة « انصار »

ولهلم رايش والاخلاق الجنسية الثورية

بقلم بوريس فرانكيل

« لقد ولد الاقتصاد الجنسي من محاولة
توفيق علم نفس الأعماق الفرويدي مع
نظرية ماركس الاقتصادية والسياسية »
و. رايش

عما قريب يكون قد مضى ثلاثون عاماً على وفاة هذا العالم المتواضع الذي أعاد للجنس مكانه في التصور الاجمالي لإنسانية القرن العشرين، الذكرى الثلاثون لوفاته ومع ذلك فان مؤلفاته ، التي هي فتح أساسي لنظامنا الثقافي ، ما تزال موضوعة اليوم كما في الأمس في قائمة المحظورات

ثوري في نظر الاصلاحيين ، واصلاحي في نظر بعض « الثوريين » ، تروتسكيّ في نظر الستالينيين الاورثوذكسيين ، وستاليني في نظر غلاة التروتسكيين الاورثوذكسيين... ولكنه ما يزال مجهولاً على حقيقته في الاوساط الجماهيرية

وسوف أحاول ، في تقديمي هذا لرايش ، أن أبين دوره في إغناء نظرية التحليل النفسي وتطبيقه ، وفي إغناء علم نفس الأعماق بوجه عام ، وكيف أنه

وسع علم الصحة الاجتماعية وعلم الوقاية من الامراض النفسية ، وكيف انه وضع الخطوط الكبرى للأخلاق الجنسية ، وكيف انه ادرج في حقل التفكير الجنسي العلمي تحليل العراقيل التي وضعت أمام الثورة الجنسية في روسيا الستالينية وسوف أحاول أخيراً أن أرسم الخطوط الكبرى لانعطافه نحو الفيزياء البيولوجية ، ذلك الانعطاف الذي يشكل المرحلة الأخيرة من حياة ممتلئة لعالم وباحثة

لقد اكتشف رايش في وقت مبكر جداً ، اثناء دراسته الطب ، التحليل النفسي الذي كانت فيينا آنذاك عاصمته التي لا منازع لها وقد كان دوره في الحركة لامعاً وصاعقاً معاً وكانت مساهمته الكبرى اكتشافه لوظيفة الانتشاء « حتى عام ١٩٢٣ لم يعرف علم الجنس والتحليل النفسي سوى القوة القذفية والقوة الانتصابية مع ان القوة القذفية والقوة الانتصابية ليستا سوى الشرطين التمهيديين الصرويين للقوة الانتشائية والقوة الانتشائية هي القدرة على الاستسلام لتدفق الطاقة البيولوجية بدون أي تاوٍ ، القدرة على الإفراغ الكامل لكل النعرة الجنسية المكبوتة بواسطة اختلاجات غير ارادية مستطابة للجسد

ان نظرية رايش عن وظيفة الانتشاء — أو ما يسميه الشعراء مجازاً «اللحظة العلوية » — قد طرحت اولاً سؤالاً عظيم الأهمية إلامَ تصير الطاقة الاندفاعية غير المصروفة في الفعل الجنسي الناقص ، أي بدون انتشاء تام ؟ وإذا كانت هذه النظرية تفيد ، على الصعيد الفردي ، في المعالجة التحليلية النفسية ، فانها تفسر ، على الصعيد الجماعي ، أسس النزعات الصوفية ، الدينية منها وغير الدينية ، بما في ذلك الفاشية

ثانياً ، أليس هذا العجز عن الحب بصورة مرضية كاملة سمة أساسية للكائن الانساني في كل مجتمع متمدن قائم على الاضطهاد بنوعيه المتضامنين الاقتصادي والغريزي ؟ ألم يربط ماركس وفرويد ، كل في ميدانه ، تعاسة الفرد بتعاسة

المجتمع العامة ؟ ألم يكشفا في أعماق كل فرد عن خلفية اجتماعية مشتركة ؟ اذن فمن المنطقي ، كما فعل رايش ، تقريب المادية الجدلية أو ديالكتيك الواقع اللذين قال بهما ماركس من ديالكتيك علم نفس الاعماق أو التحليل النفسي

ثالثاً ، ان اكتشاف اهمية الانتشاء يطرح مسألة تاريخيته : أليس هذا التحديد للطاقات الانسانية هو الثمن الذي لا مناص من دفعه لإقامة أى شكل كان من أشكال الحياة المتمدينة كما كان يرى فرويد ؟ وهذا معناه ان رايش كان يرى أن في الامكان تلاقي الاثنولوجيا والتحليل النفسي ، لا على أساس ميتافيزيقي — بسيكولوجي كما حاول ذلك فرويد في كتابه « الطوطم والتابو » ، وانما على اساس الخط المادي لأبحاث مورغان — انجلز ، على اساس متابعة وتعميق «أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة وفي هذا الصدد يقول رايش في مقدمة كتابه « التحليل الطبعي »

« ان علمنا الذي تفرع من الطب قد تجاوزه كثيراً وإذا كان البشر ، كما تنص على ذلك العبارة المشهورة ، يصنعون تاريخهم بأنفسهم بدلالة الشروط والمقدمات الاقتصادية المحددة ، وإذا كان على التصور المادي للتاريخ ان ينطلق من المقدمة الاولى لعلم الاجتماع ، التنظيم الطبيعي والفيزيائي للانسان ،فمن الواضح اذن ان بحثنا يكتسب ، عند نقطة محددة ، أهمية سوسيولوجية حاسمة اننا ندرس البنى النفسية وديناميكيتها واقتصادها فالقوة المنتجة « الاكثر اهمية » ، اي قوة العمل مبوطة ببنيتها النفسية وبدون علم نفس تجريبي لا يمكن ان نفهم لا عامل التاريخ « الذاتي » المزعوم ولا القوة المنتجة ، قوة العمل ولهذا فان الشرط الاول المسبق هو وضع حد لتلك الآراء الصادرة عن التحليل النفسي التي تفسر الحضارة وتاريخ المجتمع الانساني بدءاً من الغرائز ، بدلاً من ان تفهم ان العلاقات الاجتماعية هي التي تؤثر اولاً على الحاجات الانسانية وتحولها قبل ان يتاح للغرائز والحاجات المتحولة ان تبدأ بممارسة تأثيرها بوصفها عوامل تاريخية . ان أشهر علماء الطبائع اليوم يحاولون ان يفهموا العالم بدءاً من

القيم » و « الطبع » بدلاً من أن يجعلوا على العكس الطبائع والقيم تابعة للصيرورة الاجتماعية فالنية الطبعية هي تبلور الصيرورة السوسيولوجية لعصر معين »

تحليل ومعالجة طبعيان

لقد عالج رايش في اول كتاب نشره مشكلات طبعية وقد قاده اكتشافه لوظيفة الانتشاء ، في إطار حركة التحليل النفسي العالمية ، إلى تطوير علم الطباع من جهة ، وإلى وضع أسس علم جديد للمعالجة في ميدان التحليل النفسي هو علم « التحليل الطبعي » وقد اختبرت التقنية الجديدة ووضعت موضع تطبيق في شتاء ١٩٢٨ — ١٩٢٩ ، وكملت بنظرية عن تكوين الطبع قائمة في جوهرها على أساس الانقسام إلى طبع تناسلي (سليم) وطبع عصابي وتقسم هذه النظرية الطبع العصابي بدوره إلى عدد من الطباع كالطبع الهستيري والطبع الهوسي والطبع الإحليلي — النرجسي والطبع المازوخي على أساس ان الركود الجنسي ينجم عن توترات غير ممتصة بنتيجة نقص الشبع الانتشائي اثناء الفعل الجنسي ويتحد ببقايا صراعات جنسية طفولية غير مصفاة ، الشيء الذي يؤدي إلى تشكل قشرة نفسية — جسمية ، إلى تشكل « تصفح » طبعي حقيقي

اذن فالتقنية التحليلية الجديدة ، التي سميت فيما بعد بالمعالجة الإنمائية تهدف إلى تحليل وتدمير ذلك التصفح الطبعي الذي يشكل نواة مقاومة المريض. وكان من المفروض أن يصدر كتاب رايش الاول « التحليل الطبعي » ، الذي هو على الارجح أهم مؤلفات رايش من وجهة نظر علم العلاج ، في عام ١٩٣٣ عن دار نشر « الجمعية العالمية للتحليل النفسي » ، إلا ان مجيء النازية إلى الحكم ونشاط مؤلفه الثوري المعروف قد أرجأ نشره وعندما تم نشره ، لم يذكر اسم الناشر

مشكلة الوقاية من الأمراض النفسية

لما كان أكثر اناس حضارتنا مصابين باختلالات جنسية وعصابية ، ولما كانت المعالجة العلمية الوحيدة ، التحليل النفسي ، تتطلب حقبة طويلة من الزمن ، فان مسألة الوقاية من الامراض النفسية تفرض نفسها تلقائياً والحق انه من غير المجدي تقريباً خص المعالجة الفردية بكل اهتمامنا وانه لما يبعث على الدهشة حقاً ان مسألة الوقاية من الامراض النفسية لم تطرح قط على بساط البحث وحتى في الحالات النادرة التي طرحت فيها ، اغرقت في العموميات) اذن فكل شيء يرتد إلى السؤال التالي ما السبيل إلى منع الامراض النفسية ؟[1] ». والحق ان رايش كان لا بد ان تثور حساسيته أمام الزمن الطويل الذي تستغرقه المعالجة التحليلية النفسية الفردية ، وبالتالي ارتفاع تكاليفها ، واستحالة معالجة جماهير المرضى المتراكمين في عيادات فيينا النفسية والواقع ان الامراض النفسية لا يمكن النظر اليها من زاوية علاجية صرفة ، أي طبية فالمشكلة هي مشكلة صحة اجتماعيـة ، وبالتالي هي مشكلة اجتماعية ما السبيل إلى وقاية الافراد من الوقوع بين براثن المرض ؟ ما السبيل إلى ايجاد وقاية من الامراض النفسية ؟ هنا تنطرح ضرورة فهم العصاب على انه مرض اجتماعي ، وضرورة البحث عن شفائه في إطار أعم أي اجتماعي « لقد بذلت قصارى جهدي لأبين ان العصاب هو نتيجة التربية العائلية — الرعوية والقمعية من وجهة النظر الجنسية ، وان المشكلة الجدية بالتالي هي مشكلة علم وقاية من الامراض النفسية لا يتوفر لتطبيقه العملي أي شرط من شروطه اللازمة في إطار نظامنا الاجتماعي الراهن ، وأن انقلاباً جذرياً في المؤسسات والايديولوجيات الاجتماعية ، انقلاباً منوطاً بمصير ونتيجة صراعات عصرنا السياسية ، هو وحده الذي سيخلق شروط وقاية عامة من الامراض النفسية وبعد محاضرة في المعهد العصبي — النفسي

---

(١) مقدمة « هجمة الاخلاق الجنسية » .

في موسكو ، قال موظف كبير في دائرة الصحة الشعبية ، اثناء المناقشة ، أن هناك حاجة إلى نظرية قابلة للتطبيق عن الوقاية من الامراض النفسية وقد لاحظت انه لا وجود مع الاسف لمثل هذه النظرية ، وان الشيء المؤكد بالمقابل هو انه ينبغي البحث عنها من وجهة النظر الطبية ووجهة النظر السوسيولوجية على حد سواء [1] »

رجل الدعاية

بعد عودتي من الاتحـــاد السوفياتي حاملاً تلك الانطباعات المشجعة انكفأت على المهمة كان علي ، عن طريق العمل العملي الوثيق الارتباط بالحركة العاملة ، أن أحلل المعنى السياسي الراهن للاضطهاد الجنسي في النظام الرأسمالي. وسرعان ما اتضح لي أن المؤسسة الزواجية والعائلية هي النقطة الثابتة التي يدور حولها — بصورة خفية قبل كل شيء — صراع الطبقـات في الحقل الجنسي النقطة التي اخفق فيها العلم الجنسي والاصلاح الجنسي البورجوازيان وقـــد وضعت الهيكل الاولي لهذه المسألة وحللها في مقالتي « النضج الجنسي والتعفف والاخلاق الزواجية ، نقد للاصلاح الجنسي البورجوازي [2] »

في الوقت الذي حرر فيه رايش الكراسة التي أتى على ذكرها — والـــتي طبعت بالفرنسية من قبل « المنشورات الاجتماعية الامية » تحت عنوان «الازمة الجنسية» وان أُتبعت بما يشبه الدحض بقلم شخص يدعى سابير — كانت كراسته التبسيطية « التوتر والإشباع الجنسيان » قد طبعت أربع مرات ولم يهتم رايش بتربية الراشدين وحدهم فقد كتب كراسة كان يوليها عظيم اهتمامه « معركة الشباب الجنسية » وكانت هذه الكراسة التربوية الجنسية تلخص تجربته مع

---

(١) المصدر نفسه

(٢) المصدر نفسه .

« الشبيبة الاشتراكية النمساوية » اولاً ثم مـع « الشبيبة الالمانية الشيوعية » وكانت تلح على ضرورة « الثورة الاجتماعية بوصفهـا شرطاً مسبقاً للتحرر الجنسي » وكان رايش يقول في هذه الكراسة التي ظهرت في مستهل ١٩٣٢ — بموافقة المجلس التنفيذي لأممية الشبيبة الشيوعية — والتي وضعها الحزب الشيوعي الالماني في قائمة الكتب المحظورة قبل مجيء هتلر إلى الحكم ، انه « ينبغي تسييس هـذه المسألة الجنسية ، ينبغي تحويل تمرد الشباب الجنسي ، الخفي أو العلني ، إلى نضال ثوري ضد النظـام الاجتماعي الرأسمالي » ، وإذا « كنت تريد إزالة البؤس الجنسي ، اذن فناضل في سبيل الاشتراكية » وقد كتب له مسؤول عن احدى خلايا الشباب العمال في برلين هذه السطور

« لقد قرأتها مع بعض الشبان كانوا متحمسين وكانوا يقولون ان مثل هذه الكراسة كانت مفتقدة حتى الآن مضمونها لا غبار عليه لقد عالجت بوضوح كبير كل ما يشغل اهتمامنا واثناء القراءة توضحت مسائل كثيرة كانت تعنينا وما كنا بقادرين على تفسيرها » وتؤكد هـذه الرسالة نقد « مجلة المعلمين الجديدة » « ان لغة الكتاب شعبية حتى انه يصلح دليلاً للشباب البروليتاري الذي كتب له اصلاً » وقد كتب هؤلاء المربون الذين ما كانوا يخافون من توريط أنفسهم « ان رايش يقدم فيه تحليلا جذرياً للجذور الاجتماعية للبؤس الجنسي ويبين انـه لا يمكن انتظار التحرر إلا مع تغير الشروط الاقتصادية والسياسية للمجتمع اننا نوصي به جميع المدرسين والمربين الراغبين في التطرق إلى المشكلة الجنسية من وجهة النظر الماركسية ». والحق ، مَن غير رايش عرّى بذكاء عظيم « داء الشباب الكبير » ؟

« انـني أرى ان شبيبة اليوم تتألم أكثر بكثير من شبيبة مطلع القرن على سبيل المثال فقد كان في وسع تلك الشبيبة أن تمارس كبتاً تاماً أما اليوم فإن جميع ينابيع حياة الشباب قـد تحررت لكن الشبيبة تفتقر إلى المكتسبات الاجتماعية افتقارها إلى الطاقة البنيانية حتى يكون في وسعها النهل من هـذه

الينابيع . وإعادة اغلاقها لم تعد ممكنة ولس هذا قصدي أصلاً

« ان أزمة الشباب الجنسية تصبح جزءاً من أزمة النظام الاجتماعي البورجوازي بوجه عام وهي تبقى غير قابلة للحل — على مستوى الجماهير ما لم يحطم هذا الاطار

« أن طريقاً واحداً ، وان غير كافٍ ، يساعد الشبيبة المكافحة على الخروج من هذه المصاعب فهي تستطيع أن تبعد وتسيطر جزئياً على ألمها الذاتي بنضالها في سبيل الانقلاب الاجتماعي ذلك أن حل مشكلة الشباب الجنسية لن يكون ممكناً إلا في النظام الاجتماعي الذي نناضل في سبيله

مرحلة التحريض والدعاية

إن أهم حدث في هذا السياق محاولة خلق حركة جماهيرية تابعة للحزب الشيوعي الالماني (الشعبة الالمانية للأممية الثالثة وموجهة من قبله ، وهي محاولة تغوص جذورها بعيداً في ماضي رايش وقد بدأت هذه التجارب في العيادة الاستشارية في فيينا الحمراء في أعوام ١٩٢٦ — ١٩٣٠ وقد التقى رايش، اثناء مشاركته في اجتماعات الرابطة الاشتراكية للمساعدة والبحث الجنسيين » في ١٩٢٩ — ١٩٣٠ بأطباء وشغيلة اجتماعيين الخ ، كان علم النفس الاصلاحي من النمط الأدلري يجذبهم أكثر مما يجذبهم مذهبه الجذري أكثر مما ينبغي وفي المؤتمر الأممي الثالث لـ « الجمعية العالمية للإصلاح الجنسي » ألقى محاضرة عنوانها « بؤس الشغيلة الجنسي » وقد كلفته لجنة من الجمعية بتحرير وثيقة نظرية مبدئية بصدد السياسة الجنسية وقبل أن يقدمها رايش لها لمناقشتها ، قدمها لشعبة التحريض والدعاية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي الالماني ، التي استشارت فرع الاطباء الشيوعيين وأعطت جواباً محذاً ، بعد بضعة تعديلات

---

(١) « الجنس في المعركة الثقافية » ـ ص ١٠٤

تفصيلية بموافقة رايش ولا غرو بعد هذا ان كانت لجنة « الجمعية العالمية » قد رفضت الوثيقة بوصفهـــا شيوعية وبعد هذه القطيعة ، اقترح رايش تأسيس رابطة جماهيرية للسياسة الجنسية على أساس شيوعي وحتى ذلك الحين كانت المحاولات في هذا الميدان وقفاً على الاشتراكيين — الديموقراطيين الذين كانوا ، في أحسن الأحوال ، اناساً ينفون كل صـــلة بين الاصلاح الجنسي والسياسي أو ينتظرون تغير المجتمع البورجوازي عن طريق التربية الجنسية

وقد عهدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الالماني إلى بعض المسؤولين عن التنظيم المؤقت لحركة السياسة الجنسية بالعمل على وضع خطوط تنظيم جماهيري. وقد انتدبت رايش للقيـــادة القومية المؤقتة ، وفي خريف ١٩٣١ انعقد المؤتمر الاول الذي أسس رابطة بلغ عدد أعضائها في فترة قصيرة ٢٠،٠٠٠ في المانيـا الغربية . وقد تبنت هذه الرابطة ، بطبيعة الحال ، الوثيقة التي رفضتها « الجمعية العالمية »

وقد جاء في هذه الوثيقة

« ان الرابطة الالمانية العاملة في سبيل سياسة جنسية بروليتارية قد أسست بهـــدف توحيد حركة الاصلاح الجنسي الالمانية التي كانت حتى الآن منقسمة وبعيدة عن السياسة ، تحت قيادة موحدة ، لملئها بمضمون ثوري طبقي ولبنائها على خلفية واعية لمبادىء السياسة الجنسية ان حركة الاصلاح الجنسي المنقسمة ما كانت تستطيع أن تعارض بفعالية الرجعية الثقافية ، وبوجه خاص الجنسية ، الآخذة في الاتساع أكثر فأكثر ولتحقيق هذا الهدف لا بد من قوة ثوريـــة منظمة ، وهذه القوة لا يمكن أن يؤلفها إلا الجمهور الموحد لجميع اولئك الذين يشكون من القمـع الجنسي مهما كان الاتجاه الحزبي الذي ينتمون اليه وإذا كان على حركتنا السياسية الجنسية أن تأخذ بعين الاعتبار الحالة الواقعية القائمة ، وإذا كانت تريد بلوغ هدفها وهو التحرر الجنسي للشعب الشغيل ، إذن فعليها أن تنطلق من التفاعل بين العناصر الأساسية لبؤس الجماهير الجنسي وبين النظام

الاجتماعي الرأسمالي السائد ، وان تقدم مطالبهـا على أساس هذا التفاعل وأن تجمّع الجمـــاهير في الكفاح ضد الرجعية الجنسية بخلقها لنفسها قاعدة تنظيمية ودعائية للعمل العملي ، وبتسييسها المسألة الجنسية بصورة ثورية كاملة »

ان الخطوط الـكبرى لهذه الوثيقة الفريدة في التاريخ السياسي – الثقافي تتناول بوجه خاص القمع والبؤس الجنسيين بوصفهما عنصرين غير قابلين للانفصال عن النظام الاقتصادي الرأسمالي ، والمظاهر الأساسية للبؤس الجنسي وارتباطها بالنظـــام الرأسمالي مسألة الاجهاض ، مسألة السكن ، مسألة الغاء ، مسألة الأمراض النفسية والانحرافات الجنسية) ، وشعارات النضـــال وهي تنتهي بهـذه العبارة « ان هذه المطالب لا يمكن أن تتحقق إلا في اطـــار النضال البروليتاري العام ضد النظام الاجتماعي الرأسمالي ! ضد الفاشية الثقافية ! ضد التبليد الديـــني والجنسي ضد الجوع والاستغلال وضغط الأحور والعقلنة الرأسمالية »

وكان رايش قد تتبع ببالغ القلق صعود الفاشية الالمانية وكانت الثوريـة اللفظية للحزب الشيوعي الالماني – والأممية الشيوعية الثالثة – ابان مـا يسمى بالمرحلة الثالثة (١٩٢٨ – ١٩٣٤ ونظريتها المشؤومـة عن الاشتراكية – الفاشية [١] ، تجعل من الاشتراكية – الديموقراطية العدو رقم ( ) وقد أدت إلى انقسام البروليتاريا الالمـــانية على نفسها بصورة قاضية ، وأدت على الصعيد العملي إلى حد اقامة جبهة واحدة مع الوطنيين – الاشتراكيين (النازيين) ضد الاشتراكيين – الديموقراطيين

وقـــد توصل رايش في عام ١٩٢٣ إلى نشر كتاب يتضمن تحليلاً لانتصار

---

(١) ستالين « الاشتراكية الديموقراطية ليستا نقيضين وانمـا هما توأمان » اذ فالاشتراكيون – الفاشيون (يعني الاشتراكيين – الديموقراطيين) هم الخصم الرئيسي للشيوعيين ابان المرحلة الثالثة .

الوطنية ــ الاشتراكية ولفشل الحزبين التقليديين الكبيرين للطبقة العاملة الالمانية : « بسيكولوجيا الفاشية الجماعية » ففصله أصدقاؤه السابقون في الحزب الشيوعي الالماني وقد أثار كتابه الذي قرىء بشره ونهم سراً وفي المهجر ثم أعيد طبعه ، هذا الحكم الغريب الصادر عن « الصحيفة الشعبية الالمانية » ٣٠ ــ ٤ ١٩٣٤) ان المقدمة تنطبق كل الانطباق على مواقف التروتسكية المضادة للثورة ورايش يبدأ بأن يلاحظ أن الطبقة العاملة الالمانية قد تعرضت لهزيمة كبرى ويزعم أن الطبقة العاملة تمر بمرحلة انحسار وهذا النفي للمنظور الثوري مطعّم بافتراءات موهة تروتسكية ضد الحزب الشيوعي. وعلى هذا فإنه عندما يكتب ان الرجعية السياسية لن تهزم بواسطة أجهزة الاحزاب البيروقراطية وانما فقط من قبل منظمات عمالية متينة في ديموقراطيتها تترك الباب مفتوحاً لكل مبادهة ومن قبل قوات مكافحة مصممة يقدم دفاعاً جنسياً للقادة الاشتراكيين ــ الفاشيين وهذه التهمة المذهلة لا تتوقف عند هذا الحد ، بل يمضي المتهمون في القول « لقد سار رايش في طريقه على نحو منطقي ومترابط فقد بدأ بتأويل ماركس عن طريق فرويد ثم حاول ان يقوم بإعادة نظر للماركسية من وجهة نظر فرويدية صريحة ، وهو يفزع الآن لنجدة الاشتراكيين ــ الفاشيين المفلسين ويبصق على الحزب الشيوعي بالطريقة التروتسكية « ولقد لفظته الحركة العاملة الثورية من صفوفها وقد سقط الآن حيث كان لا بد أن يقوده اليه مساره ، في مستنقع الثورة المضادة» والحق ان هذا القدح الفاحش له تفسيره ، إذا جاز لنا أن نقول ذلك ، إذ كانت قيادة منظمة « السياسة الجنسية » قد أدانت في المهجر في نداء لها إلى جميع أعداء الفاشية « سلوك صحافة الكومنترن عند طرد تروتسكي من فرنسا » .

التحليل النفسي على ضوء الماركسية

ان مشكلة العلاقة بين التحليل النفسي والماركسية تطرح نفسها بنفسها على بساط البحث في هـذا السياق والحق ان العلاقات بين علم النفس الفرويدي والماركسية ، بغض النظر عن كون التحليل النفسي قد أثر بعد الثورة على علم التربية السوفياتي ، قد أثارت دوماً اهتمام بعض النظريين الماركسيين وقد ظهر في الطبعة الالمانية الاولى من المجلة السياسية والثقافية المشهورة « تحت راية الماركسية » مقال ليورينتس التحليل النفسي والماركسية [1] » كما نشر رايش ، بعد رحلته إلى الاتحاد السوفياتي دراسة طويلة في المجلة نفسها تحت عنوان « المادية التاريخية والتحليل النفسي » (كملحق لكتابه « الأزمة الجنسية ») وعندما أعاد نشرها في كوبنهاغن في عام ١٩٣٤ أضاف إليها مقالاً حدالياً ضد سابير [2] تحت عنوان « حول تطبيق التحليل النفسي على البحث العلمي »

وقد كتب يقول

« ان التطبيق ، الواعي أو اللاواعي للمادية الجدلية في ميدان علم النفس ... يقود إلى علم نفس اجتماعي ماركسي في حين ان تطبيق منهج التحليل النفسي على المشكلات السوسيولوجية والسياسية سؤدي إلى علم اجتماع ميتافيزيقي ، بل رجعي »

---

(١) في عام ١٩٢٥ لم يكن يورينتس مع الأسف مطلعاً بما فيه الكفاية على حركة التحليل النفسي الواقعية ونظرياتها ، وهذه ظاهرة غالبة ملحوظة لدى نقاد الفرويدية الماركسيين

(٢) في تلك الاثناء كان سابير الذي ظهر نقده في « الأزمة الجنسية » قد « اختفى » علمياً خلال حملة تطهير ايديولوجية مشاطراً المصير استاذه ديبورين الذي كفت يده بوصفه « مثالياً » وهو ديبورين عينه رمح هجوم الماركسية « الاورثوذكسية » ، الذي كلفه ثلاثي الكرملين (زينوفييف وكامينيف وستالين) رسمياً في عام ١٩٢٣ بتنظيم مطاردة الساحرات (المثاليين) ضد كتاب لوكاش المشهور « التاريخ والوعي الطبقي »

ولقد اراد رايش أن يقدم في هذه الدراسة ، وعلى ضوء الماركسية ، مدخلاً إلى التحليل النفسي معالجته المسائل الثلاث التالية

– الأساس المادي للنظرية التحليلية النفسية

٢ الديالكتيك في الحياة النفسية

٣ – الوضع الاجتماعي للتحليل النفسي أ – ما الوقائع الاجتماعية التي ولد بفضلها التحليل النفسي ؟ ما دلالته السيوسيولوجية ؟ ب – ما وضعه في المجتمع الراهن ؟ حـ – ما مهمته بالنسبة إلى الاشتراكية ؟

ان الاهمية الاجتماعية المستقلة للتحليل النفسي يجب أن تتأكد

– بوصفه علماً مساعداً ، في اطار المادية التاريخية في الابحاث المتعلقة بما قبل تاريخ الانسان

– في علم الصحة النفسية الذي سيولد على أساس اقتصاد اشتراكي

– في التربية كأساس بسيكولوجي لتربية اشتراكية

العرقلة الستالينية للثورة الجنسية في الاتحاد السوفياتي

في عام ١٩٣٦ نشر رايش الطبعة الثانية من كراسته التي نشرها لأول مرة في عام ١٩٣٠ تحت عنوان « الجنس في المعركة الثقافية » وبعد أن رد في المقدمة على مترجمه إلى الفرنسية وناقده الستاليني سابير ، عالج في القسم الاول من الكتاب « إخفاق الاخلاق الجنسية » ، وفي القسم الثاني « إعادة البناء الاشتراكي للانسان » ، وأعطى رأيه ، كل رأيه ، بصدد ما يجري في ميدان الأعراف الجنسية : « ان أشياء كثيرة لم تعد صحيحة بعد ان كانت كذلك

بالأمس وفي اطـار عودة عامة إلى مبادىء النظام الاجتماعي الاستبدادية انتفى أيضاً كل ما كانت الثورة الجنسية السوفياتية قد حققته »

ويحلل رايش بالتفصيل النضال في سبيل « حيـاة جديدة » في سبيل ثورة ثقافية أصيلة يخوضه الشباب بوجه خاص ويعالج بالتفصيل ثورة الاخلاق التي تلت ثورة اوكتوبر وجاء تحليله لانحلال العائلة معتمداً على المادة التي قدمهـا تروتسكي في كتابه « مسائل الحياة اليومية » ، الشيء الذي لا يستطيع في جو محاكمـات موسكو التي كانت قد بدأت ، إلا أن يعمق الهوة الفاصلة بينه وبين الستالينية ويروى بالتفصيل قصـ العرقلة البيروقراطيـة للثورة الجنسية

الانعطاف نحو البيولوجيا والتخلي عن الماركسية الاورثوذكسية

بدءاً من عام ١٩٣٦ أخذ رايش يشيح أكثر فأكثر عن علم نفس الاعماق ليتجه نحو تصور بيولوجي أولاً ، ثم بيولوجي — فيزيائي

وفي الوقت نفسه بدأ يتأثر هو وتلامذته بمفهوم « ديموقراطية العمل الذي يريد أن يمضي مباشرة بدون انعطاف سياسي ، نحـو النضال في سبيل الديموقراطية الواقعية في ميدان العلاقات الصناعية وفي الطبعة الانكليزية من « عـلم نفس الفاشية الجماعي ١٩٤٦) يعارض رايش في الفصل الأخير — المستحدث بالنسبة إلى الطبعة الالمانية — السياسة بديموقراطية العمل والمؤسف حقاً انه ليس الماركسي الوحيد الذي تقهقر في أواخر حياته نحو نوع من النزعة الفوضوية ولم يجـد مؤرخ — وعالم جنس في حينه — تعتبر بعض مؤلفاته من كلاسيكيات الماركسية الثورية ، لم يجد في المقال الذي كتبه بمناسبة وفاة رايش من نعت يصف به هذا المارد سوى انه دجال

ومهما يكن من امر المرحلة الاخيرة من حيـــاته تبقى هناك المرحلتان السابقتان اللتان كان فيهما وفياً لوعده. وكما أن التراث الفرويدي يخص اليوم بلا جدال تراث الانسانية الثقافي كذلك فإن الاقتصاد الجنسي والمذهب الانساني الرايشي يبقى وسيبقى تطويراً رائعاً للماركسية الثورية ونقداً جذرياً لحـــالة الأمور القائمة .

نقلاً عن مجلة « افصار »

مقتطفات من ولهلم رايش

بيان

يتعالى صريخ الرجعية السياسية في شتى المعسكرات مؤكدة بالإجماع أن الثقافة زينة المجتمع وان حمايتها واجب ومع ذلك فان ما تدافع عنه بصورة صوفية وبجهير صوتها ، تنفيه عملياً وبالمقابل فان الثورة الاجتماعية تريد أن تؤكد عملياً الحياة وان تخلق لذلك جميع المقدمات الاقتصادية الضرورية

ان حاجات البشر في ظل الرأسمالية تكون في خدمة الاقتصاد الفوضوي للمصلحة الرأسمالية والاشتراكية الثورية الأممية تبذل قصارى جهدها لقلب العلامة ان الاقتصاد يجب أن يوضع بصورة مخططة في خدمة التلبية الانسانية للحاجات

في ظل الرأسمالية تعيش غالبية سكان العالم في بؤس واقعي وفي تلبية وهمية. والاشتراكية تهدف إلى تحقيق اقتصاد يستبدل التلبية الوهمية والبؤس الواقعي بالتلبية الشاملة للحياة الواقعية وشعارها هو ضمان سعادة الحياة على الارض.

في ظل الرأسمالية تكون الجماهير لعبة العمليات الاقتصادية الغاشمة والدبلوماسيين المكيدين للمكائد والمستغلين لهذا الاقتصاد والمضرمين نيران الحروب عندما تفرغ جعبة فنهم الدبلوماسي ومع ذلك ما سر المصاعب

الكأداء التي تحول دون ادراك جماهير سكان العالم لفكرة اقتصاد مخطط وحياة عقلانية ؟ لمَ حققت الرجعية السياسية ، بعد تلك الأزمة الاقتصادية المديدة بما فيه الكفاية ، تقدماً هائلاً

ان الجماهير الواسعة لا تفهم شيئاً مما يجري حولها ولا تأبه له. وهي لا تعرف غير بؤسها الجسماني والنفسي ، لكنها لا تعرف أسبابه الموضوعيـة ويتضح أن الاضطهاد المادي والثقافي للحياة قد رسخ جذوره في جماهير المضطَهدين أنفسهم ، إما في شكلٍ سلبيةٍ وإما في شكل مواقف سياسية تناقض مصالحهم الواقعية. ويتضح أن البنية البشرية مستعدة لكل سلطة وخائفة من الحياة التي في ودهـا تحقيقها والحركة الثورية لم تفسر حتى الآن للجماهير ما تعنيه الحرية عينيـاً والالتباس القائم بصدد العلاقات بين الطبيعة والثقافة ، بين الغريزة والاخلاق بين الجنس والعمل ، يساهم بالتأكيد أكثر من أي شيء آخر في النفي المأساوي للحيـــاة في صفوف الجماهير الواسعة من سكان العالم والخوف من « الفوضى الاخلاقية في حـالة حدوث انقلاب اجتماعي في العلاقات القائمة لا يسيطر على الرجعية السياسية وقيادتها فحسب بـــل أيضاً على فئات واسعة من القيادة الاشتراكية ، وذلك بقدر ما تكون الجماهير مسممة بالأخلاق النافية للحياة

ولا يمكن أن يتعدى قصدنا ، في الوقت الراهن ، المساهمة في توضيح تناقض غير قابل للحل ظاهريـــاً ، ولكنه قابل له واقعياً ان التناقض بين الغريزة والثقافة ، بين الحياة الجنسية والعمل ، ما يزال قائماً اليوم والواقـع أن القمع الاخلاقي المستبد للحيـــاة قد زود الشر بغرائز لااجتماعية خطرة وإذا كان الجوع قد انتج السرقة ، فان التنسك الحديث قد ولد العنف الجنسي وعلى هذا ، فان هناك أسباباً تفسر خوف الفوضى لكننا ننسى في الواقع أن تعفن ودمار الجنسية البشرية الطبيعية لها أصل محدد وأن هذا الأصل هو الذي ولد الفوضى منذ زمن بعيد. اننا نعتبر ما يصدر عن الشر الراهنين في حياتهم العائلية وفي الحرب ، ومن لصوصية وجرائم « استعدادات » طبيعية ، وراثية فيهم

ونستنتج من ذلك أن ضرورة التنظيم واللحم الجنسي تنشق طبيعاً عن مصلحة التلاحم الاجتماعي ، وان الثقافة الانسانية ستتداعى إذا ألغينا النظام الاخلاقي الاستبدادي

اننا لم نر ، بالرغم من أن الحياة تبرهن على ذلك في كل لحظة ان نواة الصيرورة الثقافية هي صيرورة البشر الجنسية تماماً كما أن أساس الصيرورتين هو الانتاج الاقتصادي ان تفكيراً ثورياً بصدد الثقافة لا يمكن أن يقبل بالثقافة الراهنة ولا أن يحامي عنها كما انه لا يستطيع ان يقبل لا بالأخلاق الاكراهية الاستبدادية ولا بقمع الغرائز ان عليه أن يحل التناقض بين الطبيعة والثقافة بين الغريزة والاخلاق ، وان يحقق وحدة هذين المجالين ويتوجب عليه بادىء ذي بدء أن يتعلم كيف يميز بين ما هو مطلب حيوي طبيعي وبين ما هو اندفاع معاد للمجتمع وغريزة لااجتماعية ولدتها الاخلاق إن المسألة الثقافية لا يمكن أن تحل إذا لم نتصور نواتها ، نمط حياة البشر الجنسية ، عقلانياً ، ونؤكد مبدأها اللذة

أن الحركة الثقافية للاشتراكية قد أخفقت حتى الآن لكونها آمنت ، شأنها شأن النزعة المحافظة ، بالتعارض المطلق بين الثقافة والجنس ، ولم تجرؤ على التطرق عينياً إلى وحش الفوضى الاخلاقية المنذرة بالانفجار. ان ثقافة اشتراكية لا تستطيع أبداً ان تقف موقف المعارضة من الحياة الواقعية لا تستطيع إلا أن تكون أجمل زينة للحياة وعلى سبيل الايضاح

ما الفوضى الجنسية ؟

— الاستنجاد في الفراش الزوجي بقانون « الواجب الزوجي »

— عقد صلة جنسية لمدى الحياة بدون معرفة جنسية مسبقة بالشريك

— مضاجعة فتاة بروليتارية لأنها « لا تساوي أكثر من ذلك » وعدم طلب « شيء كهذا » في الوقت نفسه من فتاة « لائقة »

– قضاء المرء حياته في التهتك والمغاء الخسيس ، أو انتظار ليلة الزفاف » بعد طول تعفف »

اعتبار القوة الرجولية في ذروتها لحظة إزالة البكارة

– أن يداعب الانسان وهو في الرابعة عشرة في مخيلته من الأعلى إلى الأسفل كل صورة لامرأة نصف عـــارية ، ثم أن يناضل وهو في العشرين من العمر باعتباره فرداً ملتزماً بالعقيدة القومية من أجل « طهارة المرأة وشرفها »

– جعل وجود الشاذين ممكناً وتلقين أخيلتهم الدنسة لعشرات الألوف من الشباب

– معاقبة الشبان بجنحة الإشباع الذاتي للغريزة الجنسية وإيهام المراهقين انهم يخسرون بالقذف كمية من النخاع الشوكي

– السماح بصناعة الخلاعة

– إثارة المراهقين بأفلام ايروسية ، واستدرار الأرباح منهـــا ، ونهيهم في الوقت نفسه عن الحب الطبيعي والتلبية الجنسية باسم الثقافة الرفيعة

ما ليس بالفوضى الجنسية

الرغبة عن طريق الحب المتبادل في الاستسلام المتبادل دونما اعتبـــار للقوانين المقررة والتعليمات الاخلاقية

– تحرير الاطفال والمراهقين من مشاعر الإثم الجنسي وتركهم يعيشون تبعاً لصبوات سنهم

– عدم الزواج أو عدم الارتباط الدائم بدون معرفة الشريك معرفة دقيقة على صعيد الجنس

– عدم إنجاب الاطفال إلا إذا وجدت الرغبة فيهم وإلا إذا توفرت امكانية تربيتهم

– عدم قتل الشريك بدافع الغيرة

– عدم اقامة المرء صلات مع الغرباء ، وإنما مع صديقات من بيئته نفسها

– عدم فعل الحب تحت القناطر كما يفعل مراهقو مجتمعنا ، وإنما الرغبة في فعله في غرف نظيفة ودونما إزعاجات

– أخيراً عدم الإبقاء على زواج تعيس ومرهق بحجة الوازع الاخلاقي

الخ الخ...

ان الثورة الثقافية لن تكتف والحركة الثورية لن تنتصر ما لم تحل هذه المسائل

بيان ظهر في مجلة « السياسة الجنسية » في عام ١٩٣٦

الجنس في المعركة الثقافية

في اوكتوبر ١٩٣٥ حث ثلاثمئة من أشهر الأطباء النفسانيين العالم على التفكير. ففي ذلك الحين كانت ايطاليا قد شنت هجماتها الاولى على الحبشة وقد صرع الألوف من الكائنات الانسانية ، بينهم شيوخ ونساء وأطفال ، من اللحظات الاولى دون ان تتاح لهم امكانية الدفاع عن النفس وقد أمكننا أن نتصور الأبعاد التي سيأخذها القتل الجماعي في حالة نشوب حرب عالمية جديدة

أن تكون أمة جائعة في غالبيتها مثل ايطاليا قد ردت ، فيما عدا بعض الاستثناءات ، بحماسة كبيرة وبدون تردد أو تمرد ، على نداء الحرب ، فهذا بالتأكيد شيء منتظر ، ولكنه عصي على الفهم انه يعزز الانطباع العام بأن العالم لا يحكمه هنا وهناك أناس يستطيع الاطباء النفسانيون ان يتعرفوا لديهم على امارات المرض العقلي فحسب ، بل ايضاً بأن سكان جميع القارات هم في الواقع

مرضى نفسيون ، إذ أن ردود فعلهم الفكرية غير سوية ومتناقضة مع أمنياتهم الذاتية وطاقاتهم الواقعية انها لعلامة من علامات رد الفعل النفسي غير السوي أن يكون المرء جائعاً في خضم الوفرة ، أن يكون معرضاً للبرد والمطر بالرغم من وجود كمية وافية من الفحم وآلات البناء وبالرغم من ملايين الكيلومترات المربعة من الارض الشاغرة الخ ، أن يؤمن بأن قوة علوية لها لحية بيضاء طويلة تسوس كل شيء وبأنه خاضع لهذه القوة حتى في الموت والهلاك ، أن يتحمس لذبح بشر لم يفعلوا شيئاً لأحد قط وان يعتقد أن من الواجب غزو بلد لم يسمع به أحد قط ، ان يذهب بنفسه في أسماله وان يشعر بأنه ممثل عظمة الأمة » التي ينتمي اليهـــا ، ان يريد المجتمع اللاطبقي وان يخلط بينه وبين « وحدة الشعب » وصيادي الربح ، أن ينسى ما كان يعد به رئيس الدولة قبل أن يصبح دليل الأمة ، أن يهب أفراداً معينين ، او حتى رجال دولة ، سلطة عظمى على حياته ومصيره الشخصيين ، ألا يكون قادراً على التفكير بأن حتى اولئك الذين يسمون ربابنة الدولة والاقتصاد ينـــامون ويأكلون ويشكون من اضطرابات جنسية ويقضون حاجاتهم وتهيمن عليهم دوافع لاشعورية ، لا رقابة عليهـــا ، شأنهم شأن كل فـــانٍ على هذه الارض ، ان يعتبر المعاملة السيئة المفروضة على الاطفال لخدمة « الثقافة » شيئاً طبيعياً تماماً ، ان يحرم شاناً في زهرة العمر من سعادة الاتحاد في الحب والقائمة لا نهاية لها

لقد كان نداء الاطباء النفسانيين الثلاثة عملاً ، تسييساً رسمياً لهذا العلم الذي كان حتى الآن غريباً على العـــالم ومتجرداً من الطابع السياسي على حد ما هو مزعوم لكن هذا العمل كان ناقصاً فهو لم يوغل حتى جذور الوقائع الـــتي عرضها اصلاً بوضوح لم ينتقل من مسألة المرض العقلي الشائع بوجه عام بين البشر المعاصرين إلى واقعه لم يتساءل عن سبب استعداد الجماهير المتجاوز لكل حد للتضحية بنفسها لصالح بعض أرباب صناعة التسلح لم يدرك التعارض بين تلبية حقيقية للحاجات وبين تلبية وهمية في هذيان النزعة القومية القريب كل القرب

من حالات الوجد التي يعيش فيها النشر عندما تستثار عصبيتهم الدينية ولقد كانت نتيجة بؤس الجماهير وجوعها في عصر تقدم انتاجية الاقتصاد ، تعزيز الجوع وإفقار الجماهير بدلاً من أن تكون تعزيز اقتصاد الحياة العقلاني والمخطط أي الاشتراكية والمشكلة ليست بسيكولوجيا رجال الدولة ، وإنما بسيكولوجيا الجماهير

إن رجال الدولة المعاصرين هم أصدقاء الرأسماليين الكبار أو أشقاؤهم أو أبناء عمومتهم أصهارهم والحال ان جمهور الناس المفكرين ، المثقفين أو المتعلمين جزئياً ، لا يدرك ذلك ولا يتصرف على أساسه وهذه مشكلة لا يمكن حلها بدراسات نفسية — تشخيصية » فردية فالأمراض النفسية ، مثل اضطرابات الادراك والخنوع والعمودية والمازوخية والايمان الأعمى بزعيم ، الخ، ليست ، إذا ما ارجعت إلى أبسط صيغها ، سوى التعبير عن اختلال في انسجام الحياة النامية ، وبوجه خاص الحياة الجنسية ، في المجتمع المنقسم الى طبقات

ان التظاهرات الخشنة للمرضى العقليين ليست سوى تشويهات فظةوترجمات موسعة للسلوك الصوفي والغيبي سلوك الناس الذين يريدون منع الحروب بالصلوات وملاجىء المجانين في العالم لا تهتم بالحياة الجنسية أكثر من اهتمامها بالسياسة وفصل الجنس لم يكتب بعد في العلم الرسمي ومع ذلك لم يعد في وسعنا أن نشك اليوم في أن بعض ردود الفعل النفسية غير السوية تنشأ عن الاتجاه المرضي للطاقة الجنسية غير المشبعة

وهكذا نضع أصبعنا على جذر تسمم الجماهير النفسي عندما نتطرق الى مسألة النظام الاجتماعي لحياة البشر الجنسية

ان الطاقة الجنسية هي الطاقة البناءة للجهاز النفسي ، وهي التي تشكل بنية البشر العاطفية والفكرية والجنس (وبتعبير فيزيولوجي الوظيفة الجنسية) هو الطاقة الحيوية المنتجة بالذات وقمعها لا يؤدي إلى الاختلال على الصعيد الطبي فحسب ، بل ايضاً ، وبصورة أعم ، إلى اختلال الوظائف الحيوية

الاساسية . ونحن نجد أكمل تعبير عن هـذا الاختلال من وجهة النظر الاجتماعية في سلوك البشر اللاعقلاني ، في جنونهم وتصوفهم وقسوتهم بالحرب ، الخ وينجم عن ذلك أن السياسة الجنسية يجب أن تنطلق من هذا السؤال لماذا تقمع حياة البشر الجبيبة

الحياة الجنسية والاقتصاد

لنحاول أن نعرض باختصار الصورة التي يتصوّر بها الاقتصاد الجنسي العلاقة بين حياة البشر النفسية وحالة المجتمع الاقتصادية ان المجتمع هو الذي يكيف الحاجـات الانسانية ، ويحولها ، وبوجه خاص يقمعها هكذا تولد بنية البشر النفسية فهي ليست بالفطرية ، وانمـا تتطور لدى كل عضو فرد من أعضاء المجتمع إبان المعركة الدائمة بين الحاجة والمجتمع وليس للغرائز بنية فطريـة وانما يتم اكتساب هذه البنية اثناء السنوات الاولى من الحياة وما هو فطري هو فقط قـدر معين من الطاقة النامية وتحت تـأثير المجتمع الطبقي تولد بنيـة « الذات » ، الطبيعة والمتمردة في آن واحد المجتمع اللاطبقي يريد الناس أحراراً ، إذن فليس عليه أن يعـلم كيف تتكون بنية الانسان البورجوازي فحسب ، إنما عليه أيضاً أن يعقل الكيفيـة التي يريد بها تكوين بنية البشر والقوى التي عليه أن يستخدمها في سبيل ذلك

ان نواة علم النفس العملي والسياسي هي السياسة الجنسية ، ذلك أن عمل النفس هو الوظيفة الجنسية وهذا ما قد أثبته من زمن طابع الآداب والانتاج السينمائي ، إذ أن ٩٠ ٪ من الروايات كافة ومن كل الشعر الغنائي و٩٩ ٪ من جميع الافلام والتمثيليات الخ ، عبارة عن انتاج للحاجات الجنسية

ان الحاجات البيولوجية من غـذاء ولذة جنسية تؤسس بالنسبة إلى البشر الضرورة العـامة ، ضرورة التجمع الاجتماعي و « علاقات الانتاج » التي تولد على هذا النحو تشوه الحاجات الأساسية ولكن من دون أن تقتلها ، وتخلق بدءاً

منهـا متطلبات جديدة والمتطلبات الانسانية المشوهة والمولودة حديثاً تحدد بدورها سياق الانتاج ووسائل الانتاج (الأدوات والآلات) وتحدد في الوقت نفسه تطور العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين البشر وعلى أساس علاقـات الانتاج هذه بين البشر تتطور تصورات محددة عن الحياة والاخلاق والفلسفة الخ. وهذه التصورات تتناسب بصورة وسيطة مع الحالة العامة للتقنية ، وبالتالي مع القدرة الآنية على الإمساك بالوجود والسيطرة عليه والايديولوجيا الاجتماعية ، المولودة على هذا النحو تحدد بدورها بنية البشر وتصبح بالتالي قوة ماديـة وتحافظ على نفسها في بنية البشر . ويمسي كل الباقي مرتبطاً مذذاك فصاعداً بهذا الاختيـــار الثنائي الحد إما أن يساهم مجمل المجتمع في إنشاء الايديولوجيا الاجتماعية ، وإما أن تفعل ذلك أقلية منه فإذا كانت الأقلية هي التي تتمتع بالقوة السياسية ، تمتعت أيضاً وتحكمت في هذه الحالة بطابع ومضمون الانتـاج الايديولوجي العـــام وتكوين البنى ولهذا يرتبط فـكر البشر ، في المجتمع الطبقي بمصالح أقوياء السياسة والاقتصاد وعلى العكس من ذلك يفترض في الايديولوجيا الاجتماعية المصاغة في مجتمع لاطبقي تنعدم فيه مصالح قوة أقليـة ما ، أن تتحاوب مع المصالح الحيوية لأعضاء المجتمع كافة

حتى اليوم كنا لا نرى في الايديولوجيا الاجتماعية سوى مجموعة من التصورات الـــتي تتكون ، فيما فوق الصيرورة الاقتصادية « في رأس البشر » وبعد انتصار الرجعية السياسية في المانيا في أوج الأزمة ، وبعد التعاليم المستخلصة من سلوك الجماهير اللاعقلاني ، ما عاد في الامكان اعتبار الايديولوجيا مجرد انعكاس بسيط فما أن تسيطر ايديولوجيا ما على بنية البشر وتشرع في تكييفها ، حتى تصبـح قوة مـــادية ، سياسية ويستحيل أن نرى أي صيرورة اجتماعية — اقتصادية ذات أهمية تاريخية لا تكون مترسخة الجذور في بنية الجماهير النفسية ولا تتجلى من خـــلال سلوك هذه الجماهير فليس هناك وجود لـ « تطور قوى منتجة في ذاته » ، وانما هناك تطور أو لجم لبنية البشر ، لعاطفتهم وفكرهم ،

تطور أو لجم قائمـــان على أساس صيرورات اقتصادية واجتماعية والصيرورة الاقتصادية ، أي تطور الآلات ، مماثلة في الهوية وظيفياً لتطور بنية البشر الذين يخلقون تلك الصيرورة ، يدفعون بها أو يعرقلونها ، والذين يتأثرون بهـــا إن اقتصاداً بـــلا بنية فاعلة للغرائز الانسانية هو اقتصاد مستحيل التصور ، كما يستحيل بالمقابل أن نتصور أن يشعر البشر ويفكروا ويفعلوا بـــلا أساس ولا نتائج اقتصادية وإذا مـــا فصلنا بين المظهرين ، انتهينا إلى تصورين سطحيين ومشتطين : من جهة أولى النزعة النفسية (قوى الروح البشرية هي وحدها التي تصنع التاريخ) ، ومن الجهة الاخرى النزعة الاقتصادية (التقنية هي وحدهـا التي تصنع التاريـخ) والحق انه من الأفضل أن نقلل الكلام عن الديالكتيك وأن نولي المزيد من الاهتمام لعلاقـــات التبادل الحية بين المجموعات الانسانية والطبيعة والآلات فهذه العلاقات تشكل ، بوصفها وظيفة ، وحدة ، وهي في الوقت نفسه مشروط بعضها ببعض ومع ذلك لن ننجح في السيطرة عملياً على الصيرورة الثقافية الراهنة ، إذا كنـــا لا نريد أن نفهم أن البنية العقلية هي في نواتهـــا بنية جنسية وأن الصيرورة الثقافية هي في جوهرها صيرورة حاجات جنسية تتطور على أساس حفظ الحياة

ان حياة البشر الجنسية ، الصغيرة ، البائسة ، التي يزعم انهـــا متحررة من الصفة السياسية ، يجب أن تُستكشف وأن تتم السيطرة عليها جوهرياً من خلال صلتها بالمسائل التي يطرحها المجتمع الطبقي . والواقع ان السياسة العليا لا تجري في مآدب الدبلوماسيين،وإنما في تلك الحياة الصغرى. وعلى هذا فإننا لا نستطيع بعد الآن أن نرجىء تسييس ما يسمى بحياة البشر الشخصية ولو فهم ســكان الارض البالغ تعدادهم ١٨٠٠ مليون نسمة نشاط مئة دبلوماسي قيادي ، لسار كل شيء على أفضل ما يرام ، فلا يعود المجتمع يُوجه ولا تعود تلبيـــة الحاجات الانسانية تُسوى وفقـــاً لمصالح التسلح أو بنود جدول الاعمال لكن هؤلاء الألف والثمانمئة مليون انسان لن يستطيعوا أن يكونوا سادة مصيرهم ما لم يعوا

حياتهم الشخصية الخاصة المتواضعة والقوى الداخلية التي تمنعهم من ذلك تسمى الاخلاق الجنسية والدين

ان نظـام الرأسمالية الاقتصادي قد عدل تعديلاً كبيراً البنية الانسانية في السنوات المئتين الاخيرة. لكن هذا التعديل ضعيف الأهمية إذا قورن بالتخريب الواسع الذي عرفته الانسانية منذ أن بدأ في التاريخ قبل آلاف السنين قمع الحياة الطبيعية ، وفي المقـام الاول الحياة الجنسية ان استعباداً مضت عليه آلاف السنين لحياة الغرائز قد خلق اولاً ميداناً لعلم نفس الجماهير : خوف من السلطة ، عبوديـة ، تواضع لا يصدق من جهة اولى ، ومن الجهـة الثانية فظاظة سادية وصوفية وتلبية وهمية وعلى هذا الأساس امكن لاقتصاد الربح أن يقوم ويستمر طوال مئتي عام لكننا لا ننسى أن صيرورات اجتماعية واقتصادية هي التي أحدثت ، قبـل ألوف السنين ، هذا التعديل في البنية الانسانية اذن فلم تعد المشكلة اليوم مشكلة استخدام الآلات الذي بدأ منذ قرنين من الزمن ، وإنما هي مشكلة بنية انسانية لها من العمر حوالي ٦٠٠٠ سنة اثبتت حتى الآن عجزها عن وضع الآلات في خدمتها ومهما يكن اكتشاف قوانين المجتمع الرأسمالي عظيماً وثورياً ، إلا انه لا يكفي وحده لحل مشـكلة استرقاق الانسان لنفسه وإذلاله اياها يقيناً ، في كل مكان من العالم تناضل مجموعات انسانية ، فئات من الطبقات المضطهدة من أجل « الخبز والحرية » ، لكن الجل الأعظم من الجماهير يتنحى جانباً ، ويصلي أو يناضل في سبيل الحرية إلى جانب مضطهـديه أما أن هذه الجماهير تشكو من ضنك لا مثيل له ، فهذا ما تتعلمه بنفسها يومياً ، في كل ساعة ، على حسابها وأما ان هناك رغبة في منحها الخبز وحده ، لا سائر متع الحياة ، فهذا مما يعزز تواضعها أما ما الحرية في الواقع ، وما يمكن ان تكونه أو ما ستكونه ، فهذا ما لم يُبين حتى الآن للجماهير بصورة مفهومة وعينية ، كما لم توضح لها امكانيات سعادة عامة في الحياة وحيثما بذلت محاولات في هـذا الاتجـاه بهدف اكتساب الجماهير ، لا تُظهر لها سوى التلبيات البائسة ، غـير

الصحية ، المُفْسَدة بشعور الاثم ، التي توفرها علب الليل وأماكن اللهو لصغار البورجوازيين والحال ان نواة الحياة السعيدة هي السعادة الجنسية لكن هذا موضوع لا يجرؤ أي سياسي صاحب نفوذ على التطرق اليه إذ أن الرأي العام كان وما يزال يعتقد بأن الجنس قضية خاصة لا دخل لها بالسياسة والرجعية السياسية لا ترى غير هذا الرأي

الفرويدية – الماركسية والماركسية

ان مترجم كتاب « الازمة الجنسية » باريس ١٩٣٤ يعارض الماركسية بالفرويدية – الماركسية ويؤكد ان المنهج التحليلي النفسي النوعي يشوه الرأي الماركسي ويقول «إن الازمة الجنسية لدى رايش ليست في المقام الاول نتيجة التناقض بين الاخلاق والعلاقات الرأسمالية الآفلة من جهة اولى ، وبين العلاقات الاجتماعية الجديدة والاخلاق البروليتارية الجديدة من الجهة الثانية ، وإنما هي نتيجة التناقض بين الحاجات الجنسية الطبيعية الخالدة وبين نظام الرأسمالية الاجتماعي »

ان مثل هذه الاعتراضات خصبة وغنية بالتعاليم ويؤدي دحضها عادة إلى توضيح وتوسيع للفكرة الأولية

ان الناقد يعارض هنا الصراع بين الحاجة والمجتمع بالصراع بين الطبقات بيد أن هذين الصراعين قابلان للتفسير انطلاقاً من صراع واحد وليس من حقنا ان نقيم التعارض بينهما وصحيح ان الازمة الجنسية ، منظوراً اليها موضوعياً من الزاوية الطبقية ، هي تعبير عن التناقض بين الأفول الرأسمالي والصعود البروليتاري لكن صحيح ايضاً انها تعبير عن التناقض بين الحاجة الجنسية والمجتمع الرأسمالي فما السبيل إلى التوفيق بين هاتين الحقيقتين؟ ببساطة كبيرة، وإذا لم يكن الناقد قد وجد بنفسه الحل ، فهذا لأن التمييز الدقيق بين الجانب الذاتي والجانب الموضوعي من الحدث الاجتماعي ليس بشائع بالرغم من انه بديهي:

فالأزمة الجنسية هي موضوعياً مظهر للتعارض بين الطبقات ولكن كيف يتحلى هذا التناحر ذاتياً ؟ ماذا تعني الاخلاق البروليتارية الجديدة ؟ ان الاخلاق الطبقية الرأسمالية هي التي تعارض الجنس، ومنها تولد التناقض والبؤس. والحركة البروليتارية تتجاوز هذا التناقض ، بأيديولوجيا مشجعة لتلبية الحاجات الجنسية اولاً ، ثم بتثبيت هذه الايديولوجيا في تشريع وتنظيم جديد للحياة الجنسية اذن فالشيئان لا ينفصلان من جهة اولى الرأسمالية وقمع الجنس في المجتمع ، ومن الجهة الثانية الاخلاق » البروليتارية وتلبية الحاجات الجنسية وعندما نتكلم عن اخلاقية بروليتارية جديدة فاننا لا نكون قد قلنا شيئاً البتة فهذه الاخلاق الجديدة لا تكتسب قوامها العيني إلا من مضمون التلبية العقلانية للحاجات ، وهذا ليس في ميدان الجنس وحده وإذا لم تقر الايديولوجيا البروليتارية بأنه ههنا يكمن - فيما يكمن فيه — قوامها العيني ، فإنها لا تستطيع الكلام عن اخلاقية جديدة ، وستظل في الواقع حبيسة الوقائع الماضية والايديولوجيا والواقع السوفياتيان يعلماننا الشيء الكثير بصدد هذا التناقض فالأخلاق الجديدة هي على وجه التحديد اتاحة المجال للاستغناء عن التنظيم ولتسوية الحياة الاجتماعية بصورة آلية ففي حالة السرقة على سبيل المثال ، والاخلاق المعارضة لها ، يكون الأمر واضحاً ، بل مطبقاً عملياً فمن لا يتضور جوعاً لا يحتاج البتة إلى السرقة ولا يحتاج بالتالي إلى اخلاق تنهاه عنها. والقانون الاساسي نفسه ينطبق على الجنس فمن تكن حاجاته مشبعة لايغتصب ولا تكن به حاجة إلى اخلاق لنهيه عن ذلك وما نسميه بالأخلاق الجنسية إنما هو « التنسيق الاقتصادي للحياة الجنسية الذي يحل محل التنظيم المعياري »

ولقد حاولت الشيوعية حتى الآن ، بنتيجة اللايقين بصدد قوانين الجنس ، أن تحتفظ بشكل الاخلاق البورجوازية مع تعديل مضمونها وهكذا ولدت في الاتحاد السوفياتي « اخلاق جديدة » بدوع ما حلت محل القديمة وان هذا لنظام سيء فكما أن الدولة لا تستطيع ان تعدل شكلها وحده باستثناء مرحلة دكتاتورية البروليتاريا الانتقالية) وإنما « تنطفىء » تماماً (لينين) ،

كذلك فإن الاخلاق لا يمكن ان تكتفي بالتعدل وإنما تنطفيء هي ايضاً

والخطأ الثاني للناقد يكمن في اعتقاده بأننا نفترض طبيعة جنسية مطلقة تدخل في نزاع مع المجتمع الرأسمالي والحق ان هذا خطأ جوهري يرتكبه التحليل النفسي الرسمي ، البورجوازي ، على سبيل المثال ، عندما يتصور الغرائز معطى بيولوجياً مطلقاً ومع ذلك، فان هذا لا دخل له بجوهر التحليل النفسي الذي هو ديالكتيكي نوعياً ، وإنما هو مرتبط بآلية المحللين الفكرية التي تكملها دوماً ، اصلاً ، اطروحات ميتافيزيقية والحال ان الغرائز تولد وتتطور وتنطفيء هي الاخرى لكن الحقبات الزمنية التي تستغرقها التعدلات البيولوجية كبيرة للغاية ، بحيث تفرض الغرائز نفسها علينا بوصفها معطيات مطلقة ، في حين انها على العكس من ذلك متقلبة ونسبية ولدراسة الصيرورات الاجتماعية العينية ، المحددة بالزمن ، يكفي أن نلاحظ الصراع بين غريزة بيولوجية معينة وبين الطريقة التي يفهمها ويعاملها بها النظام الاجتماعي ولكن هذا لا يكفي البتة لدراسة القوانين البيولوجية للتطور الجنسي المتوزعة على مدى قرون وقرون ، إذ لا بد هنا من العمل على بيان نسبية نظام الغرائز وعدم استقراره وإذا كان لا بد من أن نتصور صيرورة الافراد الحيوية على انها الشرط الأول لكل حدث اجتماعي ، يكفي أن نقر بأن الحياة توجد مع حاجاتها لكن هذه الحياة نفسها ليست بمطلقة ، فهي تولد وتتصرم تحت شكل تعاقب الاجيال ، لكنها تحافظ على نفسها غير متبدلة تحت شكل الخلايا الجنسية التي تستمر جيلاً بعد جيل ان الحياة في مجملها — إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الحقبات الزمنية الكونية — متولدة من الجماد وسوف تزول ذات يوم إذا ما صدقنا مذهب عدم استقرار مسار النجوم ، أي سوف تعود في مجملها إلى الجماد . وهذه فرضية ضرورية للفكر الديالكتيكي ولعل ما من وجهة نظر كهذه تبين مدى صَغار وتفاهة أوهام البشر عن واجبهم الروحي » و « المتسامي » ، وبالمقابل مدى سيطرة ارتباط حياتهم النامية بحياة الطبيعة كلها ويمكننا أن

نستنتج من ذلك أن الصراعات الطبقية تبدو هي الاخرى تافهة ازاء الصيرورة الكونية التي لا يشكل الانسان والمجتمع سوى جزئية صغيرة منها ويمكننا أن نقول ما أسخف ان يقتتل الناس ليضعوا حداً للطالة أو ليحملوا هتلر إلى السلطة وينظمو فيما بعد مواكب قومية بينما النجوم ما تزال مستمرة في الدوران في الأثير أليس من الأفضل ان نستمتع بالطبيعة ؟ ان مثل هذا التأويل سيكون خاطئاً لأن وجهة النظر العلمية تنطبق على وجه التحديد ضد الرجعية ومع التصور الاشتراكي للعالم فالرجعية تحاول أن تحبس الكون اللامتناهي والشعور بالطبيعة ، الذي هو انعكاس للكون لدى الانسان ، في اطار الفكرة اللامتناهية الصغر عن التنسك الجنسي والتضحية في سبيل غايات وطنية ، الشيء الذي لن تنجح فيه أبداً ، في حين أن الاشتراكية تحاول على العكس بوصفها تصوراً للعالم — أن تضع حياة الفرد والمجتمع اللامتناهية الصغر في مكانها من الإطار القوي لكل تطور الطبيعة وأن تنهي التناقض الذي أحدثه في المجتمع « تطور سيء » للطبيعة — ستة آلاف عام من الاستغلال والصوفية والقمع الجنسي — حتى ولو كان « ضرورياً » وباختصار ، انها تقف إلى جانب الجنس ضد الأخلاق الجنسية المضادة للطبيعة ، إلى جانب الاقتصاد الأممي المخطط ضد الاستغلال والحدود الشوفينية

« الدم والارض مترابطان »

ان الايديولوجيا الوطنية — الاشتراكية (النازية) تشتمل على نواة عقلانية تعطي الحركة الرجعية قوتها الكبرى ، وتترجم في العبارة التالية « الدم والارض مترابطان » وبالمقابل فان كل شيء مرتبط في الممارسة الوطنية — الاشتراكية بالقوى الاجتماعية المعارضة للسمة الاشتراكية الأساسية للحركة البروليتارية (ترابط المجتمع والطبيعة والتقنية) وهذه القوى هي انفصال الطبقات الذي لا يكفي الوهم عن وحدة الشعب لاقتلاع جذوره من العالم ، والملكية الخاصة

لوسائل الانتـاج التي لا تلغيها مجرد فكر « وحدة المجتمع » إن الايديولوجيا الوطنية ـ الاشتراكية تعبر بصورة صوفية عمـا هو النواة العقلانية للحركة الثورية الاشتراكية انعدام الطبقات ، والحياة الطبيعية وإذا لم تكن هذه الحركة قد وعت بعد تمام الوعي مضمونها الايديولوجي إلا انها تعرف بالمقابل حق المعرفة الشروط الاقتصادية والاجتماعية لتحقيق فلسفتها العقلانية تحقيق السعادة في الحياة على الأرض

وانطلاقاً من ملاحظات مكتسبة اثناء الممارسة الطبية عن الاقتصاد الجنسي، تكوّن على مر السنين نقد للشروط والآراء الجنسية المعاصرة المعروضة في هذا الكتاب والقسم الاول من الكتاب افلاس الاخلاق الجنسية البورجوازية ظهر في عـام ١٩٣٠ تحت عنوان « الازمة الجنسية وقد كملته في بعض المواضع ، لكنه لم يتعرض لتغييرات اخرى والقسم الثاني (الكفاح من أجل الحياة الجديدة في روسيا السوفياتية امكنت إضافته بفضل المادة التي تجمعت خلال عشرة أعوام وسوف يبين عرض عرقلة الثورة الجنسية السوفياتية كنت أستشهد دوماً في مؤلفاتي الاولى عن السياسة الجنسية بالاتحاد السوفياتي وفي السنوات الثلاث أو الاربع الاخيرة ، ثمة أشياء كثيرة لم تعد صحيحة بعد أن كانت كذلك في السابق . ففي إطار عودة عامة إلى مبادىء النظام الاجتماعي الاستبدادية ، ينتفي أيضاً كل ما أنجزته الثورة الجنسية السوفياتية

ان الكتاب الذي بين يدي القارىء بعيد عن أن يكون قد استوعب جميع المسائل المتعلقة بموضوعه وقدم لها الحل وما كنا لنخرج عن موضوعنا لو كنا انتقدنا هنا المذاهب الراهنة عن الأمراض العقلية ، ولو كنا تناولنا الدين بالمعالجة العميقة لكن هذا لم يكن ممكناً ، لأن المشكلة لا ينضب لها معين ، ولأن الكتاب كان سيكون صعب القراءة ان السياسة الجنسية للفاشية والكنيسة قد عولجت في كتابي « علم نفس جماهير الفاشية وهذا الكتاب ليس قاموساً للعلم الجنسي ، ولا تاريخاً للأزمة الجنسية الراهنة . وهو يقتصر عن وعي على

إظهار الصفات العامة الأساسيه للتناقضات في الحياة الجنسية المعاصرة من خلال بعض الأمثلة والتأملات حول الاقتصاد الجنسي المعروضة هنا ليست نتيجة عمل مكتبي بدون احتكاك وثيق ومديد طوال عشرات السنين مع شباب البروليتاريا والبورجوازية الصغيرة والفئات المثقفة وبدون تجارب طبية مباشرة ، ما كان في الامكان كتابة جملة واحدة من هذا الكتاب وفي ودي لو أجيب سلفاً على بعض الانتقادات ومهما يكن صراع الآراء خصباً وضرورياً ، إلا انه لا معنى له ويعد تبديراً للوقت والطاقة إذا لم يذهب النقاد شخصياً إلى أماكن الحياة الاجتماعية التي يمكن ان يوجد فيها المنسم الحي ، التجربة المباشر للعلم الجنسي الواجب أن نتغلغل في حياة الجماهير الأمية أو المزيف تعليمها ، المتألمة والمناضلة تلك الجماهير الواسعة التي يسميها الأدلاء المسعوثون من قبل الله إلى الأمم بـ « البشر الدون » واستناداً إلى تجارب عملية في المانيا والنمسا وإلى عملي العيادي تجرأت على تكوين حكم بصدد مجرى الثورة الجنسية السوفياتية من دون أن أكون قد عشت شخصياً وعلى الدوام علاقات السياسة الجنسية في الاتحاد السوفياتي ومن الممكن كل الامكان أن أكون قد سوهت هذه الواقعة أو تلك في وصفي علاقات السياسة الجنسية السوفياتية ولكن ليس المطلوب إصدار حقائق مطلقة ، وإنما كان قصدي أن أرسم جوهر الاتجاهات العامة للتطور وتناقضاته وغني عن البيان انني سآخذ بعين الاعتبار في الطبقات اللاحقة كل تصحيح لعرض الوقائع

وأخيراً ، في ودي ان أتوجه إلى أصدقائي من دوي النية الحسنة الذين ينصحونني بهجر السياسة الخطرة » وبتكريس جهودي للأعمال البيولوجية واني أريد أن أقول ما يلي ان علم الجنس ، حتى يستحق اسمه ، يجب أن يكون ملتزماً سياسياً ، وملتزماً إلى اليسار وانه لكذلك سواء شاء أم أبى فمن يستطيع ، في بيت تلتهمه النيران ، أن يكتب بخفة قلب مذكرات عن معنى الالوان لدى الجراد ؟

مقدمة « الجنس في المعركة الثقافية »

الفرويدية والماركسية

بقلم ميشيل بابلو

كثيرون هم الذين يتكلمون عن فرويد اعجاباً به أو ادانة له ، ولكن كم منهم حمّل نفسه مشقة دراسة مؤلفاته دراسة معمقة ؟ ان عددهم لا يتجاوز بالتأكيد عدد الذين يتكلمون عن الديالكتيك من غير أن تكون قد أتيحت لهم قط امكانية التعمق في منطق هيغل ، أو عدد الذين يتكلمون عن الماركسية مؤولين أو مصححين من غير أن يكونوا قد اطلعوا قط على «الرأسمال» وتمثلوه. والواقع ان مؤلفات فرويد يخيم عليها نفس الجهل ونفس الالتباس المخيمين على مؤلفات هيغل أو ماركس أو تروتسكي

ومؤكد أن تقنية التحليل النفسي « المؤمرك » تلقى رواجاً كبيراً الآن ولا سيما في الولايات المتحدة . وهذا ما يسمح للنقاد ، الذين يجهلون كل شيء عن هذا الرجل الذي كان عظيماً في أفكاره وطبعه ونبل حياته ، ان يتهموا مذهبه ، الذي يعد من أعمق المذاهب التي نجح الفكر الانساني في صياغتها ومن اكثرها اصالة ، بأنه مذهب متحذلق وسطحي ولكن هل يمكن أن ننسى أن فرويد ذاته كان أول من وضع اصبعه على أسباب « أمركة » تقنيته ، وأدان كل محاولة لتحويله إلى دواء عميم النفع شافٍ لكل الامراض ، أو للاشتطاط فيه مع تقليص مداه الزمني وتبسيطه ؟

فعندما راودت رانك فكرة تقليص امد التحليل إلى أربعة أو خمسة أشهر وتبسيطه بالتركيز على مبدأ «جرح الولادة» رأى فرويد في هذه المحاولة تكييفاً ميكانيكياً لمنهجه مع متطلبات ايقاع الحياة الاميركية المحموم وعندما اصبح فيرنزي بدوره، وهو من أقرب المتعاونين معه اليه، بطلاً من ابطال المعالجة الفعالة» لم ير فرويد في ذلك سوى «إغراء خطر للمستدئين الطموحين

ان سوء معرفة فرويد ينسحب بوجه رئيسي من الطابع المحدد والثوري لمذهبه الذي يتحدى المحرمات المقدسة (التابوات التي كرستها منذ قرون وقرون تقاليد الانسان الاجتماعية والواقع ان مذهبه يثير من وجهة نظر محددة ردود فعل لاعقلانية وغريزية وعنيفة أشد من ردود الفعل التي أثارتها الماركسية بالذات التروتسكية» في صفوف الماركسيين) حتى بين الأوساط الشيوعية، نظراً إلى أن هذا المذهب يتناول الحياة الخاصة والتكوين النفسي والعقلي لكل فرد تناولاً جذرياً، نقياً، ثورياً، غير امتثالي

لكن سوء معرفة فرويد ينسحب ايضاً من الشروط التاريخية التي تطور فيها مذهبه فهذا المذهب لم يرسخ أقدامه إلا في عشية الحرب العالمية الاولى، وإلا في أوساط عدد محدود من الاتباع والمعاونين وسرعان ما انشق بعض هؤلاء عن الاستاذ وأحاطوا بالبلبلة والتشويش موضوعاً كان ما يزال مطروحاً على بساط البحث الحاد ومجهولاً من الجمهور الواسع وتلكم هي، على سبيل المثال، حالة آدلر ويونغ وتكوين الفرويدية يمت بصلة قربى وثيقة إلى تكوين الماركسية، بما رافقه من منازعات داخلية واختلافات وانحرافات وتقدم جدلي للأفكار والحركة عبر صراع وتمايز دائبين وكما الحال بالنسبة إلى الماركسية تعكس اختلافات الفرويدية وانشقاقاتها وانحرافاتها الضغوط الاجتماعية المعادية التي تتطلع إلى تجريد المذهب الأصلي من ماهيته الثورية. وليس من قبيل الصدفة أن يكون آدلر قد قلص من أهمية الجنسية الطفولية وحتى من أهمية فكرة

اللاشعور ، وإن يكون يونغ قد أُلبس ثوب الفخار لأنـــه طهر النظريات « من اهتمامها المنبيء بالمواضيع الجنسية

ان تاريخ انتشار الفرويديه لم في الواقع إلا بعد نهـــاية الحرب العالمية الاولى ، مع قيام جمهورية ويمار ، عندما أثار مذهب فرويد اهتمام أوساط أوسع ، سيما في النمسا والمانيـــا وسويسر والولايات المتحـدة ولكن مع صعود الفاشية في المانيا وتوطد الستالينية في الاتحاد السوفياتي ، تعرضت الفرويدية إلى انتكاسة وهي لم تنق على قيد الحياة هنا وهناك إلا بوصفها تقنية تحليلية نفسية ، مشوهـــة على كل الاحوال في غالب الاحيان ، حتى على يد بعض ممن كانوا من اتباع فرويد ومعاونيه من الساعة الاولى ومنذ الحرب العالمة الثانية احيطت الفرويدية باهتمام جديد ، بل انها اكتشفت كمذهب مجدد في بلد يعتبر عـــادة « طليعياً » ، فرنسا

ولكن من المستبعد أن يكون هناك ، خارج دائرة محدودة جـــداً من المفكرين الفرويديين ، لا من ممارسي التحليل النفسي ، تمثل حقيقي لأفكار فرويد كما تطورت على مر الزمن من قبل عدد أكبر من النـــاس وإذا كانت الخطوط الكبرى للمذهب الفرويدي كما تمت صياغته عشية الحرب العالمية الاولى ، مثل تأويل الأحـلام ، والجنسية ، والجنسية الطفولية بوجه خاص قد باتت معروفة ، إلا اننـا ما زلنا نجهل حتى اليوم جهلاً كاملاً او جزئياً تطور افـكار فرويد وتشذبها وتقدمها الجدلي في مجموعة كاملة من الميادين والمواضيع ، بما في ذلك مذهبه الكلاسيكي نفسه في الأعوام العشرين الاخيرة من حياته المؤلمة والبطولية

فلقد كان فرويد واحداً من اولئك الرجال النادرين الذين لا يتراجعون عندمـا يشيخون ، وإنما يتقدمون باطراد في المعرفة الشمولية ، ويصبح علمهم النقدي ثورياً أكثر فأكثر .

فرويد والماركسية

لقد كان فرويد تعيس الحظ مع الماركسيين فحتى في زمن لينين بدت روسيا الثورية متحفظة أمام مذاهب فرويد ، إما لعدم الفهم وإما بدافع النزعة المحافظة البيروقراطية ، وإما تفضيلاً لمدرسة بافلوف ، وذلك باستثناء تروتسكي وحده تقريباً إذ تجرأ على قبول الفرويدية بصفتها فرضية عمل والمناقشات الأكثر حدية التي دارت حول الفرويدية من وجهة النظر الماركسية قد جرت في حوالي عام ١٩٢٨ في صفوف الماركسيين النمساويين والألمان وذلك قبل أن تعلن الستالينية الظافرة تحريم بحث الموضوع لا في الجامعات السوفياتية فحسب ، بل ايضاً في كل الأدب الماركسي الرسمي الأممي فعندما تأخذ الماركسية طابعاً رسمياً ، وتتحول من منهج للمعرفة النقدية إلى نوع من منشور بابوي وسكولائي يلقن الجماهير عبادة العمل المرهق الضروري لـ«التراكم البدائي الاشتراكي » وعبادة القيادة البيروقراطية ، ينتقل بنا التفكير بالضرورة إلى الحكم المتشائم الذي استخلصه فرويد من تجربته عن المجتمعات الطبقية « ان كل ثقافة تقوم على العمل الإجباري وعلى التخلي عن الغرائز

بيد أن فرويد نفسه ، بالرغم من نقص ثقافته الماركسية ، وبدافع غريزي، وبوصفه رائداً حقيقياً لمعرفة جديدة وأعمق بالانسان ، وبفضل روحه المستقلة والنقدية ، استطاع عندما واتته الشيخوخة ان يفهم فهماً أفضل اهمية الاجتماعي ، بل الاقتصادي ، بالنسبة إلى مذهبه ، وان يتقرب بنوع ما من الماركسية

---

(١) انظر بهذا الصدد المناقشة الشاملة التي دارت عن الماركسية والفرويدية في برلين في عام ١٩٢٨ والتي عرضتها مجلة « الفن الاشتراكي » والتي ساهم فيها كل من ولهلم رايش « المادية الديالكتيكية والتحليل النفسي » وسافير « الفرويدية وعلم الاجتماع وعلم النفس » وبيتر شميدت «عقدة اوديب ومفهوم الزواج في البولشفية» ، وبورينتز «التحليل النفسي والماركسية» ، والتي دارت على صفحات مجلة « تحت راية الماركسية »

وهكذا بدا له أن إلغاء الملكية الخاصة يقدم « مساعدة اكبر من اي وصية أخلاقية مهما يكن شأنها فيما يتعلق بسلوك الفرد مسلكاً أكثر توازناً وسعادة أخلاقية » ، ولكن من غير ان يؤمن بأن هذا الالغاء يكفي ليستنفد منبع الغريزة الشريرة العدوانية ، الفطرية والعضوية في رأيه وفي أواخر حيـــاته اعترف ، بتواضع بالغ كان يميزه ، بأن افكاره المبسطة عن الماركسية ، التي كان قد رأى فيها حتى ذلك الحين نظرية لا تعترف بدوافع « للحياة الانسانية الرائعة في تنوعها غير الدوافع النابعة من الحاجات المادية » ، ربما كانت نتيجة الجهل لا اكثر ولا اقل فقد كتب في عام ١٩٣٧ قبل سنتين من وفاته

انني اعرف ان ملاحظاتي عن الماركسية لا تدلل لا على معرفة كاملة ولا على تفهم صحيح لكتابات ماركس وانجـــلز وقد علمت مؤخراً — وبسرور بالأحرى — أن أياً منهما لم ينف تأثير افـــكار وعوامل الأنا العليا وهذا يلغي التعارض الرئيسي ، الذي كنت قـــد آمنت بوجوده ، بين الماركسية والتحليل النفسي أما فـــيما يتعلق بـ « الديالكتيك » فانه لم يتوضح لي حتى بعد رسالتك [1] »

والواقع ان علينا ان نبحث في منهج فرويد بالذات وفي تطوراته وأفكاره وتأملاته وفرضياته عن الماهية المادية ، والديالكتيكية في غالب الاحيان ، لفكره ، وعن روحه الثورية وأواصر قرباه الممكنة مع الماركسية ومؤكد انه لو كان فرويد يملك ثقافة ماركسية في موضوع الفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع ، لاستفاد عمله من ذلك كبير الفائدة

فقد كان سيكون في وسعه ، على سبيل المثال ، أن يتجنب اعتبار إلغـــاء الملكية الخاصة مجرد وسيلة لتجميد بعض الأشكال العدوانية ، وان يفهم على العكس الأهمية الفائقة التي يأخذها الطابع المتناحر جوهرياً لمجتمع طبقي قائم

---

(١) رسالته الى ر. ل. فورال في ١-٩-١٩٣٧

على الملكية الخاصة فيما يتعلق بتطور الفرد وسلوكه وصلاته المعقدة بنسقه الاجتماعية

فالماركسية ، بانطلاقها من مبدأ ، من مفهوم اقتصادي اساسي ، قادرة على الارتفاع إلى مستوى تفهم العلاقات بين الطبقات والمناخ الاجتماعي والأيديولوجيا والاخلاق والعادات والنواحي العديدة التي تحيط بالفرد وتحدق به من المهد إلى اللحد ، والتي تؤثر على استعداداته الوراثية ، والتي تكيف طفولته عليها ، لكن التي تعذبه ايضاً وتجرحه تحت ألف شكل وشكل طيلة حياته ان الماركسية وسيلة لإدراك غنى وتعقيد البناء الاجتماعي الذي تتحرك حياة الفرد النفسية والعقلية ، انطلاقاً من وقائع اقتصادية أساسية ومن وجهة النظر هذه يشكل المناخ الاجتماعي المميز للمجتمع الرأسمالي وتأثيره على الفرد مادة أشد تعقيداً مما لا يقاس من مفهوم الملكية الخاصة الرأسمالية الاقتصادي المحض

لقد كان فرويد يجهل افكار ماركس والمجز عن الاستلاب والصنمية ودور المال ، تلك القيمة العليا ، وعن الصراع الطبقي وعلم النفس الاجتماعي والاخلاق والأسرة والمرأة والزواج في المجتمع أسمالي وبالتالي كان يجهل الارتكاسات النفسية والعقلية التي يرثها الفرد ، في نظر الماركسية ، من المجتمع الطبقي ومن الرأسمالية بوجه خاص

وبالمقابل فان الماركسية ، بتمثلها وبتعميقها المنجزات العلمية للتحليلة الفرويدية ، لن تتخلف عن توسيع تصورها عن طبيعة الفرد وعن العوامل التي ينبغي أخذها بعين الاعتبار لبناء بنية جديدة للعلاقات الاجتماعية فيما يتعلق بتربية الاطفال وبالأسرة والسلوك الجنسي وبعلم التناسل الضروري لتحسين النوع الانساني ، وكذلك فيما يتعلق بالأحكام « الاخلاقية » على الافراد في حياتهم الاجتماعية .

ان مهم في أعمـــال فرويد ليس كل تعريف أو فكرة أو فرضية مصاغة لوصف وتفسير ظاهرات النفس وعملها ، وإنما المنهج والاتجاه والايحاءات ولا مجال للشك في أن تجريب والتقدم العام لعلوم الانسان سيكملان أو يعدلان في المستقبل بهذه الصورة و تلك ابحاث فرويد ، ولكن هـــذا لن يقلل البتة من الأهمية الفـائقة للمسائل التي كان هو أول من أثارها ومن جهة اخرى فان « مقولاته لا يمكن لأخذ بها كلها على انها صحيحة ونهائية ومطابقة ، وإنمـا ينبغي اعتبارها تقريبات ضرورية للإحاطة من أقرب بعد ممكن بواقع جديد وأدوات للعمل الفكري ، شأنها في ذلك شأن كل علم اصلاً والواقع ان المفاهيم والتعاريف والمقولات تستخدم لتفسير ظاهرات وصيرورات هي بطبيعتها أعقد وأغنى بمـا لا يقاس وأخيراً فان كل عمل يقوم به الفكر ليس من احد جوانبه سوى تصور تخطيطي لصيرورة الحيـــاة الواقعية وهذا لا يمنع ان نتوصل ، بفضل هذه السفسطة الذهنية ، إلى تعميق واقع جديد وإلى السيطرة عليه

ان المعض ينسى دوماً ان فرويد انطلق من تربية علمية مادية ، بـل مادية ميـكانيكية ، على طراز القرن التاسع عشر ، قـــائمة على الفيزياء والكيمياء والفيزيولوجيا المفسرة بواسطة العلمين الأولين) ، ليصل تجريبيـاً إلى تصور مادي أكثر جدلية وما أحوجنا اليوم إلى دراسة معمقة عن تطور فكره هذا وعن تقدمه نحو شكل مرن وجدلي أتاح له ان ينجز اكتشافاته الحقيقة

ان فرويد ، الذي تكوّن في مدرسة هلمهولز للفيزيولوجيا الفيزيائية ، التي كانت رائجة كل الرواج في أواسط القرن الماضي في البلدان الجرمـانية ، كان شديـد التعلق بمبدئي السببية والحتمية الكلاسيكيتين وقد بدأ حياته العلمية كمادي حذري وبقي وفياً حتى مماته للمبادىء التالية لا وجود لصيرورة نفسية مستقلة عن صيرورة فيزيولوجية وغير تابعة في الواقع منها ، والفكر لا وجود له

بدون دماغ ، أما ما يسمى بـ « الروح » فان فرويد لم يؤمن قط بوجودها ولا حتى بوجودها ولقد ظل مدة طويلة من الزمن مسحوراً بمفاهيم الفيزيولوجيا الفيزيائية كتلك التي نجدها في « مشروع لعلم نفس علمي » ، قبل ان يقرر يعبر عن نفسه بلغة بسيكولوجية صرفة وأن يعقل الطابع النوعي للواقعة البسيكولوجية وقوانينها . وبذلك يكون قد انتقل من علم الوظائف (الفيزيولوجيا إلى علم الأمراض النفسية ومن ثم إلى علم النفس الذي عرف كيف يغنيه بطريقة أصيلة وعميقة معاً

لقد صاغ فرويد تصوراً عن الانسان فالانسان في نظره يعيش ويتطور غارساً جذوره في الماضي ما قبل التاريخي وفي العالم الخارجي والمجتمع معاً وهذا التصور ، الذي هو أكمل التصورات التي وجدت قط عن الانسان قد وجد تعبيره في نظريته عن ماهية وعمل الفكر المقسوم تخطيطياً إلى مناطق مناطق اللاشعور وما قبل الشعور والأنا والأنا العليا

ومناطق اللاشعور هي أهم المناطق وأكثرها بدائية من وجهة نظر التكوين في الزمن ، وتشكل الواقع النفسي الحقيقي الذي تنبثق منه كل صيرورة عقلية وهي لا تشكل نوعاً من مستودع سكوني لأفكار بالية يكبتها الشعور ، وإنما منطقة مستقلة بذاتها ، ديناميكية ، تقيم شتى أنواع العلاقات مع الدوائر العليا من « الشعور » الأنا والأنا العليا ويشحذها باستمرار حث غريزي يتطلب إشباعاً ، وهمياً أو واقعياً ومن وجهة النظر هذه ، وفي استنتاجات فرويد النهائية ، تنبع الأنا بالذات ، التي تحتوي على جزء لاشعوري بالمعنى التام للكلمة ، تنبع تاريخياً من الإيد (id) ، أي من اللاشعور بأوسع معنى للكلمة عن طريق تراكم إدراكات متلقاة من العالم الخارجي وتنبثق أيضاً الأنا العليا ، التي هي لاشعورية جزئياً ، في التحليل الأخير من الإيد الذي تقيم معه علاقات أوثق من العلاقات التي تقيمها مع الأنا بالذات ، وتشكل النتاج العقلي الأخير للكائن الانساني الملتحم مع المجتمع و « الحضارة »

ان الكائن الانساني تشحذه بيولوجياً وحسمانياً في نظر فرويد حاجـــات حيوية تتخذ فيزيائياً شكل غرائز ويسعى نظام الانسان العصبي إلى السيطرة على تهيجها الدائب ، ان لم يكن إلى إلغائه وحذفه ، ولكن بلا جدوى على وجه العموم

ويتميز هذا المجهود بصيرورتين عقليتين ، احداهما أولية والأخرى ثانوية ، مختلفتين جوهرياً ففي الصيرورة الاوليـــة كما في الحياة الطفولية أو الأحلام يكون الإشباع ، الجزئي على الأقل ، للغرائز وللتهيج الدائب المنبثق على كينونتنا ولحاجاتها الحيوية ممكناً من دون أن تكون هناك ضرورة لأخذ الواقع الخارجي بعين الاعتبار

وفي حال الإخفاق في الوصول إلى اشباع مناسب ، يتم الانتقال إلى الصيرورة الثانوية الـــتي يكون فيها للواقع الخارجي اعتباره ، لأن الرغبة في شيء من الاشياء لا تعود كافية لتحققه كما في الاحلام وكما في خيالات الحيـــاة الطفولية ولا بد الآن من اللجوء إلى الفـــكر ، وبالاعتماد عليه وعلى معرفة العالم الخارجي من إيجاد اتجاه يمكن فيه للتهيج الغريزي أن يحصل على اشباع واقعي

وتلكم هي ايضاً ، في رأي فرويد ، الاسباب البيولوجية والنفسية التي حددت التطور التاريخي للفكر الانساني

ولست أنوي هنـــا ان أقوم بتحليل مفصل لتصورات فرويد المعروفة عن بنية العقل وعمـــله ، تلك التصورات التي تكمن فيها في الواقع أصالة نظريته وسأكتفي بالإلحاح على الملاحظات النقدية التالية ان فكرة انقسام عالمنـــا النفسي والعقلي ، فكرة انقسام «فكرنا» إلى منطقة شعورية وأخرى لا شعورية لا تعود إلى فرويد ، بل هي في الواقع سحيقة القدم لكن تحليل بنية الفكر وعمله الديناميكي يخص فرويد ، وان حكمنا على هذا التحليل هو أنه عام وتخطيطي. وهـــذا التحليل بمظاهره المادية الجدلية وبشتى مظاهره السوسيولوجية مفيد للماركسية من أكثر من جانب واحـــد والواقع النفسي والعقلي الاساسي

للانسان يتحلى لدى فرويد كمركب ديناميكي من ماضي النوع الانساني ما قبل التاريخي ومن ماضي الانسانية التاريخي ومن ماضي الفرد ما قبل التاريخي ومن التأثيرات المتلقاة باستمرار من العالم الخارجي والمجتمع. ويرى فرويد أن الانسان يأتي إلى الحياة مع حاجات ورغبات واستعدادات وطاقات ومحرمات وتابوات موروثة من ما قبل التاريخ الحيواني وشبه الحيواني للنوع وكذلك من مرحلته « الحضارية » وهو يعرف في طفولته بين عامه الاول وعامه الثالث أو الرابع حياته ما قبل التاريخية الخاصة ، اللاشعورية في جوهرها ، ولا سيما حياة السنة الاولى التي اعتبرها فرويد في أواخر حيا سراً مظلماً » ثم يغادر ببطء هذا المناخ ما قبل التاريخي واللاشعوري بالمعنـ شار اليه آنفاً ، ويتقدم نحو الحياة التاريخية والشعورية ، المتكيفة بصلاتها مع العالم الخارجي والمجتمع ، والتي تقابلها وظيفة الأنا والأنا العليا ويجمل الصيرورة هذه ليس مادياً متيناً فحسب ، بل هو ايضاً ديالكتيكي رفيع

ثم ان تصور فرويد الخاص عن الوراثة كانت له نتائج ثور غابت عن ذهنه هو نفسه جزئياً فقد كان فرويد ، من زاوية مـا ، نصير عنيداً للنظرية اللامار كية عن الوراثة مع علمه أن العلم البيولوجي الفندي المعترف به يرفض فكرة ان الصفات المكتسبة يمكن توريثها للسلالة وقـد كتب إلى ارنست جونز انني اعترف بكل تواضع أنني لا أستطيع ، بالرغم من تلك الواقعة ، أن أتصور سير التطور البيولوجي من دون أن آخـذ بعين الاعتبار هذا العامل

وقد أكد بعناد طوال حياته ان الوراثة هي بمثابة مستودع من التجارب السلفية ، وانه إذا لم يكن هناك من شيء يُكتسب ، فلا شيء يمكن أن يورث. وكان يؤمن بقوة بوراثة الصيرورات العقلية التي تعدل الجهاز العضوي بالذات في مجمله ، وهذا ما جعله يحتل مكانه ، في هذا المجال كما في المجالات الاخرى ، بين الرواد الاكثر تقدماً للتصور النفسي ـ الجسمي عن كينونتنا أسواء في تظاهراتها

السوية ام في حالاتها المرضية وهذا التصور الديالكتيكي الذي يخيل إلي انـــه كان ينبغي ان يكون بديهية مسلماً بها منذ زمن طويل، لم يقبل به الطب الرسمي بعد قبولاً تاماً ، ويوم يقبل به فانه سيتعرض إلى انقلاب جذري كالانقلاب الذي حل بعلم الامراض النفسية بعد قبوله بصحة ذلك التصور

لقد استبدل فرويد فكرة لامارك القائلة إن الحاجة تخلق الأجهزة وتعدلها بفكرة « القدرة الكلية للأفكار » ، بفكرة قدرة أفكار اللاشعور على الجسم ، مثلما تلاحظ سريرياً في حالات العصاب ، وعلى سبيل المثال الهستيريا

وفي أواخر حياته اتسع دور الوراثة في تصوراته فالانسان لا يرث من الماضي استعدادات عقلية ونفسية فحسب ، بل ايضاً « مضامين فكرية، وآثاراً من ذكريات تجارب الاجيال الماضية »

اذن فتصور الو، انـــة لدى فرويد تصور ديناميكي ، خلاق ، ثوري فهو يظهر الكائن في تطور جسمي ونفسي وعقلي دائم وكلي وهو بالتالي لا ينسجم مع نزعة تشاؤمية ملحوظة لا تنكر لدى فرويد الذي يرى الانسان وكأنه ملقى به إلى أمام ومشدود إلى الخلف من قبل الماضي في الوقت نفسه ذلك ان هـذا الماضي دائب التطور سواء من وجهة نظر تاريخ النوع أم تاريخ الفرد فكل جيل يتناقل صفات جسمية ونفسية وعقلية موروثة ، ويكتسب صفات أخرى تعدل على نحو غير محسوس الإرث السابق وكل فرد يتمدل في مجرى حياته التي تمتد من فترة مـــا قبل تاريخه الطفولي ، اللاشعوري في جوهره ، إلى نضجه ، الشيء الذي يفتح المجال لتخفيف الحتمية والاستعدادات الوراثية المسبقة

أما تشاؤم فرويد النسبي بصدد قدرة الكائن الانساني على بلوغ درجة عليـا من السعادة ، فيرجع إلى اعتبارات عضوية واجتماعية في آن واحد. فالاعتبارات العضوية تلاحظ أولاً ان نشاط الغرائز دائم ، وانـــه لا سبيل الى الغاء شحنة التوتر والتهيـــج التي يحررها هذا النشاط إلغاءً تاماً ، اللهم إلا من خلال عودة نهـــائية الى العدم ، الى الحـــالة اللاعضوية ومن جهة ثانية توصل فرويد الى

الاعتراف ، بالاضـــافة الى الغرائز الجنسية الأوليـة بوجود غرائز كراهية وعدوان رأى فيها هي الأخرى غرائز أولية دائمة الصراع مع الغرائز الجنسية ولكن يبقى السؤال المطروح على بساط البحث هو هل هذه الغرائز العدوانية أولية حقاً ، أي فطرية ومستقلة وفاعلة تلقائياً ، أم هي ثانوية أي ردود فعل على شتى أوضاع الحرمان والحظر التي تتأتى من العالم الخارجي

الانسان والحضارة

ان الاعتبارات الاجتماعية الـــتي تؤ ـي قدرة الانسان على بلوغ السعادة الكبرى قد نالت من فرويد جل اهتمامه في السنوات العشرين الأخيرة من حياته ، التي كرسها على وجه التحديد لمشكلات المتافيزيقا [1] والسوسيولوجيا فمنذ ان بـــدأ الانسان يعيش في المجتمع ، وعلى الاخص منذ مرحلته « الحضارية » تفاقم النزاع بين اشباع حاجـــات حياته الغريزية وبين التقيد ت الاخلاقية وغيرها المفروضة من قبل المجتمع تفاقماً مطرداً والأنكى كما يرى فرويد ان هـــذه التضييقات اصبحت من حيل الى حيل داخلية ، موروثة ومفروضة من قبل الكائن نفسه » ، الشيء الذي نجم عنه تطور الأنا العليا أو الأنا المثالية) الـــتي تراقب الأنا وترغمها على ان تكبت في اللاشعور أفكاراً ورغبات مدانة أو غير مقبولة اجتماعياً والتعـارض بين الحضارة وحريـــة التطور الجنسي تعارض بالغ الوضوح والدلالة وقـــد أفضى الى نتائج مفجعة بالنسبة الى حياة الرجال والنساء الجنسية التي تبدو وكأنها أصبحت وظيفة في طريقها الى الضمور ولا وجود لكائن متمدين امكن له ان يطور امكانياته كامـــل

---

(١) اي وصف الصيرورات النفسية والعقلية من وجهة نظر « ديناميكية ، طوبوغرافية اقتصادية » قادت فرويد في حوالي الاعوام ١٩٢٠ الى انشاء تصوره الكامل عن غرائز الموت، ثاناتوس ، المتصارعة مع غرائز الليبيدو إيروس

التطوير من هـــذه الزاوية ويرى فرويد أن تمجيد الوحدانية الزوجية يشل صيرورة الانتخاب الضروري ، ويشل علم التناسل الذي يرى فيه الأمل الوحيد لتحسين التكوين البشري وعبء التضييقات الاجتماعية المفروضة على الحيـاة الجنسية الحرة ثقيل الوطأة على النساء بوجه خاص ويرى فرويد أن تخلفهن الفكري يرجع إلى القواعد الاخلاقية الأشد صرامة المطبقة عليهن ، والتي تؤدي إلى وأد المواهب الفكرية المعزز بتأثير المعتقدات الدينية ولقـد كان عليه أن يضيف أن مما يزيد في تفاقم هذا الوضع إقصاء المرأة عن الحيـــاة السياسية والاجتماعية منذ غـــابر الأزمان ، والتقلد الذي يصيبها بفعل انحصار نشاطها بالأعمال المنزلية

وهكذا فان مناخاً اجتماعياً معيناً يمكن أن يؤثر حتى على طاقات الانسان الفكرية ، فينقصها أو يطورها ، ويحدد عن طريق آلية الوراثة كما يتصورهـا فرويد صيرورة هابطة أو صاعدة في هذا المجال

ومن جهـة أخرى فان الحرمان الذي يعاني منه البشر ، ولا سيما على صعيد الجنس ، واستحـالة وصولهم الى إشباع جنسي كافٍ ، هما اللذان يجعلان جزءاً من طـاقة الليبيدو شاغراً ، ويفسحان المجال بالتالي لهدره في الاساطير والدين والاخلاق وقد مثلت هذه المؤسسات في نشأتها ومن وجهة نظر فردية نوعاً من محـاولة للتعويض عن إشباع غير متحقق في الواقع وصحيح ان فرويد يدرج بين هذه الإشاعات المخففة إشاعات غرائز العدوان ولكن السؤال الذي يظل مطروحـاً هو ما إذا لم يكن تصعيد جزء من طاقة الغرائز وبوجه خـــاص الليبيدو ، شكلاً من الاشباع مستقلاً وعفوياً وأوليـــاً لدى الكائن البشري ، وليس نتاج حرمان ما والابداع الفني يدعو إلى التفكير بوجود صلة أعقد بين الطاقة الليبيدية المشبعة مباشرة وبين الطاقة المصعدة

ويعتقد فرويد أن الشعور بعدم الرضى وبالاستياء وحتى بالقلق الكموني الذي يرهق باستمرار البشر في حيـــاتهم ، وان الندرة الفائقة للحظـــات

الديونيسيوسية هما نتيجة التناقض بين « الحضارة » والحياة الغريزية الحرة. وقد أصبحت الحضارة » رمزاً لقمع الأنا من قبل الأنا العليا ولكبت الغرائز في اللاشعور وهكذا تبدو الحواجز العديدة التي تقمع وتعرقل الحياة الغريزية الحرة كنتيجة تاريخية للاحتقان الاجتماعي الشديد ويخلص فرويد إلى القول

« لقد أورث تاريخ الانسانية العصر الراهن ميولاً فطرية إلى القمع »

ان الكائن الانساني يفتش باستمرار ، بدافع عضوي ، بيولوجي ، عن طرق وطرق جديدة تستطيع فيها شتى حوافزه ان تجد إشباعاً،في حين ان«الحضارة» تقيم حواجز معقدة من شتى الانواع لدرء اي تظاهرة محتملة لهذه الحوافز في شكلها البدائي

وعلى هذا فان اتساع منطقة الوعي أو الشعور المرادف لدى فرويد لتطور الحضارة يتم على حساب حرية حياة الانسان العضوية ولهذا ينتهي فرويد إلى الاستنتاج بأنه لا مفر في الواقع من إجراء تبدلات بنيوية ثورية في المجتمع غير انه لم يستطع أن يحدد هذه التبدلات ، لعجزه عن التوصل إلى تفهم ماركسي وديالكتيكي لطبيعة المجتمع ، والمجتمع الطبقي بوجه خاص ، وللطريقة التي يتم بها تفاعل الاجتماعي والبيولوجي لدى الانسان وعلى كل الاحوال لا يستطيع أحد أن ينكر أن فرويد قد تبين الأهمية البالغة لإعادة توجيه تربية الاطفال ، واصلاح الأسرة ، والتحرر من التابوات الدينية فالطفل ، ولا سيما في السنة الثالثة أو الرابعة ، لا يمثل مرحلة الفرد ما قبل التاريخية فحسب ، بل هو يلخص ويجمل أيضاً ، بمعنى ما ، وبصورة خاصة ، مقتضبة مشوهة ، خصوصية ، مجمل تطور الانسان العقلي على مدى عشرين أو خمسين ألف عام وفرويد هو الذي بيّن ما يكونه العالم بالنسبة الى تلك السن عالم معمور بالأحلام ، بالمخاوف ، بالصراع الحاد بين الارادة الموهنة والدوافع الغريزية المتناقضة ، الصادرة عن الجنس والنزعة العدوانية عالم يتلاقى فيه على نحو معجز فائق للعادة عجز بالغ وجموح الرغبات الكلي القدرة . وتصارع كل هذه

القوى هو الذي يقود الى تطور الطفل عصبيـــاً ، ويهيج ويخلق الاستعدادات المسبقة لاختلالات مرضية محتملة ، ويجعل بالتالي تربية الاطفال الجنسية والعامة بالغة الوعورة

أما إصلاح الأسرة وإعادة تحييص مسألة العلاقات بين الجنسين والحريـــة الجنسية في مختلف أشكالها من جنسية مختلفة أو جنسية مثلية ، فان كل مؤلف من مؤلفات فرويد لا يخلو من إشارة ضمنية اليها

ويرى فرويد كذلك ان النضال ضد التابوات الدينيـة وإلغاءها في المستقبل ضروريان كل الضرورة لتحرر الانسان تحرراً حقيقياً ولتطوره تطوراً كامـلا متوازنا متناغما ومعروف أن فرويد كان يعتبر الدين عصاباً هوسياً عاماً تعود أصوله الى « أيام طفولة الجنس البشري الجاهلة » ، ويرى أن الفرد المتمدين لا بد أن يمر به في انتقاله من الطفولة الى النضج هذا التصور عن الدين ، الذي لم يظهر إلا في أواخر مؤلفاته يبين الى أي حد اتسع أفقه بعد ادراكه أهمية الاجتماعي وتعقيده فهيمنة الآلهة على الانسان ترجع الى عجزه أمـــام قسوة القدر وبوجه خاص الموت ، وأمام الآلات والحرمانات التي تنزلها به الحيـاة الاجتماعية وهذه الآلام والحرمانات تشمل علاقات الانسان مع أقرانه ، تلك العلاقات التي تتلخص في تناحرات دائمة ودائمة التحريح ، والتي اعتبرها فرويد أشد منابع عدم رضى الفرد واستيائه إيلاماً

وهكذا يعانق فرويد ، من بعض جوانب رؤيته للعالم ، مأساوية الشرط الانساني ، بالمعنى التام الذي كان لهذه الكلمة في اليونان القديمة عزلة الفرد أفول وجوده وموته مع تقدم العمر وعيه التعيس الذي يعذبه بلا انقطـــاع والذي ينبثق من النواهي التي تنصبها الحضارة أمام الإشباع الحر للغرائز الاولية. ولا مجال للشك في أن تجارب فرويد العيادية الـتي لا يحصى لها عد ، وشعوره بالقسوة التي لا يسبر لها غور والتي تعشش في صدر الانسان ، ذلك الشعور الذي اكتسبه مباشرة اثناء الحرب العالمية الاولى ثم اثناء الفاشية في ألمانيا ، وامتحانه

الألم الجسدي على إثر مرضه الطويل ــ السرطان ــ الذي تحمله مع ذلك ببطولة، أقول لا مجال للشك في أن هذا كله قد غذى عنده نزعة متشائمة ولكن كل مؤلفاته تتضمن أيضاً الثقة بأن الانسان يستطيع الخلاص من « جحيمه » الذاتي. فإرث الانسان ما قبل التاريخي والتاريخي ، الحيواني ، القائم على العدوانية والقسوة وشتى انواع الاضطهاد ، قابل للتعديل من وجهة نظر تصور فرويد عن الوراثة ، ذلك التصور الديناميكي ، المبدع ، الثوري وإذا كانت « الحضارة تميل الى الحكم بالضمور على الوظيفة الجنسية فلمَ لا يمكن لحضارة حقيقية ، في مجتمع لاطبقي ، أن تعمل على ضمور الوظيفة العدوانية وواضح ، من جهة اخرى ، ان الميل الى العدوان وأن الاضطهادات والنواهي الكثيرة التي تمنع الفرد من الوصول الى حياة أكثر حرية ، على حد سواء ، هي من نتاج الشروط الاجتماعية التي تطور فيها وجود الانسان ما قبل التاريخي الذي كان يتطلب الحماية والنضال من أجل البقاء ، والوجود « المتمدين » للانسان ، الذي جرى ويجري في علاقات متناحرة ومؤلمة

الانسان والمجتمع

بالرغم من أن فرويد قد فهم على نحو افضل عندما تقدمت به السن طبيعة المجتمع وتعدد مناحي تأثيره على تطور الفرد و « نفس » الفرد ، فانه لم يدرك على ما يبدو تمام الادراك تعقيد هذا التأثير وقوته وبذلك نجد تفسيراً لاختلال معين في تصوراته بين الثقل النوعي للعوامل التي تسهم في تكوين وعمل عالم الفرد النفسي والعقلي إرث العرق ، قبل التاريخ الطفولي ، عواقب جروح الانسان في مرحلة حياته الواعية فقد علق على العامل الأخير أهمية أدنى من تلك التي علقها على العاملين الآخرين الحال انه من الممكن تماماً للتأثيرات التي يتلقاها الفرد وللتعديلات التي يتعرض اليها طوال حياته تحت مفعول الجو الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية ، سواء منها التأثيرات التي تحاول حطه أم

تلك التي تسعى الى رفعه أقول من الممكن تماماً لهذه التأثيرات أن تمـــارس ضغطها من تلقاء نفسها ، دونما استعداد مسبق » متحدد بما قبل تاريخ النوع الفرد ومهما يكن من أمر فانه لمن المستحيل ، بدون هذا الاستنتاج ، فهم نظريـــة الوراثة لدى فرويد الذي يقر بتناقل المميزات النفسية والعقلية المكتسبة

ان تطور الانسان كان وما يزال صيرورة صاعدة وشاملة ، جسمياً ونفسياً وعقلياً وقد حرت هذه الصيرورة حتى الآن في شروط اجتماعية يمكن وصفها على وجه الاجمال بأنها ما قبل تاريخية ، الشيء الذي يفسر الى حد كبير مظهرها الذي ما يزال حيوانياً ، همجياً ، عصبياً ، أو مختلاً الى حد كبير ولكن حتى هـذا التطور يظل تطوراً غير متعادل ففيما يتعلق بتطور الانسان الفكري ، بتطور ملكاته المفكرة على سبيل المثال ، فان أغلب الظن انها تتعزز تاريخياً وتلقى حفزاً كافياً من الانتصارات المتحققة على الطبيعة ومن التراجع الذي لا جدال فيه للدين فقدرة الانسان على التفكير تنمو بالممارسة .وبالمعرفة وبتعاظم قدرة الانسان على الطبيعة ، كما تنمو بتدمير الحواجز الاجتماعية المنصوبة في وجه هذا التطور ، شأن الدين والمعتقدات والعادات اللاعقلانية التي تم إلغاؤها الآن عملياً في جزء كبير من الانسانية

وفي هـــذه الشروط يمكن لمجتمع لاطبقي تخيم عليه الوفرة المادية والأمان والثقافة أن يتنطع أخيراً الى أثمن مادة أولية الانسان نفسه في مركباته الجسمية والنفسية والعقلية ومن خلال تطور مجتمع كهذا يمكننا ببالغ السهولة أن نتصور أن يتوصل الانسان الى معرفة نفسه معرفة أفضل وأن يقـل نفسه على علاتها ، وان يخفف بالتالي من شدة الاختلالات العصبية والنفسية التي تبلبله وتغرقـه في جو من الضيق الدائم وسوف يكون في الامكان أيضاً.على المدى الطويل التصدي حتى لجذور الداء العضوية ، عن طريق الضمور الذي ستتعرض له الغرائز العدوانية وغيرهـــا ، تلك الغرائز التي تطورت إبان ما قبل تاريخ

الانسان ، وعن طريق تفتح غرائز اجتماعية جديدة يتم اكتسابها في المنـــاخ الاجتماعي الجديد

ولو أراد فرويد الاعتراض على هذا المنظور لقال بلا ريب إن الوصول الى مثل هذا المجتمع ، الى مثل هذه الحضارة ، يستلزم أولاً توفر القدرة على إصلاح الانسان ، لأن الانسان عاجز عضوياً ، في كينونته الراهنة ، عن بناء جنة عدن هذه وههنا على وجه التحديد يكمن ضعف تصورات فرويد الاجتماعية وطابعها الاخلاقي والمثـــالي النزعة فهو يميل ، شأنه شأن الكثيرين غيره ، الى تصور إصلاح الحضارة من خلال إصلاح الفرد ويغيب عنه معنى المادية التاريخية التي تفسر تطور المجتمع التـــاريخي منذ الشيوعية البدائية ، كما يغيب عنه التحليل الماركسي للمجتمع الرأسمالي الذي لا بد أن يليه عهد الاشتراكية والحال ان اصلاح الفرد في نظر الماركسيين لا يسبق اصلاح المجتمع ، بـــل هو بالأحرى النتيجة الضرورية للتغير الاجتماعي الذي لا بد أن يفضي اليه ديالكتيك المجتمع الرأسمالي

إن مجتمعاً بلا طبقات سيقوم ، وستسود فيه الوفرة المادية والأمن والثقافة ، وستفقد فيه العلاقات بين البشر طابعها التناحري المؤلم الراهن ، من دون أن تكون هناك ضرورة مسبقة لإصلاح الفرد أولاً فهذا الاصلاح سيتحقق على العكس بوصفه النتيجة الجامعة لتطور الفرد ، على مر العصور ، في الاطـــار الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع الاشتراكي والشيوعي ونحن في الوقت الراهن في المرحلة التمهيدية لمثل هذا المجتمع. وعندما كان فرويد يتكلم عن «الحضارة»، كان يقصد بذلك حضارة المجتمع الطبقي الذي لم يعقل لاماهيته ولاطـــابعه التاريخي الانتقالي

ان عدم المعرفة هذا قد أثقل بوطأته بلا جدال على عمـــل فرويد العلمي ، ولكنه لا يجرده من قيمته وأهميته بالنسبة الى اغناء الماركسية ونستطيع أن نكون على ثقة من ان المجتمع الاشتراكي ، الذي أخذ يشهد النور بصعوبة تحت

أنظارنا، سيعرف كيف يبذر نفسه للانسان ولثقافته ولتطوره الشامل والمتوازن، مطوراً العلوم التي اختارت كموضوع لها المادة الانسانية على وجه التحديد وسوف يحتل عمل فرويد العلمي بين هذه العلوم مكانة الصدارة، إذ ان الانسانية تدين فعلاً لهذا الرجل بأعمق نظرة ألقيت قط على أعماق الروح » وعلى القوى المستترة الكامنة فيها ، وعلى أصلها وطبيعتها ، كما تدين له بملامح الطريق المفضي الى السيطرة على هذه القوى وإنما بفضله سيكون في الامكان تقليصها ، بل تحويلها نوعياً في بوتقة المئات والآلاف من السنين من التطور الذي سيعرفه مجتمع الغد الاشتراكي والشيوعي

نقلاً عن مجلة تحت راية الاشتراكية »

مشكلات شرط المرأة الاجتماعي

بقلم فيدا توميسيك

« ان درجة تحرر المرأة تصبح بكل
بداهة مقياس التحرر العام »
شارل فوريبه

١ –

١ – في النصف الثاني من القرن العشرين تصبح مشكلة شرط المرأة الاجتماعي أكثر من أي وقت سبق جزءاً لا يتجزأ من النضال في سبيل الاشتراكية على الصعيد العالمي ولقد راح يتضح أكثر فأكثر أن المشكلة لم تعد مشكلة «مساواة في الحقوق» كما كانت الحال قبل نحو قرن من الزمن في العصر الذي انطرحت فيه مسألة المرأة بوصفها مسألة اجتماعية ذات طابع راهن

منذ أن ولد المجتمع الطبقي وجدت النساء أنفسهن في وضع من اللامساواة والتفرقة بيد أن مسألة شرطهن قد طرحت على مر العصور بوصفها مسألة اخلاقية بالدرجة الاولى وقد أثارها أناس كانوا يشعرون بأن المسألة هي ، في المقام الاول ، مسألة علاقات انسانية بوجه عام . ومع التقدم أخذت تنتشر الفكرة القائلة انه كما ان الشعب الذي يضطهد شعباً آخر لا يمكن أن يكون حراً

كذلك فان كل زعم عن المساواة في الحقوق بين البشر في مجتمع منقسم الى مستغِلين ومستغَلين انما هو زعم باطل ، وبالتالي فان « درجة تحرر المرأة تصبح بكل بداهة مقيـــاس التحرر العام » ولقد أدرك الطوبائي فورييه الذي اقتبسنا عنه هذه الفكرة ، ان المسألة هي في صميمها مسألة تحرير الانسان من علاقـــات وصفات غير انسانية بيد ان مسألة المرأة لم تطرح بوصفها مسألة اجتماعية عينية إلا في عصر الرأسمالية وفي مجرى الصراعات الطبقية

ان الطبقة العاملة الحديثة لم تعلن عن ظهورها إلا على إثر التحول الكبير في العلاقـــات الاجتماعية الاقطاعية عندما أخذت البنى الاقتصادية والسياسية والحقوقية القديمة بالتخلع والأرياف الرعوية بالاضمحلال تحت تأثير التصنيع ولقد كان من المحتم أن يؤدي تطور الصناعة في جميع بلدان العالم الى إخراج جماهير نسائية واسعة من البيوت الفردية لتحويلهن الى عاملات . ولم يكن العمل يمثل أي تجديد في شرط المرأة فالواقع ان النساء لم ينقطعن عن العمل على مدى العصور ، لكنهن كن يعملن بصورة مغفلة إن حاز التعبير ، في الملكية العائلية ، في بيت الاب أو الاخ أو الزوج ، ملاك المزرعة ، ممثـــلي نمط الانتاج العائلي ، رؤساء الأسرة والبيت لكن التجديد كان كامناً في واقع أن النساء قد أصبحن يشغلن من الآن فصاعداً وظائف (استخدامات ويتقاضين مقابل عملهن اجراً شخصياً مهما يكن زهيداً وكان التجديد يتمثل في أن وظيفتهن تُؤدى خارج البيت ، خارج الأسرة وراحت الأسطورة القائلة ان قدر المرأة هو أن تكون مجرد أُم وربة منزل تتبدد ودخل وضع المرأة الاقتصادي الجديد في نزاع مع شرطها في الأسرة الرعوية والمجتمع

وقـــد اكتشف ماركس وانجلز ، من خلال تحليلهما العلمي لقوانين التطور الاجتماعي ، الصلة القائمـة بين التمييز المضروب على المرأة وبين الملكية الخاصة وظهور المجتمـع الطبقي وأخيراً ظهور الدولة بوصفها منظماً للمجتمع الطبقي وانطلاقاً من هذا التصور أكدا أن الجهود المبذولة في سبيل تحرر النساء هي جزء

لا يتحزأ من النضـال في سبيل الاشتراكية وفي سبيل علاقات اجتماعية جديدة وفي سبيل مجتمع بلا طبقات وكانت الشروط الموضوعية لمثل هذا الحل لمسألة المرأة قد توفرت في المجتمع وضمت الاحزاب العمالية ، بوصفها طليعة النضال الطبقي ، تحرير المرأة في برامج عملها

لقـد احتلت مسألة المرأة مكانها بصورة أو اخرى في جميع النضالات وجميع الجهود الهـادفة الى التقدم الاجتماعي خلال الأعوام المئة المنصرمة من التطور الاقتصادي والاجتماعي الذي لم يخـل من بلبلة وتقلب كما احتلت مكانها ، وإن بصورة سلبية ، في جميع المحاولات المبذولة لوقف تقدم المجتمع

ولقـد انعكس العمق والسرعة اللذان تمت بهما التغيرات الاجتماعية والاقتصادية الطارئة في القرن العشرين على شرط المرأة كما على كل مسـألة أخرى

وقد كان لانتصار ثورة اوكتوبر في روسيا ، بتدشينه عصر الاشتراكية آثار عظيمة في مجال إلغاء التمييز لصالح المرأة ولم يكف دور النساء منذاك عن التعاظم في الحركات الديموقراطية المتقدمة والنضالات العمالية الثورية وقد بدل التقدم المادي والثقافي العام التصورات عن دور المرأة في المجتمع والأسرة وضمن هذا السياق لعبت حركة الدفاع عن حقوق المرأة دوراً معيناً ، وإن كانت هذه الحركة هي في التحليل الاخير وفي صورها المشتطة توكيداً للمقاومات المحافظة المعـادية للمرأة ووجهاً معكوساً لها أكثر منها قوة حدية ساهمت في التحولات الاجتماعية الجذرية

وفضلاً عن انتصارات الثورات الاشتراكية وفضلاً عن توطد تأثير الحركات العمالية في البلدان الرأسمالية ، يجدر ان نشير بوجه خاص الى النمو السريع لليد العـاملة النسائية في الفترة الفاصلة بين الحربين العالميتين وقد تكفلت التجربة بالبرهـان على هشاشة التوكيدات القائلة ان النساء أو الأمهات عاجزات عن ممارسة هذا العمل أو ذاك . وبذلك راح يتعاظم الاهتمام بتحرير النساء من جزء

من عبء التزاماتهن تجـــاه البيت والاولاد وبعد الحرب العالمية الثانية انتهى الأمر بعدد من البلدان الى الاعتراف بمساواة النساء الحقوقية في الحياة السياسية

وفي العصر الذي نحيا فيه نشهد القسم الاعظم من العالم الذي كان يعيش حتى الآن في ظل الدول المتروبولية الاستعمارية القديمـــة يشق طريقه الى التقدم الاقتصادي والاجتماعي المستقل وقد أدى النضال الثوري المعادي للاستعمار الى إنشاء دول حديدة مستقـــلة وتساهم النساء بصورة جماهيرية في حركات التحرر الوطني مساهمة فعالة وواعية لمسؤولياتها وبين المبادىء الاساسية التي تبنتهـــا الدول المستقلة الفتية يمثل مبدأ المساواة الحقوقية بين الرجل والمرأة وغني عن البيان أن المرسوم الحقوقي لا يستطيع إلغاء مخلفات التخلف التي تتجلى بقوة خاصة في حياة النساء والاولاد بيد أن المهم مع ذلك هو قدرتنـــا على الملاحظة بأن المشكلات التي عولجت لحقبة طويلة من الزمن في البلدان المتطورة بوصفها مشكلات نسائية خالصة تحتل مكانهـــا الآن في الجهود الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع قاطبة . ومن المؤكد اننا نستطيع ، انطلاقاً من ذلك ، أن نتوقع ان يسير تكريس المرأة الاجتماعي في طريق أقصر وأقل إيلاماً مما كانه طريق النضال من اجل دمج المرأة بالنشاط الاجتماعي والسياسي في التشكيلات الاجتماعية « المتمدينة » التي كانت تعتبر تبعية المرأة قانوناً إلهياً وطبيعياً

وفي وسعنا التوكيد بأن المعركة المعلنـة من اجل مساواة النساء في الحقوق قد تم كسبها على الصعيد العالمي ويمثل اليوم مبدأ إلغاء التمييز على أساس الجنس في الشرائع الدستورية لجميع الدول تقريباً وهو مثبت ايضاً في وثائق عالميـة مثل ميثـاق الامم المتحدة والبيان العالمي لحقوق الانسان وغيرهما من المواثيق الدولية (المساواة في الأجر مقابل العمل المتساوي، رعاية الأمومة ، يوم العمل، تحظير العمل الليلي الخ)

إن جردنا هذا للنتائج المتحققة بالنسبة الى وضع المرأة يبين لنا كم كان هذا العصر غنياً بالتحولات التي تمت بطريق التطور أو طريق الثورة على حد سواء .

وفي العالم أجمع « بدأ الجليد يذوب » فإلى أين وصلت بنا الأمور ؟ ان الاجابة على هـذا السؤال تتعلق بشتى مراحل النضال الطبقي وبالفروق في التطور الاجتماعي بين البلدان الاشتراكية

٢ ــ ان الاعتراف بحقوق المرأة السياسية في المجتمع البورجوازي لا يحدث تغييراً «ثورياً» في حياة الأمة السياسية ولقد اتضح ، كما بين ذلك الماركسيون، أن الاعتراف بحقوق المرأة السياسية لا يعدل ميزان القوى السياسية في بلد ما تعديلاً جوهرياً لم يكن هذا الاعتراف ثمرة الثورة الاشتراكية فعند الانتخابات لا تصوت النساء على أساس الجنس ، ولكن على أساس انتمائهن الطبقي أو تبعاً لتطور وعيهن السياسي شأنهن شأن الرجال

لقد درس العديد من المؤلفين مساهمة النساء في الحياة السياسية في البلدان الرأسمالية ولاحظوا « مفارقتين » اثنتين فالاحزاب اليسارية التي ناضلت بجل طاقتها من أجل الاعتراف بحق النساء في الانتخابات كانت أقل الاحزاب استفادة من ممارسة النساء لهذا الحق وبالمقابل جنت الثمار الاحزاب اليمينية ، أي الاحزاب التي تعارض حقوق النساء السياسية وتستغل تأخر النساء لتفرض عليهن تأثير المنظمات الرجعية والمحافظة ، ولا سيما تأثير المحافظين من رجال الكنيسة ، وتستخدمهن لأغراضها السياسية أما فيما يتعلق بحق النساء السلبي في الانتخاب ، فنلاحظ انهن لا يمثلن إلا فيما ندر على القوائم وانهن لا يحصلن إلا على نتائج متواضعة للغاية وهن لا يستطعن ، في خاتمة الحساب ، ان يؤكدن أنفسهن في الحياة السياسية إلا بصعوبة بالغة بالرغم من الاعتراف بـ «حقوقهن»

وينظر بعض المؤلفين الذين قاموا بهذه الابحاث الى الديموقراطية البورجوازية المتعددة الاحزاب نظرتهم الى نظام مثالي ، ويدرسون سلوك المرأة بدلالة سلوك الرجال منظوراً اليه في مجمله وبذلك يتعامون عن المشكلة الاساسية مقدار المساهمة الفعلية لأوسع فئات السكان، ولا سيما الطبقة العاملة، في القضايا السياسية الجارية لا في الانتخابات وحدها

وهكذا ينتهي دارسو هذا المظهر من الحياة الاجتماعية الى « مفارقة » مماثلة لما سبق إذ انهم يؤكدون ان نقص هـــذه المساهمة يعود سببه الى النساء والى نقص نضجهن السياسي او حتى الى طبيعتهن « النسائية » لا الى النظـــام الاجتماعي والسياسي

ان الاعتراف بحقوق المرأة السياسية لم يتم بدون لغط ، إذ انه كان يقتضي العودة عن مبادىء معينة والإقرار بأن المرأة تستطيع ان تقرر حتى فيما يتعلق بالمسائل التي تتجاوز واجبها « الطبيعي » كأم وربة منزل وفي الوقت نفسه بصخب اقل لكن بثقة اكبر ، راحت النساء يتدفقن نحو الصناعة ويعملن خارج بيوتهن ، وبذلك بدأت تتحقق صيرورة تحرر المرأة الاقتصادي

لقد كان على النساء ان يتغلبن على العديد من العقبات حتى يمارسن مهناً مختصة او يواظبن على مدارس التكوين المهني. وبالمقابل يستحيل اليوم ان نتصور اقتصاد بلد من البلدان بدون مساهمة النساء فهن يمثلن ، بالفعل في جميع البلدان المتطورة جزءاً هاماً من اليد العاملة ، ويشغلن وظائف متجددة دوماً ، ويعملن في جميع فروع الانتاج والخدمات العامة تقريباً والحق انه كلما تقدم احد البلدان اقتصادياً ، تطور نشاط القطاع الثالث واتسع بالتالي حقل نشاط النساء وكلما تطور التعليم ، هجرت النساء الأعمال اليدوية والصناعة لينتقلن الى الادارة والخدمات العامة بمختلف انواعها ، ولا سيما التعليم والصحة العامة وهكذا اصبحت نسبة النساء من اليد العاملة غير الزراعية معيـاراً من المعايير المستعملة في تقدير درجة التصنيع والتطور والتنوع في اقتصاد من الاقتصاديات. وتزايد استخدام النساء يترافق بالتأكيد بانخفاض في نسبة الولادات بيد اننـا نلاحظ مع ذلك ان النساء المتزوجـات او ربات الأسر يشكلن جزءاً متعاظماً باستمرار من اليد العاملة النسائية والحق ان السكان الإناث في المدن والمراكز الصناعية يمثلن مستودعاً كبيراً لليد العاملة التي غالباً ما تستخدم بصفة مؤقتة ولكن هؤلاء النساء يطالبن اكثر فأكثر باستخدامات دائمة . ذلك ان التطور

الاقتصادي والاجتماعي للعالم المعاصر يجعل النساء يعتبرن عملهن لا ضرورة اقتصادية ووسيلة لتدوير رقم الميزانية العائلية فحسب ، بل ايضاً أساساً لوضعهن الفردي والاجتماعي وقد تضاءل اعتقادهن بأن هذا الاساس يجب ان يكون الزواج والأسر وهو لا يني يتضاءل فهن ما عدن يرغبن في ان تكون علاقاتهن الزوجية متعلقة بالوضع المادي او الاجتماعي لأزواجهن وهن يشعرن بأن استعداداتهن لعملهن ومهنتهن تتوكد اكثر فأكثر

ان المدارس مفتوحة مبدئياً للنساء وفي وسعهن ايضاً الحصول على تكوين مهني بيد ان عدد النساء المختصات يزداد بأقل من السرعة التي يزداد بها استخدامهن. ومن قبيل الاستثناء فقط تشغل نساء البلدان الرأسمالية استخدامات مختصة في الاقتصاد والشؤون العامة ومعظمهن في هذه الحالة من العازبات وبديهي انه يتوجب عليهن ايضاً ان يتخلين عن الامومة حتى يكون في وسعهن العمل ، لأن فرص ايجاد عمل لا تكون كبيرة بعد الزواج وإنجاب الاطفال وفي مثل هذه الظروف لا تجد المرأة تشجيعاً على الاهتمام بتكوينها المهني . فهي تعرف أن عليها ان توقف عملها من حين لآخر مما يجعلها تتأخر بعض الشيء عن رفاقها من حيث التكوين المهني وسواء شاءت ذلك ام أبت ، فلا بد لها ان تقبل بالامر الواقع ونظراً لان الدراسات العليا تشكل عبئاً ثقيلاً على الاهل ، فان هؤلاء يقررون بصعوبة ارسال بناتهم الى المؤسسات العليا وهكذا نجد انه بينما يرتفع عدد النساء اللاتي يقضين حياتهن في العمل خارج مازلهن ، فان هذا العمل ما يزال يعتبر استخداماً مؤقتاً لا مهنة دائمة

ان دور الام وربة المنزل يعتبر الوظيفة الرئيسية والاولوية للمرأة وهذا التصور يسم جميع الاواصر التي تعقدها ، مهما يكن اصلاً ثقل العقبات التي تعاني منها عملياً كما ان هذا التصور يربك جميع النساء في تربيتهن وفي اختيار مهنتهن وفي نشاطاتهن المهنية والعائلية

٣ – ان المساهمة الفعالة اكثر فاكثر للنساء في حياة المجتمع الاقتصادية ،

والحقوق السياسية التي اكتسبتها ، ودورهن الاجتماعي المتنامي ، لا تلغي وانما تكشف وتزيد حدة النزاع بين الاستخدام في الانتاج الحديث والحقوق السياسية في المجتمع من جهة أولى وبين واجبات الأم وربة البيت من الجهة الثانية ومن هنا نستطيع أن نلاحظ أن هذا النزاع يتفاقم بعد تلبية «المطالب الكلاسيكية» المتعلقة بمساواة المرأة وقد وصف انجلز في مؤلفه المشهور « أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة » هذا الوضع بصورة عامة وتنبؤية « ان الطابع النوعي لسيطرة الزوج على الزوجة في الأسرة الحديثة ، وضرورة تساويهما الحقيقي في المجتمع والصورة التي تتحقق بها هذه الضرورة، لن تتجلى تمام التجلي إلا في اليوم الذي سيصبح فيه الطرفان متساويين مطلق التساوي من وجهة النظر الحقوقية وسيتضح آنذاك ان الشرط الاول لانعتاق المرأة هو اعادة دمج كل الجنس المؤنث بالنشاطات العامة ، الشيء الذي يفترض بدوره إلغاء صفة الأسرة بوصفها وحدة اقتصادية — اجتماعية وبديهي ان التطور يسير في هذا الاتجاه فالأسرة والبيت تطرأ عليهما تعديلات كبيرة مع تقدم التصنيع والتغيرات الاجتماعية التي ترافقه . والأسرة الزوجية الكبيرة هي في طريقها إلى الزوال. والأسرة الصغيرة تتكون في المدن الصناعية وقد كفت الأسرة عن أن تكون رابطة انتاج ولم يبق لها إلا أعمال المنزل الفردي التي تشكل مع ذلك عبئاً ثقيلاً على جميع أعضاء الأسرة ، ولا سيما المرأة والعديد من الأعمال المنزلية ينجز الآن خارج دائرة الأسرة ونشهد اليوم تعمق الانفصال بين مفهوم الأسرة — الرابطة البيولوجية والعاطفية بين الزوج والزوجة والاولاد — وبين مفهوم البيت — رابطة انتاج واستهلاك وواضح انه لم تعد هناك حاجة لأن يكون المرء منتمياً إلى أسرة حتى يملك مسكناً وحتى يقوم بأود حياته ويلبي حاجاته اليومية ، بالرغم من أن المنزل العائلي ما يزال الشكل الشائع لتلبية هذه الحاجات وفي الشروط المادية الراهنة تستطيع الأسرة الانعتاق من عبء الاعمال المنزلية ، ومن الممكن إنشاء القاعدة التقنية الضرورية لتنظيم خدمات مساعدة البيوت ، ولا سيما مساعدة الأسر على تنشئة وتربية أولادها . ولبلوغ

هذا الهدف ، لا مفر من بذل مجهود جماعي وانتهاج سياسة محددة

ونحن نستطيع التوكيد بأن الفرق الرئيسي بين التقدم والنزعة المحافظة بين الانظمة الاجتماعية ، لا يكمن في الاعتراف أو عدم الاعتراف بمساواة المرأة بقدر ما يكمن في الموقف من جميع النتائج التي تنجم عن ذلك بالنسبة إلى الأسرة والبيت

هل ينبغي حل عقدة النزاع ، وعلى عاتق من تقع مهمة ذلك ، وبأي صورة؟ إن الاجوبة على هذه الاسئلة عديدة فالبعض يرى أن هذا لا يخص المجتمع في نهاية الأمر ، وانه من اختصاص المرأة الأسرة ويقدر آخرون ان على الدولة أن تتكفل بجزء كبير من واجبات الأم وربة البيت ان عليها أن تحل محل الأسرة. ويؤكد غيرهم أخيراً انه من الواجب ، بالتوازي مع التحويل الاشتراكي للعلاقات الاجتماعية ، التشجيع على تعديل العلاقات العائلية وحل ما ينجم عن ذلك من مشكلات باعتبارها مشكلات تخص الفرد والمجتمع معاً

فالموقف الأساسي للأوساط القيادية في البلدان الرأسمالية تجاه مشكلات أسرة المرأة العاملة كان وما يزال الرغبة في الحفاظ لأطول فترة ممكنة على العلاقات الرعوية التي تعتبر مشكلات الأولاد والبيت قضية خاصة

ان الحفاظ على العلاقات العائلية القديمة والإلحاح المتواصل على أولوية واجبات المرأة بوصفها أماً وربة منزل يمثلان مزايا كبيرة للغاية إلى حد يصعب التخلي عنها فالرأسماليون ، بتركيزهم اللهجة على التزامات المرأة في حضن الأسرة ، يستطيعون عند الحاجة تسريح النساء المتزوجات أو رفض استخدامهن ، ودفع أجرة غير متساوية مقابل عمل متماثل بحجة ان الزوج هو عماد الأسرة وأن مساهمة الزوجة ليست إلا مساعدة للميزانية العائلية وأن اليد العاملة النسائية خاضعة بسبب الأمومة والأعمال المنزلية إلى التقلبات والاستنكاف والانقطاع ، وأن هذه اليد العاملة لا تدر بالتالي ربحاً ، وانهم باستئجارها يؤدون « عمل خير » ، الخ وما أكثر الدعايات التي تريد أن يسود الاعتقاد بأن على النساء أن

يقررن بأنفسهن ما إذا كن سيعملن خارج البيت أو سيكرسن أنفسهن لأسرتهن. وتقدر الكنيسة الكاثوليكية وغيرها من الكنائس ، وكذلك العديد من المنظمات الاجتماعية والنسائية ، وحتى بعض النقابات ، أن من الواجب « إقناع » المرأة بتكريس نفسها لدعوتها العائلية وهذه المنظمات تعترف بأنه من الواجب ، إلى حد ما ، أن تندمج المرأة بالاقتصاد الاجتماعي ، لكنها تنوه بأن ذلك ينبغي ألا يتم على حساب الأسرة وألا يكون مزاحمة للرجال ، وإنما ينبغي أن يكون عملها خارج البيت تابعاً لالتزاماتها العائلية

ان كل جهاز المجتمع مستنفر اذن لـ « تعزيز » واجبات المرأة العائلية وشائع هو الزعم القائل أن استخدام اليد العاملة النسائية هو سبب جنوح الأحداث وتراجع النمو الديموغرافي وزيادة حالات الطلاق وتدهور الاخلاق الخ. وقد حاولت استقصاءات عديدة أن تسلط الضوء على الدوافع التي تدفع بالنساء إلى العمل خارج بيوتهن وتوصلت إلى استنتاج يقول ان معظم النساء يعملن في سبيل كسب المال كما لو ان الرجال الذين يمارسون في المجتمع الرأسمالي استخدامات غير مختصة شبيهة باستخدامات غالبية النساء يعملون بدافع دعوة خلاقة وليس بداعي الضرورة الاقتصادية بالدرجة الاولى ويقترح المشرفون على تلك الدراسات زيادة أجور الرجال لإلغاء الضرورة الاقتصادية التي هي علة استخدام اليد العاملة النسائية وإذا كانت المرأة تريد أن تعمل فلتتحمل هي نفسها نتائج عملها المزدوج خارج المنزل ، وفي بيتها بالقرب من أولادها

وبخلاف النظريات والآراء المقبولة بشكل عام يتم التطور بدون أي نظام وثمة تغيرات تطرأ على الأسرة وعلى البيت معاً

لكن لما كان التطور يجري ، كما قلنا ، بدون أي نظام في مجتمع تتفاوت فيه الفروق بين الثروات الشخصية تفاوتاً كبيراً ، لذا فإن هذه التغيرات تأخذ أحياناً شكل مصيبة اجتماعية حقيقية فـ « مؤسسة » الطلاق الذي يسهل الحصول عليه في الولايات المتحدة وفي بعض البلدان الأخرى قد باتت تتناقض

منذ عهد بعيد تناقضاً فاضحاً مع الأسرة الرعوية لكن لما كان وهم الأسرة الرعوية ما يزال قائماً ، لذا فإن مهمة العناية بالأولاد ما تزال مهمة « خاصة منوطة بالأهل الذين باتوا عاجزين عن أدائها على الوجه المطلوب ، هم الذين يستأثر بهم عملهم والذين بدلوا شركاء حياتهم ومن هنا تأخذ النفقة المدفوعة للمر الطالق شكلاً جديداً من أشكال النزعة الطفيلية ومن أشكال البغاء. وهذا صحيح بوجه خاص بالنسبة إلى نساء الطبقات الاجتماعية الغنية فالجنس يتحول إلى خلاعة ويأخذ طابعاً تجارياً مشتطاً وعلى هذا المستوى تبذل المحاولات لحل مشكلة « أوقات فراغ » انسان المجتمع الطبقي الذي لا يستطيع ولا يحق فيه لهذا الانسان ان يسير شؤونه أو شؤون المجتمع ومن هنا يصبح الجنس تسلية وألهية ، الشيء الذي يؤدي إلى انفصاله عن الحب وإلى نزع الصفة الانسانية عن العلاقات الجنسية لكن تحت تأثير النساء المستقلات اقتصادياً اللاتي لا ينى عددهن يتزايد باستمرار تبرز ميول أخرى أكثر ايجابية فالناس يتزوجون في عمر مبكر ، والأسر تقوم على مزيد من الحب والروح الرفاقية ، والنسل يحدد على مستوى الأسرة

ويساعد تطور الصناعة ، ولا سيما تطور القطاع الثالث والخدمات ، النساء كثيراً على الانعتاق من جزء من الأشغال المنزلية إذ تنتقل هذه الأشغال بصورة متعاظمة وحتمية من صعيد البيت الفردي إلى صعيد النشاطات العامة ويحتل تدخل الدولة أو البلدية اللتين تنظمان خدمات شتى لها صفة الصالح العام مكانة هامة في هذا التطور فالماء الجاري والكهرباء والتدفئة المركزية والغاز ، وهذا بالاضافة إلى تطور المدارس والمستشفيات ودور العجزة الخ ، قد حررت النساء من عدد كبير من الأشغال. ومعروف هو تأثير تطور الصناعة النسيجية والغذائية والفروع الصناعية الأخرى فيما يتعلق بتقليص الأشغال المنزلية وبإيجاد استخدامات جديدة للنساء والأجهزة المنزلية الكهربائية والحرارية الجديدة تعدل أيضاً طبيعة الأشغال المنزلية كما أن تطور الصناعة الفندقية والخدمات

المشابهة يقلص العمل المنزلي المدوي ويلغي بعض الفئات الاجتماعية التي كانت تستخدم في التدبير المنزلي ، ويسهم لا في تخفيض العمل الضروري فحسب ، بل ايضاً في توزيعه بين جميع أعضاء الأسرة

ان تطور الصحة العامة وتحسين الخدمات الصحية قد أطالا الأمل في الحياة وزادا من طاقة العمل وقد تراجعت نسبة وفيات الاطفال وازدادت أهمية نشر المعارف المتعلقة بتحديد النسل الذي يسمح للنساء بأن يحددن بأنفسهن ميعاد وعدد ولاداتهن ولم يعد واجباً على النساء أن يضعن عدداً كبيراً من الاطفال حتى يمكنهن أن يأملن في بقاء واحد أو اثنين منهم على قيد الحياة وقد أدى إطالة امل الحياة وتناقص عدد الولادات الى تعديل نسبة الاعوام التي تستطيع النساء تكريسها للعمل ونسبة الاعوام التي يكرسنها لأمومتهن

وغني عن البيان اننا لا نستطيع أن نماري ولا أن ننكر النتائج المتحققة في البلدان المتطورة من حيث تنظيم الخدمات العامة والخاصة كمساعدة الأسرة ورعاية الأمومة والطفولة ولقد كانت هذه الخدمات في البداية عبارة عن مؤسسات إحسان للمنات — الأمهات وللعاملات اللواتي يواجهن وضعاً بالغ الصعوبة وإلى اليوم ما تزال معظم هذه المؤسسات من ثمار المبادهات الخاصة وتتولى إنشاءها المنظمات الدينية بوجه خاص

وقد بدأ بعض ملاك ومدراء المصانع المهتمون بزيادة انتاجية العمل ، بدأوا منذ بعض الوقت في انشاء مؤسسات متنوعة في المصانع نفسها لخدمة العمال والعاملات مقاصف ، دور حضانة ، الخ وبديهي أن التصور القائل إن على الدولة ألا تتدخل البتة في شؤون الأسرة الخاصة وإن التقدم الاقتصادي سيسمح لكل انسان ولكل أسرة بحل مشكلاتها هو في طريقه إلى الانهيار

ان ارتفاع مستوى الحياة لا يحقق من تلقاء نفسه تسوية التناقض بين عمل المرأة في الاقتصاد والمجتمع وبين واجباتها العائلية وكل ما يفعله هو أن يخفف حدته إلى حد معين والارتفاع النسبي للأجور ولمستوى الحياة لا يستطيع أن

يلغي العبء المزدوج الذي يقع على عاتق المرأة ، تماماً كما ان تحسن مستوى حياة العمال لا تقهم من الاستغلال وعندما يملك احد الأقطار دخلاً قومياً مرتفعاً ، فهذا لا يعني بالضرورة انه يستخدمه لحل مشكلات السكان الحيوية وللاقتناع بذلك يكفي ان نأخذ كمثال الارقام المتعلقة بتطور التعليم أو بالحماية الصحية في البلدان الاشتراكية البلدان الرأسمالية الرفيعة التطور فإذا ما انطلقنا من مستوى الدخل الفردي حق نتوقع في هذا المجال صورة مغايرة تماماً فإحصائيات عدد من البلدان الرفيعة التطور تدل على أن نسمة صعيفة نسبياً من البيوت « ممكننة » مكننة البيت الفردي لا تتناسب إلا الى حد معين مع حاجات المرأة العاملة والآلة ، إذا كانت تقلل من صعوبة العمل اليدوي ، إلا انها لا تضع حداً لمشاغل وهموم ربة المنزل ولهذا يبرز اتجاه الى نقل أشغال البيت الفردي الى الخدمات العامة ومن قبيل ذلك ان الأسر في السويد مـــا عادت تطمح الى امتلاك غسالات كهربائية وعند تخطيط المدن يُبنى ما يسمى الفنادق العائلية التي تقدم خدمات مشتركة في العديد من المجـالات (من المطاعم الى دور الحضانة الى المغاسل

وتلافياً للنتائج الضارة التي نجمت في عصر « دعه يعمل دعه يمر » عن التصور القـــائل ان المرأة والأسرة في العالم الصناعي يجب ان يُتركا لنفسيهما ، صيغت فيما بعد تصورات جديدة عن واجب الدولة والمجتمع في مساعدة الاسرة على تربية الاطفال ثم جـــاء تعزيز دور الدولة في الاقتصاد ليولد تصورات جديدة عن السياسة الاجتماعية للدولة والمساعدة التي تتمتع بهـــا الأسرة في البلدان الرأسمالية لا تعني البتة أن الهدف من الاهتمام المنظم بها هو إقامة المجال أمام المرأة العاملة لتكريس نفسها بمزيد من الحرية لمهنتها وللشؤون العامة. وليس الدافع في معظم الحـالات سوى الاعتبارات الديموغرافية أو المشكلات التي تطرحها الحماية الوقائية وتربية أطفال الأسر العمالية المحرومة

واثنـــاء الحرب وبعدها تطورت ، في البلدان الاوروبية بوجه خـاص ،

المؤسسات المكلفة بحماية الاطفال وتربيتهم وهذه المؤسسات تابعة للدولة أو للمدينة وعدد المؤسسات المخصصة للأطفال الذين يعيشون في شروط بالغة الصعوبة ما يزال ضعيفاً وهذه المؤسسات لا تساعد الأسرة بقدر ما تحل محلها ونظراً الى النتائج السلبية الناتجة عن الإقامة في مؤسسات الدولة هذه على الحياة العاطفية للأطفال المفصولين عن أسرهم يجري التفتيش عن أشكال جديدة لتأمين حماية الاطفال اثناء عمل الأهل ومن بين المقترحات بل المنجزات التي تلفت النظر في بعض مؤسسات الطفولة ، يجدر ان نشير الى ظهور اتجاه متعاظم نحو تقديم امكانية اقتصادية للأمهات من أجل إعادة « اندماجهن » بأسرهن وبيوتهن ، على أساس أن عودة المرأة إلى البيت ستمنح الرجل من جديد دفء الوسط العائلي ، هو المستلب عن طبيعته الانسانية في مركز عمله وفي المجتمع معاً وبالرغم من ان منطق تطور القوى المنتجة وتطور التعليم العام والصبوات العملية للنساء أنفسهن تناقض هذه التصورات ، إلا أن هذه التصورات باتت تمثل من الآن فصاعداً في البرامج الرسمية للعديد من الاحزاب الديموقراطية — الاشتراكية إذ يخيل لهذه الاحزاب التي وجدت نفسها ملزمة بالاختيار بين الدولة المغفلة — ولو كانت دولة « الرفاة » (التي ما يزال الانسان يشعر فيها بأنه تابع ومحكوم) وبين الأسرة ، انه من الضروري إعادة النظر باسم المذهب الانساني ، في ما يسمى بـ « سوء تقدير » الأسرة من قبل كلاسيكيي الماركسية — اللينينية

٢

١ — بعد الثورة الاشتراكية اعترفت يوغوسلافيا وسائر البلدان الاشتراكية بجميع الحقوق المدنية للمرأة وبمساواتها في الزواج والأسرة ، واتخذت من جهة أخرى تدابير هامة لحماية الأم والطفل ولا ننوي هنا الدخول في التفاصيل .

ويكفي أن نقول أن التبدل السريع في شرط المرأة يعود ، الى حد كبير ، إلى أن دخولها الحياة السياسية والاجتماعية قد تم في فترة ثورية بددت الآراء المسبقة ووضعت حداً لتخلف أزلي (الأمية ، تعدد الزوجات ، الحجاب ، الخ) بينما كانت الانظمة الرجعية في يوغوسلافيا القديمـــة تغض النظر بل تشجع التمييز السياسي والاقتصادي المفروض على النساء

ان ممارسة النساء لحق الانتخاب ومساهمتهن في التظاهرات السياسية وفي عمل المنظمات السياسية والاجتماعية قـــد أخذتا شكلاً كثيفاً وفعالاً معاً وبالمقابل فإن مساهمتهن في الوظائف السياسية وفي مجالس ولجان ادارة المنظمات السياسية وأجهزة التسيير الذاتي ما تزال ضعيفة نسبياً والحق ان هذه المساهمة ما تزال دون حقوق وتطلعات القوى القيادية في يوغوسلافيا التي تريد أن تصبح المرأة فعلاً احد النوابض الرئيسية في الحياة الاجتماعية

وتمشياً مع القناعة بأن الاستقلال الاقتصادي هو أساس المساواة التامة للمرأة وتحررها أصبحت أبواب جميع المهن والمدارس مفتوحة لها. ويضمن الدستور والقوانين مبدأ للعمل المتساوي أجر متساوٍ » وتوفر الحماية للمرأة المستخدمة وأطفالها

ويلعب تطور البلاد الاقتصادي والاجتماعي دوراً بالغ الأهميـــة بالنسبة الى ممارسة هذه الحقوق وفي شروط الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج والتوجيه المخطط لازدهار الاقتصاد ، ساهم التصنيع في تعديل المقومات المادية للعلاقات الاجتماعية ، وضمن هذا السياق ، في تعديل التصورات عن دور المرأة في المجتمع والاقتصاد والاسرة

لقد حققت يوغوسلافيا نتائج هامة في زيادة دخلها القومي وتحولت من دولة متخلفة الى دولة صناعية وبينما كان ٧٥٪ من سكانها يعيشون في الماضي من الصناعة ، انخفضت هذه النسبة اليوم إلى أقل من ٥٠ ٪ والأرياف هي اليوم مسرح لتبدلات كبيرة فقد ألغى الاصلاح الزراعي الملكية الكبيرة .

ويجري الاعتماد أكثر فأكثر في الزراعة على التقنية الحديثة الشيء الذي يؤدي الى تعديل علاقات الانتاج والعلاقات الانسانية المميزة للنظام الرعوي. فالأسرة الفلاحية الفردية ينتفي أكثر فأكثر طابعها كوحدة انتاج مغلقة وأعضاء هذه الأسرة يصبحون أكثر فأكثر عمالاً في زراعة حديثة تقوم في حلها على وسائل الانتاج الاجتماعية والدور الحاسم لملكية الارض في تحديد طبيعة علاقات الانتاج والعلاقات الانسانية تتضاءل أهميته أكثر فأكثر وقد أصبح العمل والمردود الفرديان المعيار الاساسي في توزيع المداخيل

ان تبدل بنية السكان الاجتماعية يشير الى وجود نسة مرتفعة من النساء المستخدمات في الاقتصاد الاشتراكي أو في الخدمات العامة والنسة المئوية من النساء العاملات تزداد بسرعة أكبر من ازدياد النسة العامة للاستخدام بيد انه ينبغي أن نلاحظ أن اليد العاملة النسائية هي في غالب الاحيان يد عاملة غير مختصة أو نصف مختصة وعدد النساء في المناصب القيادية ما يزال نادراً

٢ – ما الذي يحول اذن بين المرأة وبين أن تكون فعالة في حياة البلاد السياسية والاقتصادية طالما ان جميع العقبات القانونية قد أزيحت ؟ ان برنامج رابطة شيوعيي يوغوسلافيا يلاحظ في هذا الصدد أن « مشكلة مساواة المرأة في يوغوسلافيا لم تعد مشكلة سياسية ولا مشكلة الوضع القانوني للمرأة في المجتمع وانما هي تنطرح بوجه خاص من حيث انها مشكلة التطور الاقتصادي غير الكافي والنزعة البدائية والتصورات الدينية وغيرها من الآراء المسبقة المحافظة وعلاقات الملكية الخاصة التي ما تزال تؤثر على حياة الأسرة » فسبب التمييز الذي كانت تعاني منه النساء في يوغوسلافيا القديمة ، كانت الغالبية الساحقة منهن أميات وكان عدم تمكينهن من الحصول على التخصص المهني وعلى المساهمة في الحياة العامة يعتبر أمراً طبيعياً وسوياً والآراء المسبقة عن المرأة عميقة الجذور ولا سيما في الأرياف . والتربية والدعاية السياسية لا تستطيعان إزاحة هذه

العقبات إلا الى حد معين ولإزاحتها نهائياً ينبغي تبديل نمط الحياة والعمل ينبغي اتاحة المجال أمام جميع النساء للحصول على الاستقلال الاقتصادي ، الذي يستدعي تعديلاً جذرياً لوضعهن في الأسرة والبيت والقوانين سة عن الزواج والعلاقات العائلية لا تبدل الموقف إلا الى حد معين ولأسباب يسهل فهمها استقبلت نساء مسات كثيرات ، تابعات لأزواجهن اقتصادياً ، الزواج المدني وإباحة الطلاق بالارتياب لا بالاستحسان. والحق ان البيت الناقص التطور هو عقبة أمام النساء الراغبات في الحصول على عمل خارجه وانتاجية العمل الضعيفة هي في آن واحد علة ونتيجة الحفاظ على البيت العائلي بوصفه وحدة انتاج واستهلاك طبيعيتين والتطور الذي يحوّل الفلاحين الى عمال صناعيين يصطدم هو الآخر بالعقبة التي توجب على المرأة ان تبقى في المزرعة الصغيرة التي تستثمرها من الآن فصاعداً بنفسها أو بمساعدة أولادها كما ان التصنيع ، مهما يكن سريعاً، لا يخلق استخدامات جديدة إلا بصورة تدرجية ونسبة السكان الذين يعيشون من الزراعة (حوالي ٥٠٪) تكفي للتدليل على اننا نملك احتياطياً واسعاً من اليد العاملة وهذه الملاحظة تسري بوجه خاص على اليد العاملة النسائية وعلى هذا فمن المستحيل حل مشكلة المرأة إلا اذا اعتبرت جزءاً لا يتجزأ من التطور الاقتصادي والاجتماعي الطويل الأمد للبلاد كلها

ان تجربتنا تدل على ان وضع الديموقراطية الاشتراكية وحقوق المواطنين ولا سيما حقوق المرأة موضع تطبيق لا يتحقق إلا تدريجياً وبالتوازي مع نمو الطاقة المادية وترسخ الوعي الاجتماعي وإذا كنا نريد كشف النقاب عن الوضع الواقعي وعدم الاكتفاء بتعداد الحقوق ، يتوجب علينا ان ندرس بعناية المشكلات كما تنطرح وان نعمل في المقام الاول على تعديل القاعدة المادية حتى نستطيع ان نشيد عليها علاقات جديدة ، تصورات وقواعد اخلاقية جديدة

ففي المجتمع الاشتراكي الذي يتم فيه التوزيع تبعاً للعمل المقدم وحيث تكون المساهمة في الانتاج المصدر الاساسي للأرباح الفردية والمركز الاجتماعي ،

تتجلى وطأة الاعمال المنزلية التي ترزح تحتها المرأة بوضوح اكبر ايضاً في مركز عملها وفي نشاطها الاجتماعي فصحيح انها تتقاضى « اجراً متساوياً مقابل عمل متساوٍ » ، لكن طاقتها على العمل واختصاصها المهني وتركيزها أضعف لديها مما لدى الرجل بسبب التزاماتها كأم وربة بيت ومعروف لدينا ان ماركس صاغ بهذا الخصوص الفكرة التالية ان كل حق هو تطبيق لحق متساوٍ على بشر غير متساوين ، على أناس هم في الواقع متباينون وغير متساوين ولهذا فإن « المساواة في الحقوق » هي انتهاك للمساواة وظلم » (ماركس « نقد برنامج غوتا »)

والحماية الخاصة التي تستفيد منها المرأة المستخدمة لا تخفف إلا الى حد ما من الفروق في شروط العمل وهذه الحماية هي عادة خطوة أولى نحو سياسة الدولة الاجتماعية وتدخل الدولة الرأسمالية في علاقات الانتاج ومعروفة لدينا الدوافع الديموغرافية التي تستلهمها الدولة في اتخاذها تدابير الحماية تلك كما اننا لا نجهل ايضاً النتائج التي تنجم عن ذلك والتي غالباً ما تكون سلبية بالنسبة الى استخدام النساء (تسريح النساء المتزوجات والأمهات ، ورفض التقيد بمبدأ « للعمل المتساوي أجر متساوٍ » بحجة ان اليد العاملة النسائية مكلفة ، الخ)

أما في البلدان الاشتراكية فإن النساء المستخدمات يتمتعن بأقصى حد من الحماية ، وتكون الأمومة موضع رعاية خاصة ، وتتخذ تدابير وقائية في صالح الأم والطفل ،الخ ويقع عبء تمويل هذه الحماية في غالب الاحيان على الميزانيات العامة وعلى صناديق الضمان الاجتماعي ولا سبيل للمماراة في انه كان سيكون من المستحيل ، لولا هذا التدخل الفعال من جانب الدولة الاشتراكية بعد انتصار الثورة وفي وقت كانت فيه مصادر المجتمع المادية ضعيفة ونتائج التمييز الطبقي فادحة ، أن يطرأ أي تحسن على وضع المرأة في الاقتصاد والمجتمع، وهو التحسن الملحوظ في البلدان الاشتراكية كافة

والمشكلة التي تطرح نفسها كلما تطورت العلاقات الاشتراكية هي مشكلة

« نزع طابع الدولة » عن حماية المرأة والطفل، مشكلة التعديل الجذري للسياسة الاشتراكية في الميدان الاجتماعي فالعلاقات الجديدة التي تقوم على مستوى الانتاج وتوزيع المداخيل والتي تتيح للانسان بوصفه منتجاً ومسيّراً ان يتولى بنفسه تسيير شؤونه ، لا يمكن إلا أن تؤثر كبير التأثير باتجاه تعديل جميع العلاقات الاجتماعية بما فيها العلاقات العائلية ولسنا ننوي هنا ان نصف أهداف هذا التحول ، وإنما سنحاول بالأحرى ان نسلط الضوء على العناصر الجديدة التي يدخلها بناء العلاقات الاشتراكية في يوغوسلافيا على شرط المرأة الاجتماعي وعلى تحول الأسرة والبيت

٣ — عن وعي كامل شجعنا روال الأسرة الرعوية من غير ان نتخذ في الوقت ذاته موقفاً سلبياً من القيم التي أنتجها الانسانية عبر القرون والتي تعتبر من منجزات التطور الانساني الحب بين الاقارب والحب بين الأهل والاولاد وقد عملنا جهدنا على تحرير هذا الحب من الإكراه الذي تمارسه العلاقات والمصالح الاقتصادية الطبقية وهذا التحرير يتحقق عبر صيرورة تطورية تكون نهايتها اختفاء الأسرة بوصفها وحدة انتاج

ان قسماً كبيراً من صيرورة تحول الأسرة بوصفها وحدة انتاج يتحقق تحت تأثير التصنيع الرأسمالي في البلدان المتطورة وتظل مشكلة البيت العائلي الفردي مطروحة على البروليتاريا وعلى غالبية الشغيلة الذين لا يملكون وسائل انتاج وما دام الانتاج الطبيعي والخدمات التي لا تتجاوز إطار البيت الفردي تشكل الطريقة الأساسية في تلبية الحاجات اليومية لأعضاء الأسرة ، فإن هذين العنصرين يمارسان ضغطاً قوياً على اعضاء الأسرة ويمنعانهم من التمتع بمساواة فعلية في الحقوق من الواجب اذن تعديل البيت الفردي الذي غالباً ما يُخلط مع مفهوم العائلة إلى حد التوحيد بينه وبينها

ان انتصار القوى الاشتراكية يتيح امكانية التعجيل ، بصورة مخططة ، بتنمية قوى الانتاج، والإسراع — بفضل إلغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج—

في إقامة علاقات انتاج جديدة ، وتعديل الوضع الحقوقي لأفراد الأسرة ، وحفز تحول الأسرة والبيت لكن « إلغاء الأسر بوصفها وحدة اقتصادية » على حد تعبير انجلز لا يمكن ان يكون موضوع خطة للدولة انه لا يمكن ان يكون إلا عملاً واعياً يشجع تفتح جميع عناصر العلاقات الاجتماعية التي يولدها تطور القوى المنتجة على أساس الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج وهدف التدخل الاجتماعي في تعديل العلاقات والوظائف داخل الأسرة يجب ان يكون في المقام الأول تشجيع تحول العلاقات المادية وتعديل وضعها في الانتاج ومؤكد أن القوانين الاشتراكية المتعلقة بالزواج والأسرة والمعلنة عن التساوي المطلق بين الزوجين تمارس تأثيراً قوياً لكن ما دامت المرأة تابعة للرجل اقتصادياً وما دامت ترزح تحت وطأة بيت متأخر ، فإن ذلك التأثير سيبقى محدوداً وكلما تطورت القوى المنتجة توجب على كل فرد وعلى المجتمع في مجموعه ان يساهما بعملهما الواعي، في تحويل الانتاج الطبيعي للبيت الفردي الذي هو متخلف وغير ذي مردود إلى نشاط اجتماعي وعام من وجهة النظر المادية وغير المادية على حد سو ولبلوغ هـذا الهدف يتوجب قبل كل شيء خلق قاعدة مادية وفنية اجتماعية صناعة ، خدمات بلدية مؤسسات مدرسية ، مطاعم مؤسسات اجتماعية ومؤسسات للطفولة الـخ) وكل محاولة للجو إلى تدخل الدولة البيروقراطي في هذا المجال بهدف سبق التطور الاقتصادي والاجتماعي في مجمله يمكن ان تكون لها نتائج سلبية لا تقل فداحة عن محاولة الاحتفاظ بالعلاقات الرعوية السائدة . وتجربة البناء الاشتراكي في يوغوسلافيا تعطي فكرة — ولو في حدود متواضعة — عن النواقص والعيوب التي ترافق تطبيق المناهج الادارية بهدف التعجيل بهذه التطورات الاجتماعية العميقة

فإبان المرحلة الاولى من البناء الاشتراكي — التي نسميها بـ « المرحلة الادارية » — كانت جميع قوى الأمة المادية مركزة ومسيّرة من قبل مركز واحد . وقد أتاحت لنا هذه الطريقة ان نتجاوز بسرعة تأخرنا الاقتصادي

وأن نعيد بناء ما خربته الحرب. وتمشياً مع توقعات الخطة ، رصدنا موارد هامة للضمان الاجتماعي وللحماية الصحية وللتربية والثقافة وكانت الخطة تتوقع ، فضلاً عن ذلك ، اعتمادات هامة لحماية الطفولة وتشييد مؤسسات رعاية يتامى الحرب الخ

بعد انتصار الثورة الاشتراكية مباشرة شرعت السلطة الشعبية ، بمساعدة المنظمات الاجتماعية ، في إنشاء مؤسسات خاصة لمساعدة الأمهات المستخدمات والأسرة وقد أنشئت مؤسسات عديدة لرعاية الاطفال على مقربة من مكان عمل الأمهات وفتح فضلاً عن ذلك العديد من المطاعم والمقاصف

لكن تطبيق سياسة الدولة هذه ، أو بالاحرى انجاز خطة الدولة في هذا المجال أظهر وجود نواقص عدة فقد كان تطور المؤسسات المذكورة غير متساوٍ كانت احياناً لا تفي بالحاجات ، وفي احيان أخرى كانت طاقاتها اعظم بكثير من الحاجات

وكان تجهيز تلك المؤسسات يتطلب وسائل مالية هامة ، وهذا في وقت كانت فيه انتاجية العمل ضعيفة. وهكذا توجب على الدولة ان ترصد لها ميزانية هامة مقتطعة من الصناديق المركزية وكان عبء إيجاد الموارد الضرورية يقع على الشغيلة أنفسهم الذين كانوا يمحضون تأييدهم لمثل تلك السياسة لكن نظراً إلى ان جزءاً كبيراً من الاعتمادات كان يوزع على المؤسسات من دون أن تتاح للشغيلة أنفسهم امكانية التأثير المباشر على هذا التوزيع ، لذا فقد سادت شيئاً فشيئاً فكرة تقول ان الدولة هي صاحبة الصلاحية كلها وان المنتجين والاهالي لا علاقة لهم بالمسألة والحق ان الاعتمادات لم تستخدم دوماً بصورة عقلانية ولم توزع على مختلف أشكال حماية الطفولة وفي هذه الشروط ذهب جزء كبير من الموارد المرصودة لحماية الطفولة إلى عدد ضئيل نسبياً من الأسر كما لوحظت ، فضلاً عن ذلك ، ظواهر سلبية في العلاقات بين الاهالي والاطفال فبالنظر إلى ان نظام الحماية مشروط بعمل الأم وبعمر الطفل ، كان يحدث ان يوضع اطفال

أسرة واحدة في مؤسسات عدة يقيمون فيها لا اثناء عمل أهلهم فحسب ، بل ايضاً طوال الاسبوع وعلاوة على ذلك كانت مهمة العناية بالاطفال من ذوي الاعمار المتباينة موكولة إلى أجهزة متعددة الصحة العامة ، الضمان الاجتماعي، التربية الوطنية وكان هذا النهج يؤكد الطابع الاداري والبيروقراطي لتسوية مشكلات الأسرة وقد انتهى العديد من الملاكات والاهالي إلى الاعتقاد بأن الدولة هي المسؤولة الوحيدة عن حماية الطفولة وبأن مؤسسات الاطفال ليست مساعدة للأسرة فحسب بل يجب ايضاً ان تحل محلها تماماً وقد تترجم عهد الدولة هـذا في السياسة الاجتماعية بظهور ميل الى إفقار العلاقات الانسانية والحياة الفردية وإلى إضعاف الروابط العاطفية بدلاً من تقويتها

وبعد نزع الطابع المركزي عن تسيير الشؤون الاقتصادية والعامة سويت المشكلات المتعلقة بمساعدة الأسرة بطريقة مغايرة. فقد تلقى جميع شغيلة القطاع الاشتراكي — وليس فقط الذين يرسلون أطفالهم إلى احدى تلك المؤسسات تعويضات عائلية كما ان جزءاً كبيراً من العناية بالاطفال لم يعد يتم بصورة مجانية وهكذا بدأ الاهالي يسلكون سلوكاً مغايراً تجاه مؤسسات الاطفال وحماية الطفولة كما وسع نطاق حماية الأمومة وزيدت مدة الاجاز المدفوعة للنساء الحوامل

٤ — لكننا نستطيع ان نؤكد بأنه انما مع وضع مبدأ التسيير الذاتي العمالي موضع تطبيق طرأ تبدل ثوري على الجهود المبذولة لتسوية التناقض بين الأمومة وبين مساهمة المرأة في الحياة السياسية والاقتصادية

لقد أدخل التسيير الذاتي العمالي والاجتماعي عنصراً جديداً على العلاقات الاجتماعية فقد عُهد إلى جميع المنتجين بحقوق من نمط جديد تسيير وسائل الانتاج الاجتماعية وتوزيع المداخيل حسب العمل المقدم وقد ولدت على هذا الاساس علاقات جديدة بين المنتجين فالملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج وتسيير الانتاج وتوزيع المداخيل حسب العمل المقدم حررت العمل وعلاقات

الانتاج فقد فقدت هذه العلاقات طابع الأجر ووعى الشغيلة الصلة المتبادلة بين المصلحة الفردية والمصلحة الجماعية وحلت ادارة الاشياء محل ادارة البشر. وتناقصت صناديق اتحاد الجمهوريات وصناديق الجمهوريات المخصصة لحاجات المجتمع كله ، بينما زادت الموارد التي يسيرها المنتجون مباشرة في مجالس عملهم وفي الكوموناات وأصبح الاهتمام بالصحة العامة وبالتربية وبحاجات السكان اليومية من صلاحية الكوموناات والمجالس العمالية التي تسير مباشرة حوالي ٧٥ ٪ من الدخل القومي

وفي نظام توزيع المداخيل تصبح الكومونة وحدة انتاج من نمط خاص فالمنتج هو من الآن فصاعداً مسيِّر لا في مصنعه فحسب ، لكن ايضاً في جماعيته الأوسع نطاقاً ، في الكومونة التي يسوي فيها ، بفضل القيم التي يخلقها اعضاء الكومونة ، جميع المسائل المتعلقة بالانتاج والاستهلاك والسوية الاجتماعية ومستوى الحياة الفردي ، وفي التحليل الاخير جميع المشكلات المتعلقة بالاسرة

ان تجربة مختلف الانظمة الاجتماعية تشير إلى أن مشكلة شرط المرأة لا يمكن ان تحل لا بالاعتراف بحقوقها ولا باحترامها ضمن اطار الاسرة ولو كانت من النمط الحديث ، ولا ضمن اطار المصنع مهما تكن فعالية الحماية التي يقدمها تشريع العمل أو التنظيم الاقتصادي ان الكومونة — رابطة المنتجين — هي وحدها الوحدة الواسعة بما فيه الكفاية حتى تستطيع وتريد انطلاقاً من مصالحها الاقتصادية الموضوعية ونفوذ الشغيلة المباشر — أن تسوي مسألة كيفية توفير جميع الشروط التي تتيح لأعضاء الكومونة زيادة انتاجية عملهم إلى الحد الاقصى ولما كانت الكومونة رابطة المنتجين جميعاً فهي تهتم ايضاً بشؤونهم الفردية وبصحتهم وكذلك بصحة وتربية أطفالهم وبديهي ان هذه المسائل كافة ذات صلة وثيقة بالاهتمام بزيادة الانتاجية وبتوطيد القاعدة المادية للمجتمع وبضمان حياة أسعد لكل فرد

ان زيادة الانتاجية تتيح لأعضاء الكومونة أن يحلوا بفاعلية أكبر المشكلات اليومية والمشكلات الفردية. وعلى هذا فإن تحول النساء إلى مساهمات في الانتاج وفي تسيير الشؤون العامة، وتحول مشكلات البيت الفردي إلى مشكلات اجتماعية. فخلاص الكومونة لا يتحققان بفضل خطة الدولة وإنما بفضل النشاط الذاتي لأعضاء الكومونة. هكذا يتم انتخاب النساء بأعداد متزايدة دوماً في أجهزة التسيير الذاتي وفي أجهزة الديموقراطية المباشرة. والحق ان هذه الاجهزة تهتم بالمشكلات العينية التي تهم الشغيلة مباشرة. وهذا ما يفسر ان مساهمة النساء فيها أنشط منها في الاجهزة التمثيلية. إذن فمشكلات النساء تحل، تحت التأثير المباشر للنساء ولمصالح الشغيلة، باعتبارها مشكلات اجتماعية. وتتعدل طبيعة الحياة السياسية. ويعود الانسان الاشياء إلى ادارة شؤونه.

ان مشكلة عمل واختصاصات المرأة على سبيل المثال لا تنطرح في الكومونة على انها حق أو مشكلة تخص النساء وحدهن. وإنما على انها مشكلة الكومونة التي تناضل في سبيل ان يزيد أعضاؤها انتاجيتهم إلى أقصى حد. والواقع ان هذا ليس بالنسبة اليها التزاماً اخلاقياً فحسب. بل هو يمثل أيضاً مصلحة مباشرة. فتوزيع الدخل حسب العمل المقدم يشجع المرأة والرجل على حد سواء على التقدم في هذا الاتجاه. وعلى تمكين النساء من العمل مع الاهتمام بصورة مشتركة بالاطفال والحرص على تحرير النساء من عبء الاعمال المنزلية.

٥ ـ ان ما يهمنا في هذا السياق الطريقة التي تنطرح بها مشكلة تخفيف عبء الاعمال عن أمهات الأسر.

فكما ان تحرير العمل لا يعني تحرير الانسان من ضرورة العمل، وانما تحريره من الاستغلال حتى يصبح العمل حاجته الحيوية الاولى. كذلك لا يمكن اعتبار الأمومة مجرد عبء لا غير ولا يمكن اعتبار تخفيف الاعمال الذي تقتضيه الأمومة تحريراً للمرأة من وظيفتها كأم، وللأهل من ضرورة الاهتمام بأطفالهم

ليتركوا هذه المهمة لدولة مجردة والمسألة المطروحة هي معرفة كيفية تمكين المرأة من أن تكون أماً سعيدة وألا تتخلى عن نشاطها المبدع ومهنتها بسبب الأمومة وأن تكفل للأطفال كل العناية الفردية الضرورية

ان هذا التوفيق بين الأمومة والعمل لا يمكن أن يتحقق إلا اذا تحررت الصلات العاطفية والزوجية من الإكراه الاقتصادي والاجتماعي الذي يدفع بالمرأة إلى البحث فيها عن الأمان المادي أكثر منه عن الروح الرفاقية والحب ان استقلال النساء الاقتصادي واختيار مهنة يشعرن تجاهها بالحب واكتساب الاختصاصات الضرورية هو الاساس الاول لحياة عاطفية وعائلية سعيدة وكل هذه العناصر تمارس تأثيراً أكيداً على الرجل الذي لا يعود في وسعه ان ينظر إلى المرأة على انها مجرد كائن تابع له ، أو في أحسن الاحوال على انها أم أولاده لا غير

ان الامومة حتى تكون سعيدة يجب أن تكون ايضاً واعية وهكذا تنشأ في اطار الخدمات الصحية مراكز للاستشارة بصدد وسائل منع الحمل والإجهاض غير مسموح به إلا في حالات مبررة تماماً ولأسباب اجتماعية أو متعلقة بالصحة العقلية والإجهاض ، بسبب نتائجه الضارة بالنسبة إلى صحة المرأة ، غير مرغوب فيه كشكل دائم من تخطيط النسل وليس الهدف من الخدمات الصحية تحقيق بعض أهداف متعلقة بالسياسة السكانية ، وإنما مساعدة المرأة والأسرة

٦ – في يوغوسلافيا ما يزال التطور الذي ينبغي ان يؤدي لا إلى حل التناقضات في حياة النساء فحسب بل ايضاً الى اندماج العنصر الفردي والعنصر الجماعي في حياة كل فرد ، ما يزال هذا التطور في بدايته والصراع بين العمل والأمومة هو جزء لا يتجزأ من استلاب الانسان بالنسبة إلى عمله وإلى تسيير شؤونه في المجتمع الطبقي فالتصور الكلاسيكي عن الحقوق المدنية في المجتمع البورجوازي لا يفعل من شيء سوى انه يكشف بوضوح أكبر أيضاً عن الطبيعة

العميقة للاضطهاد الطبقي وكذلك الحال بالنسبة إلى مساواة المرأة الحقوقية فالمساواة الحقوقية لا تستطيع وحدها ان تتيح للمرأة امكانية الوصول إلى الوضع الافضل الذي يتمتع به معظم الشغيلة وعلى هـذا فإن القانون الذي يمنح النساء حقوقـاً متساوية لا يلغي لا الاضطهاد ولا الاستغلال الطبقي والمساواة في الحقوق ليست إلا نقطة انطلاق هامة. والطريق المفضي إلى تحرر النساء الحقيقي ليس في الدرجـة الاولى طريق النضال من أجل توسيع الحقوق التي تكفلها لهن قوة تقف فوق المجتمع الدولة ان تسويـة التناقضات والطريق المفضي إلى تحرر النساء يأخذان مكانهما في الصيرورة التطورية الواسعة التي يتلاشى في مجراها نظام الأجر وتفنى الدولة ليحل محلها تسيير العمال والمواطنين الذاتي ، وهذا في الوقت الذي لا تعود فيه العلاقات الانسانية قائمة على أساس الحقوق والواجبات المنصوص عليها في القانون ، وإنما على أساس القواعـد الاخلاقية الجديدة لمجتمع يجهل الاستغلال والتمييز وهذا هو ايضاً الطريق للوصول إلى علاقات اجتماعية أسمى يحل فيها مبدأ التوزيع حسب الحاجات محل مبدأ التوزيع حسب العمل المقدم ، وذلك بفضل نمو انتاجية العمل ووفرة الخيرات المادية وبذلك تكون قد قامت العلاقات الاجتماعية الشيوعية

ان تنسيق العلاقات العائلية مع تطور القوى المنتجة والعلاقات الجديدة في الاقتصاد والمجتمع هو صيرورة تطورية عضوية وليس تطبيقاً لمخططات مثالية أو تعليمات صادرة عن الدولة ومساهمة المنتجين وسائر المواطنين في تسيير الشؤون العامة هي احد العوامل الحاسمة في سرعة التقدم الاقتصادي لكن هذا الوضع الجديد للمواطنين يستلزم أن يكونوا مالكين لتوجيه واضح لا فيما يتعلق بالمبادىء الاشتراكية العامة فحسب ، بل ايضاً فيما يتعلق بتفتـح العلاقات الانسانية ولا سيما العلاقات العائلية وبدءاً من هنا يمكن للكثير من مشكلات مساهمة النساء في الحياة العامة ان تصاغ وتحل بسرعة أكبر

وغني عن البيان ان مساهمة عدد متعاظم باستمرار من المواطنين في تسويـة

هذه المسائل تفسح المجال أمام ظهور مقترحات وتظاهرات عديدة لا تكون متفقة دوماً والجهود الجماعية والثقة التامة بالشعبية وتيسير اتساع مساهمة المواطنين في تسيير الشؤون العامة هما الوسيلة الوحيدة للتغلب على التخلف والبيروقراطية اللذين هما عقبتان رئيسيتان أمام إقامة علاقات اجتماعية جديدة

ان القوى الاجتماعية الذاتية رابطة الشيوعيين ، التحالف الاشتراكي ، النقابات وسائر المنظمات الاجتماعية كل ما في وسعها لتحديد منظورات اشتراكية بالرغم من كثرة المشكلات والصعوبات ، ولتبيان ضرورة زيادة نشاط كل فرد وتعزيز التسيير الذاتي الذي هو الطريق الوحيد المفضي إلى حياة أفضل وأسعد وأكرم للانسان هذا الطريق ليس سهلاً ، لكنه الوحيد المفضي إلى النتائج المطلوبة والحلول الدائمة .

عن مجلة « مسائل الاشتراكية الراهنة

المشكلات الراهنة للمرأة السوفياتية

بقلم فيرا بلشاي

في قاعة احدى محاكم موسكو التي تتولى الفصل في قضايا الطلاق ، وقفت امرأة رائعة الجمال تطلب الطلاق من زوجها الوسيم هو الآخر وكانت تقف إلى جانبها ابنتها التي لها من العمر تسع سنوات وقالت طالبة الطلاق

— إن اسرتنا قد تحطمت ، والغلطة غلطتنا نحن الاثنين !

الزوج خرّاط في مصنع للمعادن ، وهي مساعدة رئيس ورشة . وقد تزوجا عن حب قبل عشر سنوات ، وكان لهما من العمر حوالي عشرين عاماً ولكن سرعان ما ساءت الأحوال وسأل القاضي

— لماذا ؟ هل يشرب ؟ هل يغازل النساء ؟

— كلا ، لا هذا ولا ذاك ولكن ليس بيننا من صداقة انني اعمل في المصنع وأهتم بالبيت وأربي طفلتي وأدرس وأقرأ أما زوجي فلا يهتم بشيء ما يكاد يعود من العمل حتى ينهمك في لعب الورق حتى منتصف الليل وهو لا يقرأ ابداً ، ولا يفهم صبواتي وبسبب ذلك ، نتخاصم كثيراً

ولم تجد المحكمة بداً بعد إقرار الزوج بكل هذه الوقائع من إخفاء الصفة

القانونية على انفصالهما وبعد انتهاء الجلسة حاولت أن أعرف المزيد من ايفانوفا. وحاولت هي بدورها أن تبرر نفسها

كان من الصعب علي أن أستسلم لفكرة الطلاق لو تعلمين مدى ما كنت مستعدة لبذله في سبيل الحفاظ على أب لطفلتي ولكن كل شيء ذهب أدراج الرياح ، ولم تزدد حياتنا العائلية الفارغة إلا تدهوراً وكلما أرخى نفسه وأمعن في تهاونه ، ازددت شعوراً بالإذلال معنوياً

ما السبب إذن في تفكك أسرة ايفانوف ؟

بصراحة أقول ينبغي ان نبحث عن هذا السبب في واقعة غالباً ما تغيب عن اذهاننا عندما نتكلم عن نتائج تحرر المرأة في بلادنا نضج المرأة العقلي

ان المساواة بين الجنسين في المجتمع السوفياتي يشار اليهـــا عادة بالإنجازات الكبيرة للنساء في مجال العمل ٤٥,٥ ٪ من النساء بين كل العاملين في الصناعة ، و٥٣ ٪ من النساء بين الاختصاصيين من ذوي التعليم العالي ، و٣٦ ٪ بين الشغيلة العلميين في الاتحاد السوفياتي وهذه الاحصاءات ان دلت على شيء فإنمـــا على الاهمية الاقتصادية والثقافية لعمل النساء في المجتمع السوفياتي . ذلك انهن ينتجن نصف الثروة الوطنية

وعلى هذا فليس من المدهش ان تكون المرأة العاملة قد اكتسبت مكانة متينة في المجتمع السوفياتي ولم يعد مقبولاً في هذه الحال ذلك الموقف القديم القائم على ازدراء عمل النساء وذكائهن ولقد كان مفروضاً ان تتلاشى من تلقاء نفسهـــا مخلفات الايديولوجيا البورجوازية ، عن العلاقات بين الرجل والمرأة في الحيـاة اليومية ولكن الأمر على ما يبدو ليس بمثل هذه البساطة

لماذا ؟ لأن الظاهرات الايديولوجية لا يمكن أن تتولد مباشرة وبخط مستقيم من الأساس الاقتصادي وقوة العادة والآراء المسبقة لا تتجلى في مجال كما تتجلى في مجال الاخلاق الجنسية والحياة اليومية ، على حد ما لاحظ لينين ولهذا فإن

هدم القديم وبناء الجديد في هذا المجال يتسمان بصورة أعقد وأبطأ بكثير مما في مجال الاقتصاد

وإذا كانت بلادنا قد دخلت اليوم في مرحلة بنـاء الشيوعية فإن دور المرأة قد تعاظم هو الآخر ، لا بوصفها عاملة فحسب ، بل أيضاً كمربية لمواطني المجتمع الشيوعي والحال ان تربية الاطفال تشكل واجباً اجتماعياً وعائليـاً اضافياً بالنسبة الى المرأة ومن هنا كانت المرأة بحاجة الى عناية خاصة من قبل المجتمع. ولا عجب إن كانت مسائل الحياة اليومية والبيتية تحظى باهتمام متعاظم من قبل السوفياتيين

واليكم خلاصة المناقشة التي دارت حول هذا الموضوع بين عمال معمل السكر في بلدة كامنسك

لقد انقسم العمال بين رأيين ، الاول يقول ان « المرأة تساهم في بناء الشيوعية بعملها في مصنع أو كولخوز أو مشروع أو دائرة ، أي بمقدار ما تغني اقتصادنا القومي بعملها الشخصي » ، والثـاني يرى أن « المرأة تساهم ايضاً في بنـاء الشيوعية بكونها ربة بيت تنشىء أولادها وتساعد روجها الذي يعمل في حياته اليومية »

وإني لأعتقد ان انصار الرأي الأول هم الأقرب الى الحقيقة والواقع ان طرح مسألة مساهمة المرأة في الحياة الاجتماعية من خلال الخدمات التي تقدمها على صعيد الحيـاة اليومية الى « الزوج الذي يعمل » ، ينم عن طريقة بورجوازية في التفكير فالحقوق البورجوازية تسلب المرأة المتزوجة شخصيتهـا الانسانية الخاصة ، وتميع هذه الشخصية في شخصية الزوج الفائق القوة الذي يمثل شخص « ربة بيته » ومصالحها في آن واحد والرجل المتحرر من ربقة هـذه الايديولوجيا ، الرجل الواعي حقـاً هو ذاك الذي يسعى الى توفير الشروط الضرورية لمساهمة زوجته في الحياة الاجتماعية عن طريق مشاطرتها الواجبـات البيتية .

ويطرح الاولاد مشكلة أخرى فكثيرات هن النساء اللاتي يضطررن الى التزام بيوتهن لأنهن لا يستطعن وضع أطفالهن في مؤسسات للأطفال وهـــذا يعني عملياً حرمان المرأة من المساهمة في الانتاج الاجتماعي وصحيح أن تربيـة الاطفال هي عمل اجتماعي ، ولكن المرأة في المجتمع الجديد لا يمكن ان تكتفي بأن تكون مجرد مربية وإليكم هذا المثال

لقـد حصلت ريسة ايفانوفا ستنيك على لقب « بطلة العمل الاشتراكي » في عام ١٩٤٩ نظراً الى محصول القمح الرائع الذي جنته في ذلك العام ولم تكف ريسة عامـــاً بعد عام عن مضاعفة جهدها الانتاجي ثم تزوجت عن حب وأنجبت طفلين ولكن سرعان ما راح زوجها يثير في وجهها المشاكل ويهددها بالطلاق لانصرافها عنه الى عملها وبالرغم من أن مدخول الكولخوز كان يزداد سنة بعد سنة إلا انه لم يكن يملك روضة اطفال وراحت ريسة ، المتمزقة بين بيتها وحقول الكولخوز ، تتخبط كسمكة على سطح من حليد وفي نهاية الأمر انهارت ، وفصلت من الكولخوز وها هي اليوم تتشكى

— انني أقضي وقتي ، من أول السنة إلى آخرها ، في بستاننا الصغير او أمام الفرن هذه هي كل حياتي وعلاوة على ذلك ، يلومني زوجي ويتهمني بأنني آكل خبزه هذا جزائي

— هل تعتقدين أن بالامكان مساعدتك ؟ وكيف

— الأمر في منتهى البساطة اننا بحاجة إلى روضة أطفال في الكولخوز

ولقد نشرت « الازفستيا » مقالاً بقلم ن. دولينيا ، صاحبة الخبرة الواسعة في قضايا المرأة والأسرة ، حاولت فيه أن تجيب على هذا السؤال البالغ الأهمية هـــل يتفق عمل النساء العاملات المفيد اجتماعياً مع واجباتهن البيتية ولقد خلصت الى القول بأن من صالح الأسرة ومستقبل المجتمع معاً أن تعمل الأم أي أن تساهم في عمل مفيد اجتماعياً. وقد يحدث ان ينشأ أولاد الأم التي لا تعمل نشأة صالحة ، ولكن دولينينا تضيف قائلة « أرجو المعذرة من الأمهات اللائي

لا يعملن،ولكن بصراحة أقول انه في مثل هذه الأسر يترعرع أفراد مفسدون، عاجزون عن « التكيف مع العمل »

ولكن ن. دولينينا تلاحظ هي نفسها ايضاً انه من الصعوبة بمكان ان تعمل الأم وأن تسهر في الوقت نفسه على بيتها وتربية أولادها ولهذا فإنها تقترح ان تمنح الأم العاملة الحق في يوم عمل ناقص وتشير إلى أن هذا الاقتراح قابل للتطبيق في المستقبل فقط ، في حين ان المشكلة تتطلب حلاً عاجلاً

ولقد نشرت « الازفستيا » ردود القراء على مقال دولينينا وقد لاحظ هؤلاء القراء عن حق أن تخفيض يوم العمل بالنسبة إلى الأمهات لن يضر بميزانيات الأسر فحسب بل سيلحق الأذى ايضاً بالاقتصاد القومي ولهذا رأى القراء أن الحل الوحيد في الوقت الراهن هو توسيع مؤسسات الاطفال ، وان تخفيض يوم العمل غير جائز إلا في المستقبل ، أي بعد إنجاز الخطة السبعية وبشرط ألا يتأثر الاقتصاد الوطني بهذا التخفيض البتة

والواقع انه حتى بعد إنجاز الخطة السبعية ، بل حتى بعد الانتصار الكامل والنهائي للشيوعية ، ستظل مصالح تطور القوى المنتجة تقتضي مساهمة النساء مساهمة كاملة غير منقوصة في الانتاج الوطني

ثم ان عدداً آخر من القراء قد رأى أن خير وسيلة لتخفيف عبء الأعمال المنزلية عن كاهل المرأة هي « إعادة تربية » الازواج الذين ينفرون من هذه الاعمال والحق ان هذا الاقتراح لا يتقدم بنا خطوة واحدة الى الامام ، بل يرجع بنا القهقرى فبدلاً من ان نحرر المرأة من نير الاعمال المنزلية لنجعل منها عدلاً للرجل ، ينبغي علينا بموجب ذلك الاقتراح ان « نخفض » الرجل إلى مستوى الاهتمام بالاعمال المنزلية وان نجعل منه بالتالي « مساوياً » للمرأة في تلك العبودية المنزلية المذلة

والحقيقة انه ما دامت النساء مرغمات على حمل عبء الاعمال المنزلية من غسل وطبخ وتنظيف وتربية فإن قواهن وامكانياتهن ومساهمتهن في بناء

المجتمع الشيوعي ستظل محدودة ، وبالتـــالي فإن هذا البناء بالذات سيتأخر ولهذا نقول انه ليس هنـــاك غير مخرج واحد تحرير المرأة بقدر الامكان من عبء الاعمال المنزلية عن طريق توسيع شبكة روضات الاطفال والمطاعم والمغاسل العامة

ولقد كان موقف لينين واضحاً صريحاً من هذه المسألة

« إن المرأة تظل مستعبدة البيت لأن حقـــارة العمل المنزلي تسحقها وتخنقها وتبلدها وتحطها وتقيدها بالمطبخ وغرفة الاطفال وتبدد تعبها وكدها في عمل لا منتـج الى حد البربرية ، حقير ، مثير للأعصاب ، ممل ومحط إن التحرر الحقيقي للمرأة ، الشيوعية الحقيقيـــة يبدآن فقط يوم يبدأ النضال الجماعي ضد حقارة العمل المنزلي ، وبعبارة أدق، يوم يعاد تنظيم هذا العمل على أساس جماعي ، على أساس تنظيم اشتراكي »

من هنـــا نرى ان حل « المشكلة المنزلية » هو أحد شروط بناء الشيوعية الحقيقية في نظر لينين الذي كان يرى أن من الأفيد والأربح ، من وجهة نظر الدولة ، ان يلقى عبء العمل المنزلي اللامنتج على مؤسسة اشتراكية كبيرة

وهذا ، في الحق ، قانون عام للانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية هذا الانتقـال الذي تنتقل فيه صيرورة التشريك تدريجياً إلى ميدان الاستهلاك بعد ميدان الانتاج ومهما تحمل المجتمع والدولة من نفقـات في سبيل انشاء دور الاطفال والمطاعم والمغاسل العامة ، فإن العملية تظل رابحة اقتصادياً في خاتمة المطاف

ولكن المسألة ليست مسألة اقتصادية محضة ، بل هي أيضاً مسألة سياسية ، لأن المرأة لا تستطيع أن تؤدي دورها السياسي كاملاً في بناء المجتمع الشيوعي إلا إذا تحررت من « حقارة » العمل المنزلي اللامنتج

وأحد الجوانب الأساسية للوجه السياسي للمسألة هو الجـانب الايديولوجي

الذي ينعكس عليه بصورة بالغة الوضوح والحدة الصراع بين القديم والجديد فمما لا شك فيه أن المجتمع القديم يترك آثاره في المجتمع الجديد على صعيد الايديولوجيا والحياة اليومية ، حتى بعد حقبة طويلة من تقويض الأسس الاقتصادية والسياسية لذلك المجتمع ولا تتجلى آثار المجتمع القديم في مجال كما تتجلى في مجال الموقف من المرأة حتى وإن كان العهد الاشتراكي قد جعل من كل مواطنات الجمهوريات السوفياتية مساويات للرجل في الحقوق

لنأخذ جمهوريات آسيا الوسطى على سبيل المثال ففي طاجكستان ، حيث لم تكن أي امرأة تعرف الكتابة أو القراءة قبل الثورة ، أصبح عدد المدرسات اليوم ٧٦٢٠ وعدد الطبيبات ١٢٠٠ وفي جمهورية القرغيز بلغ عدد النساء العاملات في الصناعة ٤٠ ٪ من مجموع العاملين وفي جمهورية التركمان بلغت هذه النسبة ٥٠ ٪. وفي اوزبكستان ٤٥ ٪. ومع هذا كله فإن آثار النظرة الاقطاعية إلى المرأة لم تمح بعد نهائياً فلقد أُتيح لي حضور جلسة لمحكمة سمرقند الشعبية التي انعقدت بناء على طلب الكولخوزية (ي) التي رفعت دعوى ضد زوجها لأنه يرغمها على وضع الحجاب ويمنعها من العمل في الكولخوز ويضربها. وقد انهال عليها ضرباً في المرة الاخيرة وهي حامل والزوج ، المولود في عام ١٩٢٢ ، يتمتع بتحصيل ثانوي ناقص ويعمل في دائرة حكومية وقالت (ي) أمام المحكمة

— قبل زواجي لم أكن أضع الحجاب ، وكنت أذهب إلى السينما والمسرح ، وأدرس ومنذ أن تزوجت حظر علي الخروج سافرة ، ومنعني من العمل في الكولخوز ومن الذهاب إلى الاجتماعات وعندما لا أنفذ أوامره يضربني انني لم أغادر عتبة البيت منذ يوم زواجي

وقد اعترف زوج (ي) بكل هذه الوقائع ، وقال إنه فعل ما فعل لا بدافع ديني ، وإنما لأنه يعتبر زوجته ملكه الشخصي ولأن « العادة » جرت بأن تتحجب المرأة .

وإذا كان هذا الزوج يذكرنا بعقلية رجال القرون الوسطى، فإننا لا نستطيع أن ننسى أننا نجد من أمثاله في أوساط « علمية راقية » وفي بلاد « متقدمة » أقلم ينسب اوتو بولاك ، العالم الاجتماعي الاميركي ، في كتابه « إجرام النساء » الصادر في عام ١٩٥٠ إلى المرأة رذائل وشروراً « فطرية » ؟ أولم يؤكد ان المرأة بطبيعتها كذابة ومرائية ومحتالة ؟ أولم يستمد بعض « براهينه » من كتاب « مطرقة الساحرات » الصادر في عام ١٤٨٧ ؟

ومن آسيا الوسطى ايضاً روت لي احدى الصديقات مأساتها

— كنا متحابين ، وكانت بيننا نقاط مشتركة كثيرة . ولكني وجدت نفسي ملزمة بالاختيار بين الحب والعلم فقد كنت على وشك الحصول على اجازة في العلوم ، ولكن زوجي طلب مني أن أهجر الدراسة كان يريدني ان أتبلد حتى يحتفظ بـ « تفوقه » علي وان أتصرف كإمرأة حمقاء وأن أمتثل لأوامره مهما تكن سخيفة

— وهل هجرته ؟

— كلا ، انه هو الذي حزم حقائبه وهجرني بعد خصام أخير

لقد كان ذنب صديقتي الجميلة أنها أحبت العلم وأن زوجها شعر بأنها بدأت تتجاوزه... وما دام تفوق الرجل على المرأة هو أساس الحياة العائلية في نظره، فأي معنى يتبقى لحبهما ولحياتهما المشتركة ؟

إن من أولى منطلقات التصور البورجوازي عن العالم ان ينظر الرجل الى المرأة من أعلى ومن هنا فإن أولى واجبات الاشتراكيين ان يلغوا كل ما يضع المرأة في مستوى أدنى من الرجل وهذه مهمة صعبة لا تستوجب زيادة عدد مؤسسات الاطفال والمطاعم والمغاسل العامة فحسب ، بل ايضاً تنشئة المواطنين تنشئة اشتراكية ثورية وتسليحهم بالاخلاق الاشتراكية الاصيلة

وهنا لا بد ان أشير الى بندين اثنين في مرسوم ٨ تموز ١٩٤٤ يحدان من

والحق ان هذا المرسوم بدلاً من أن يعزز الاسرة ، قـــد حرر الآباء من واجباتهم الابوية تجاه أولادهم الطبيعيين ، وكان بالتالي مصدراً لمآسٍ انسانية عديدة. ولقد اتيح لي ان أطلع على رسائل احتجاج على نواقص المرسوم المذكور، ومنها هـــذه الرسالة رجل يحاول منذ عشر سنوات الحصول على الطلاق من زوجته الاولى ، ولكن بلا جدوى مع أنه يعيش مع امرأة أخرى منذ العديد من السنوات وقد أنجب منها ولدين وبالرغم من ان الاب يعيش معها ويتولى تربيتهما ، إلا انهما مجهولا الاب في نظر دائرة الاحوال المدنيـة ، وزملاؤهما في المدرسة والروضة يعيرانهما بأن أباهما ليس « أبـــاً » حقيقياً وقد كتب الاب يقول « اذا كنت قـــد حكمت عليهما بلعنة العار عندما انجبتهما وأنشأتهما خارج نطاق القانون ، فلأعاقب أنا ولكن لمَ يعاقب القانون الطفل بمثل هذه القسوة ؟ »

والحق ان القانون باعفائه الآباء من مسؤولية أبنائهـــم الطبيعيين يشجع اللاأخلاقية الجنسية لدى الرجـــال ويعاقب الاطفال على حرية المرأة الجنسية ويحرم الآباء الراغبين في تحمل مسؤولياتهم من حق الأبوة وبصراحة أقول ان عدد الاطفال الذين يولدون خارج نطاق الزواج كبير في بلادنا ، هـذا بالاضافة إلى العدد الكبير من حالات الإجهاض الذي تجد فيه الفتاة – الأم ملجأها الاخير أمام احتمال ولادة ابن لا أب له

ان ضرورة تعديل المرسوم المذكور تنطرح اليوم أكثر من أي وقت بعد أن ظهر في بلادنا نموذج جديد من المرأة المواطنة المتمتعة بكافة حقوق المواطنيـة

---

(١) البندان اللذان تشير اليهما الكاتبة يستهدفـان في نظر واضعها الى تعزيز الأسرة (بعد الغزو الهتلري) ولهـذا نص المرسوم على ان الطلاق غير ممكن إلا في الحالات ذات الضرورة القصوى وعلى أن « الزواج الشرعي هو وحـــده الذي يفرض على الزوج والزوجة حقوقـــاً وواجبات متساوية » . « المترجم »

والجامعة بين العمل المبدع والالتزامات النسوية المحضة في الاسرة

ومشكلة جمع المرأة بين العمل المهني وبين الالتزامات العائلية ولا سيما ما يتعلق منها بالامومة، ليست بالمشكلة الجديدة ولقد نفى الانصار البورجوازيون لحقوق المرأة وما الوا يبذلون امكانية هذا « الجمع بين ما لا يمكن جمعه

تقول إلينا لانج ، زعيمة الحركة النسوية البورجوازية في ألمانيا ، إن المهنة والامومة تشكلان بالنسبة الى المرأة « ثنائية مستحيلة » من حيث كونها أماً وعاملة مهنية ونظراً إلى ان المهنة لا يمكن تصبح بالنسبة إلى المرأة ما هي بالنسبة الى الرجل ، لذلك فإن على المرأة، نظر إليها لانج ، ان تكرس نفسها لواجباتها العائلية ولأمومتها

وهذا الموقف هو المثال النموذجي للرياء البورجوازي ذلك ان عدد النساء العاملات في البلدان الرأسمالية لا ينى يزداد ، ولا سيما ان اليد العاملة النسوية أقل كلفة وأكثر انصياعاً للاستغلال ونسبة النساء العاملات في مجموع البلدان الرأسمالية تمثل اليوم ٣٠ ٪ من مجمل اليد العاملة ومع ذلك فإن الاخلاقيين البورجوازيين يحاولون إقناع المرأة العاملة بأن حياتها العائلية هي مسألة «خاصة» بها ، وبأنها هي وحدها المسؤولة عن الإجهاد الذي تلحقه بنفسها بجمعها بين المهنة والامومة ، متناسين عن عمد ان العمل في البلدان الرأسمالية ليس مسألة ترف واختيار حر

واستفحال وضع المرأة العاملة لا يتجلى في مجال كما يتجلى في موقف أرباب العمل من أمومة العاملات. فأرباب العمل هؤلاء يفضلون دوماً النساء العازبات ، وغالباً ما يلجؤون إلى تسريحهن عندما يتزوجن ، ولا سيما عندما يحبلن ، ويرغمونهن على توقيع بيان يتعهدن بموجبه بترك العمل دونما تعويض في حال زواجهن

وهكذا ، وفي الوقت الذي تستهلك فيه الرأسمالية قوى المرأة العاملة ، تنكر عليها الحق في العمل بمجرد أن تصبح زوجة أو أماً . وذلكم هو مصدر

التشويه الكبير الذي يلحق بطبيعة المرأة كإنسان في المجتمعات الرأسمالية ، هذه المجتمعات التي لا تفهم وتنكر ان العمل النافع اجتماعياً والاحتكاك الدائم بالمجتمع هما بالنسبة إلى الكائن البشري ، سواء كان رجلاً أم امرأة ، حاجة طبيعية شأن الحاجة إلى الطعام أو النوم

وبالمقـــابل فإن من أول واجبات المجتمع الاشتراكي ان يخلق الشروط المناسبة لجمع المرأة بين المهنة والامومة وعندما نقول « الشروط المناسبة » فإننا نقصد بها الشروط التي تحرر المرأة العاملة من تحمل أعباء إضافية لا يتحملها عادة الرجل العامل

لنأخذ على سبيل المثال معمل تريخغورنايا للصناعة النسيجية إن غـــالبية العاملين في هذا المصنع هم من النساء ٨٠ ٪ أو أكثر وعدد المهندسات فيه ١٤٥ من أصل ٢٢٥ و ٧٤,٥ ٪ من العاملات هن عاملات مختصات ، و ٤٢ ٪ منهن عاملات طليعيات

ويملك المصنع ثلاثـــة مزاود للرضع ، وسبع روضات أطفال ، ومصح أطفال ، وحديقة أطفال ، ومدينة أطفال ، ومدرسة كبرى للأطفـــال ، ومعسكراً كشفياً

وقـــد انفق المصنع في عام ١٩٥٩ حوالي ١٠٠,٠٠٠ روبل على المزاود ، ٩٤,٠٠٠ روبل على روضات الاطفـــال ، و ٣٠,٠٠٠ روبل على المعسكر الكشفي ، و ١٥٠,٠٠٠ روبل على نفقات الإقـــامة في المصحات ومراكز الاستجمام وبلغت مدفوعات التأمينات الاجتماعية لإجازات الامومة ورعاية الامومة ٤,٧٩٦,٠٠٠ روبل وإذا ما اخذنا بعين الاعتبـــار قروض الدولة ومعونات النقابة ، يكون مجموع ما أنفقه المصنع على مؤسسات الاطفال والامومة ١٠ ملايين روبل في عام ١٩٥٩

وقد التقيت بأنا ستاسيا سوروكينا التي تعمل في المصنع منذ عام ١٩٣٧ .

إنها أرمل (زوجها قتل في الحرب) ولها ولدان وقد قالت لي

— كانت سنوات الحرب صعبة للغـــاية ولولا مساعدة اللجنـة النقابية والادارة ، لكنت قد تشردت مع طفليّ

— ألا يصعب عليك الجمع بين عملك هنا وعملك في البيت

— بالتأكيد ، لم يكن الامر سهلا في البداية ولكن عندما تكون الجذور مُرة تكون الثمرة حلوة والحق انني أشعر بشيء من الكآبة عندما افكر بأن موعد الإحالة على المعاش قد اقترب الآن لذة حقيقية في العمل وانني اربح أو ١١٠٠ روبل شهريا اعـــاني أي متاعب بخصوص مستقبل ولديّ

وهذه ايضاً اولغا ميخائيلوفنا لقد بدأت عاملة متدربة ثم درست اثناء عملها وأصبحت منذ عام ١٩٥٢ نائبة مدير المصنع قالت لي وهي تبتسم

منذ عهد قريب جاءت صحفية اميركية لتسألني غير كيف تستطيعين العمل مع ان لك زوجاً وولدين ، وبدون خادم

ان زوج اولغـا يعمل هو الآخر في المصنع وهو عامل مختص وابنتها البالغة من العمر اثني عشر عاماً تذهب الى المدرسة وابنها الذي في الرابعـة يذهب الى الروضة. واولغا تعيش عيشة رضية مع زوجها الذي يساعدها كثيراً.

— كيف يساعدك في البيت

— الأمر غـاية في البساطة البارحة على سبيل المثال ، بينما كنت أكوي كان يقرأ لي البرافدا وهو يذهب لشراء الحاجيات، ويشرف على نزهة الصغير وفي ايام الراحة نخرج معاً والحق اننـــا لا نتبادل اطراف الحديث بمتعة إلا اثناء الاعمال البيتية او في المسرح اما في ايام العمل فلا تتاح لنـــا الفرصة لذلك البتة

والحق ايضاً انني شعرت أمـــام اولغا ان حب الزوج والاولاد يكتسب

مضموناً غنياً وقوة وجمالاً عندما تكون المرأة عاملة ومستقلة مادياً

وطبيعي ان الجمع بين العمل والأمومة ما يزال يتطلب من المرأة ان تتغلب على العديد من المصاعب الـتي لا يعرفها الرجل وهي تتغلب عليها ولقد تضاءل للغاية اليوم عدد النساء اللاتي يتهربن من العمل النافع اجتماعياً وينفرن من إرسال اولادهن إلى مؤسسات الاطفال

أما اللواتي ما زلن يفضلن إلى اليوم « مهنتهن » كزوجة على العمل المستقل ، فيمكن ان نرد عليهن بالمثل الشرقي لا تـلم الشمس بل لُم نفسك إذا لم يزهر بستانك »

مجلة « اوكتوبر »

مسيرة المرأة الصينية

بقلم : سيمون دي بوفوار

كثيراً ما يستنكر أعداء الصين الجديدة السياسة المعادية للأسرة التي ينسبونها اليها فهي تنكر ، على حد ما يزعمون ، روابط الدم ، وتدوس بأقدامها أقدس القيم ولكن ليس صحيحاً ان الصين ألغت الأسرة فكل ما تفعله هو انها تحقق التطور الذي تم في فرنسا بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر والذي أحل محل الرابطة الرعوية الرابطة الزوجية والرابطة الاولى تقوم على الملكية العقارية وفي كل مكان من الغرب أدى ظهور الصناعة والملكية المنقولة والبروليتاريا العمالية إلى زوالها والصين لم تمدأ إلا مؤخراً بالتصنع ، ولهذا فقد استمر فيها الشكل القديم للاسرة وليس الغريب ان تكون الاسرة قد شرعت اليوم بالتحول ، انما الغريب أن يأتي التغير في مثل هذا الوقت المتأخر

ان الاسرة الصينية التقليدية تجد تفسيرها في اقتصاد البلاد الزراعي وقد اتخذت شكلاً متصلباً اكثر منه في أي مكان آخر أو حضارة أخرى لأن المؤسسات جهدت لإبعاد كل مبدأ تناقض قادر على تشجيع تطورها فانتماء المرأة الرومانية إلى عشيرتين ، عشيرة الاب وعشيرة الزوج ، أدى إلى منازعات سهلت تحررها أما في الصين فقد ألغيت كل ثنائية عن طريق تجريد المرأة من صفة الشخص الانساني وكان للأب حق الحياة والموت على أولاده ، وكان غالباً

ما يستخدمه ليقضي على وجود البنات اللاتي كن يعتبرن أفواهاً لامجدية وكان في وسعه ان يبيعهن كرقيق وكان على الابن ان يطيع أباه ، وعلى الاخ الأصغر ان يطيع الاكبر ، وعلى المرأة ان تطيع الرجال جميعاً وكان الزواج يتم على يد وسيط ويفرض فرضاً على العرسان الذين ما سبق لهم التعارف

وعندما بدأت في مطلع القرن العشرين بورجوازية صناعية وتجارية بالتطور ، انهارت الأسس الاقتصادية للخلية العائلية القديمة ، لكن البنية التقليدية للاسرة بقيت على قيد الحياة بعد ان فقدت كل مبرر ، وهذا ما جعلها أشد ثقلاً ووطأة على النفس . ولم يجد العديد من النساء الصينيات من ملجأ غير الانتحار ، وكثيراً مـا كان أزواجهن من الشبان يحذون حذوهن . ولقد كانت الكراهية الزوجية بالغة العنف ، حتى ان نصف المجرمين الذين اعدموا بين ايار وأيلول ١٩٢٥ ، كما يدل احد احصاءات وزارة العدل ، انما أعدموا بتهمة قتل شريك حياتهم

وقد عبر مثقفو « حركة ٤ ايار » (١) المتمردون بصخب على النظام القديم ، عن ضغائنهم في مؤلفات ايديولوجية وأدبية لا يحصى لهـــا عد وكان الادب الصيني قد رثى لضحايا النظام العائلي منذ قرون ومعظم الاوبرات التي شاهدتها في الصين تتحدث عن عشاق رمى بهم طغيان الأقدمين إلى أحضان اليأس ففي اوبرا « العاشقان » أب متجبر يمنـــع ابنته من الزواج بالشاب الذي تحبه منذ سنوات ، ويرغمها على الزواج بشخص تجهله ، فيموت الشاب ألمـــاً وتلحق به الفتاة إلى القبر يوم عرسها وفي نهاية القرن الثامن عشر ظهرت رواية مشهورة عنوانها « حـــلم الغرفة الحمراء » ، وهي تروي انحطاط أسرة تقليدية وتصف المآسي الغرامية الـــتي ذهب ضحيتها شاب وابنة عمه ، فقد أرغم البطل على الزواج من امرأة لا يحبها وماتت البطلة يأساً وبدءاً من « ٤ أيار » تضاعفت

---

(١) حركة ثورية اجتاحت الصين في ٤ أيار ١٩١٩ وكانت حركة ديموقراطية ـ وطنية تحمل تباشير اشتراكية . « المترجم »

الروايات الموجهـــة ضد الأسرة وكان اشهرها رواية « باكان » المعنونة باسم « الأسرة »[1]

كانت الأسرة التقليدية تكبت الافراد جميعاً ، وتنكر عليهم جميعاً الحريـة والحب والسعادة الزوجية لكن النساء كن هن أولى ضحاياها ولا أعتقد ان مصيرهن البائس وجد له من مثيل في أي بلد آخر ففي كل الحضارات ، يختلط تاريـخ حقوق المرأة بتـــاريخ الارث [2] الذي تطور بدلالة مجمل التحولات الاقتصادية والاجتماعية والحـــال ان حق الارث لم يتغير في الصين منذ بداية الأزمنة التاريخية حتى القرن العشرين بسبب ثبات البنية العائلية فقد كان يستبعد المرأة ويحرمها من أي حصة في الميراث الأبوي ، ولم تكن تملك شيئاً في حياة زوجها ، وبعد وفاته ما كانت ترث منه شيئاً إلا اذا كان لها ابن ، فيكون هو الوارث الشرعي وتـكون هي ولية أمره ونظراً الى ان المرأة الصينية لم تحصل على الاستقلال الذاتي الاقتصادي ، لذا ما أمكنها ان تصل الى أي شكل من أشكال الاستقلال على مر الأجيـــال فهي لم تكن تعتبر أدنى من الرجل فحسب كما تشهد على ذلك الطقوس التي تحاط بها ولادتها ، بل لم يكن معترفاً لها ايضاً بأي حق من الحقوق ، ولا حتى بحق الحياة إذ كان هذا الحق يخص عشيرتها التي في وسعها أن تهبها إياه أو تنكره عليها . وكانت طيلة حياتها خاضعة لقاعدة « الطاعـــات الثلاث » كما صاغها لي كي « المرأة ابداً تتبع الرجل . في طفولتها تتبع أباها وأخاها البكر ، وبعد الزواج تتبع زوجها ، وبعد وفاة زوجهـــا تتبع ابنها » وقد أعلن كونفوشيوس «المرأة كائن خاضع للرجل » . ونظراً الى انهـــا قاصرة أبدية ، فإن اولادها انفسهم لا يخصونها يقول احد احفاد كونفوشيوس على لسان لي كي « تلك التي كانت زوجتي كانت ايضاً أم ابني

---

(١) غالباً ما يكون الحب بين ابنـــاء عم والسبب ان الشبان ما كانت تتاح لهم فرصة التعرف الى فتيات إلا ضمن نطاق أسرتهم

(٢) حاولت أن أبين ذلك في « الجنس الثاني »

وعندما كفت عن ان تكون زوجتي (بعد طردها) كفت عن ان تكون أم ابني » والاخلاق التقليدية تحبس المرأة في البيت الذي يتوجب عليها فيه ان تقف نفسها على الأعمال المنزلية وعلى الاهتمام بذريتها والقاعدة الاولى في دروس اخلاق المرأة الصينية كما نصت عليها « كتب النساء الاربعة » هي الطاعة

ولقد كان اضطهاد المرأة الصينية عملياً بقدر ما كان نظرياً وفي العديد من البلدان نجحت نساء الطبقات الدنيا في التحرر عينياً بواسطة العمل ، ولكن هذا الحظ لم يتح للصينيات إذ لما كانت الزراعة قد بقيت في مستوى البستنة ، لم يكن هناك ما يحول فنياً دون مشاركة النساء في عمل الحقول ومع ذلك فقد حبسن في البيت وحكم عليهن بالسخرة المنزلية ويبدو لي ان السبب في ذلك واضح ففي تلك الامبراطورية المكتظة بالسكان لم تكن اليد العاملة تساوي كثيراً بينما كان لكل حبة من الذرة ثمنها والرجال، بمطالبتهم باحتكار الانتاج، كانوا يضمنون لأنفسهم امتيازاً حيوياً ، إذ انهم سعوا هم الذين يسيطر عليهم وسواس الجوع الى حد يمنعهم من قياس مدى تعبهم ، الى إقصاء النساء لا الى استغلالهن . وبذلك تجد اللعنة التي رزحت تحتها المرأة الصينية تفسيرها فهي قد أعتبرت فماً لا مجدياً لأنه لم تكن هناك من حاجة الى قوة عملها. وكانت تمثل، بوصفها خادمة وأنثى ، قيمة بضاعية محددة ، لكن ادنى بكثير من القيمة التي يستمدها الصبي من طاقاته الانتاجية فكان من الطبيعي ان ينظر رب الأسرة ، الجائع ، المرهق بالأولاد ، الى البنت وكأنها عبء لا مجدٍ وكان يمارس فعلياً حق الحياة والموت المعطى له عليها ، إذ كان الملايين من أطفال الجنس المؤنث يُغرقون أو يُقدمون طعاماً للخنازير وقد ترسخ هذا النوع من وأد البنات في التقاليد والأعراف الى حد ان « قانون الزواج» الجديد اضطر الى النص بصراحة على انه يشكل جريمة

وحتى اذا نجت البنات من القتل المتعمد ، فما كن ليعمرن طويلاً . فقد كان

الفلاحون الصينيون يعيشون طوال حياتهم عند عتبة المجاعة وكانت حيـــاة الاطفـــال بوجه خاص منوطة بحفنة من الأرز أو الذرة ، وكان الصبيان يتلقون اكبر الحصص بينما كانت البنات يقضين من سوء التغذيـــة ، ويقعن أولى ضحايا الأوبئة والمجاعات ومن تنجو منهن ، تدبر لها ألف حيلة وحيلة للخلاص منها بأسرع ما يمكن فقد كان في وسع الأسر الغنية أو الميسورة ان تسمح لنفسها بشراء العمل المسترق بسعر بخس،وكانت الاسر الفقيرة تبيع بناتها اللاتي يتحولن الى رقيق بالمعنى الحقيقي للكلمة وعندما يدركن سن البلوغ يبعن كمحظيات للاغنياء وحتى كعاهرات للمواخير

أما مصير اللواتي يُبقى عليهن بهدف تزويجهن فلم يكن بالأرحم وإذا كان قانون الزواج القديم يضطهد الصبيان والبنات معاً ، لكن كانت هناك عـــادة تذهب ضحيتها البنات الصغيرات وحدهن، فكثيراً ما كن يُبعن لأسرة زوجهن المستقبل التي كانت تشغّلهن بقسوة لحسابها ، وإذا كانت البنت تنجو بفضل هذه العادة من الوأد ، فإنهـــا لم تكن تربح شيئاً كبيراً فقد كانت تُعامل في بيت زوجها المستقبل كدابة ، وكان يحدث ان تقتلها حماتها ضرباً ولا غرو فالحماة قـد عانت هي الأخرى في صغرها من الضرب على يد زوجها وأهله والفرصة متاحة لها الآن للانتقام وإذا لم يبد ابنها كبير عجلة في ضرب الزوجة الفتية فإنها ترغمه على ذلك وهكذا تتوالى من جيل الى جيل سلسلة الاحقاد النسوية الـــتي تذهب ضحيتها كل قادمة جديدة والحماة هي التي تجسد يومياً وبأكمل صورة الاضطهاد العائلي ولكن الزوجة الفتية تعاني ايضاً من طغيان الحمي أما الزوج ، الكاره لزوجة لم يخترهـا بنفسه ، فغالباً ما يضربها بملء ارادته ومن المأذون له ، إذا كان يملك الوسائل ، أن يعزي نفسه مع محظيات . وبالمقابل إذا زنت الزوجة ، فلا يحق لأحد ان يحتج إذا ما قتلها زوجها وفي وسعه ان يصرف زوجته متى يشاء وإذا كان لها في بعض الحالات الحق في طلب الطلاق، فإن هذا المخرج مسدود أمامها عملياً لأن أهلها يرفضون أخذها على عـــاتقهم

ثانية وقد يحدث ان يبيعها زوجها لرجل غني يتمنى محظية إما لملذته وإمـــا لإنجاب ولد منها وحتى الترمل لا يحررهـا ، فهي تبقى ملكاً لأهل زوجها ويكاد يكون من المستحيل عليها ان تفلت منهم عن طريـق زواج جديد فقد اصدر تي رتسو في عام ١٣٨٦ مرسوماً ينص على أن « الاسرة ستعفى من الخدمة العامة والبيت سيُكرم إذا ما حافظت زوجة ترملت قبل الثلاثين على ترملهـا حتى الخمسين». ومنذذاك باتت الاسر تضغط بشدة على الارامل لمنعهن من الاقتران بزوج جديد وقد جرى تعيين مفتش خاص لمراقبة أخلاق الارامل وقـــد بنيت في الصين ، حتى يوم قيـــام الجمهورية ، كمية من المعابد على شرف النساء اللاتي حافظن على عفافهن في ظروف محددة وطبيعي أن الخداع كثر بنتيجة ذلك لكن التقليد فرض نفسه ، فقد حُرم تجديد الزواج على الارامل وإذا ما تصدت أرملة لهـــذا التابو ، اعتبر رجال عشيرتها أن من واجبهم قتلهـا وهكذا باتت المرأة التي تدخل احدى الأسر بصفة زوجة لا تستطيع مفارقتها إلا اذا فارقت الحياة وهـــذا هو الحل الذي اختارته على مر العصور وحتى أيامنا هـــذه نساء صينيات كثيرات كن يغرقن انفسهن في المستنقع المجاور أو يشنقن انفسهن

أما المحظيات فكان مركزهن منوطاً كلياً بحسن ارادة زوجهن ومن تنجب أبنـــاء له تقع من نفسه موضع الرضى وترتفع منزلتها على منزلة الزوجة الشرعية العقيمة لكن منزلة المحظيـــات كانت تأتي بشكل عام بعد منزلة المرأة الشرعية ، وكان في وسع الرجل ان يصرفهن متى شاء ، ولم تكن لهن أي ضمـانة

ولم تكن المرأة تعرف نوعاً من الأمان إلا بعد ان تتقدم بها السن ، فتستحق من أولادها نفس الاحترام الذي يحظى به جميع المتقدمين في السن في الصين وكان هذا هو العزاء الوحيد الذي توعد به الصبايا المتزوجات حتى يتحملن بصبر شقاءهن لسوف تصبحين ذات يوم حماة بدورك

لقد وجدت عبودية المرأة الصينية رمزاً ساطعاً في عادة «الأقدام المعصوبة» الـــتي شاعت في القرن الثامن قبل الميلاد فقد نالت الاقدام الصغيرة لبعض الراقصات والغانيات إعجاباً كبيراً في عهد سلالة التانغ. وقد تخيل عاهل نان — تانغ ، الذي كان مولعاً بالشعر طريقة لتصغير قدم المرأة بصورة اصطناعية وقـد حولت ايروسية الصينيين هـذا الاختراع الى قانون وقد تغنى الشعراء بتلك الأقدام المصغرة الشبيهة بـ « قيثارات الذهب » و « القيثارات العاطرة ». ولقد وجد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كتاب تمردوا على هذا التشويه للجسم الانساني ولكنه لم يمنع إلا بدءاً من عام ١٩١١ وظل مع ذلك ساري المفعول لمدة طويلة من الزمن حتى انه لا يندر أن نشاهد اليوم ايضاً نساءمسنات مشوهات الاقدام

والشيء الجدير بالملاحظة ان هذه العادة لا تشكل مجرد مظهر من مظـاهر الاشتطاط الإيروسي الذي تتميز به الطبقات المسماة بالعليا ، إذ شاعت ايضاً ، على الاقل في الشمال ، بين نساء شتى الطبقات والسبب في ذلك انها تعطي طابعاً قدريـاً للمصير الذي اختار الرجال فرضه على النساء العزل فالفلاحة المشوهة تصبح عاجزة نهائياً عن العمل في الحقول وحبيسة الحياة المنزلية . وهذه الموضة لم تعم في الجنوب حيث تشارك المرأة في اعمال الحقل . والحق انالصينية الشمالية تفردت على نحو محزن بجمع كل مظاهر العبودية ، المنفصلة عادة ، الـتي ترزح تحت وطأتهـا المرأة بصفتها خادمة وبصفتها موضوعاً ايروسياً فهـذا الحيوان الاهلي ، الذي يكدح من الفجر الى الليل ، محكوم عليه بنفس المبالغة المؤلمة في التنعم والتفخل المطلوبين من الغانيات. وهذه الواقعة تبدو اليوم منفرة

---

(١) يقيم صيني قومي النزعـــة ، لين يو تانغ ، مغتاظ عن حق من عقد تفوق البيض يقيم صلة قربى بين « القدم المعصوبة » وبين « المشد » (الكورسيه) الذي يضغط على نحـــو مصطنع قـــامة الغربيات لكن المشد لم يضغط قط إلا البورجوازيات وما كانت الفلاحات يستعملنه . كما ان الكعب العالي لا يلبس إلا عند الذهاب الى الحفلات الراقصة لا اثناء العمل .

كل التنفير للصينيين حتى ان القوانين تمنع ظهور نساء معصوبات الأقدام على خشبة المسرح

لقد ارتفعت بعض اصوات على مر العصور تستنكر المصير التعس الذي خصت به النساء وقد كان لهذه الاحتجاجات طابع اخلاقي ففي القرن الثامن عشر كان المتأدبون يدعون الى اخلاق انسانية النزعة ، وكان من الصعب عليهم القبول بمعاملة الكائنات الانسانية ، ولو كانت من الجنس المؤنس ، معاملة الأشياء وشأن كل التمردات المثالية ، كان هذا التمرد عقيماً ولم يشرع وضع المرأة بالتبدل إلا عندما بدأت بنية الصين الاقتصادية بالتطور أي عندما ظهرت رأسمالية وبروليتاريا صينيتان فقد عملت نساء في المدن كعاملات وبالرغم من أن هذا كان شكلاً جديداً من العبودية ، فإن كسب البعض منهن لشيء من المال قد اعطاهن شعوراً بالاستقلال الذاتي وقد ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر في اقليم كوانغ – تونغ حركة غريبة لمعارضة الزواج فقد انشأت العاملات الشابات في كوانغ – تونغ نوعاً من المشاعات ورحن يعشن فيها من أجورهن بعد انفصالهن عن أزواجهن وقد اتسعت هذه الحركة ، التي ولدت بوجه خاص في معامل الحرير ، وأخذت ابعاداً واسعة حتى ان الحكومة اضطرت الى فتح الملاجىء لاستقبال النساء المحرومات من كل سند عائلي في أواخر ايامهن وقد كان هذا التنظيم ما يزال على قيد الحياة في كانتون في عام ١٩٤٠

لكن البورجوازية ، بوصفها الطبقة الصاعدة آنذاك ، هي التي كانت تصطدم بالمجتمع والأعراف والقوانين فالتوازي مع التمرد على الاسرة التي من النمط الاقطاعي ، قام في صفوفها تيار يؤيد تحرر النساء وقد بدأ بحياء ، وتحت تأثير الغرب جزئياً وقد افتتح آباء مرسلون في عام ١٨٦٠ مدارس البنات الاولى للتعليم الابتدائي وفي عام ١٨٩٨ انشأت جامعة تيين – تسن فرعاً نسائياً وتم وضع أول برنامج للتعليم النسوي . وفي عام ١٩٠٣ افتتحت أول

مدرسة للمعلمات وبدءاً من نهضة ١٩١٧ ، ولا سيما « حركة ٤ أيار » اتسعت الحركة اتساعاً ملحوظاً ذلك ان طبقة تطالب بدستور ديموقراطي ، وتريد ان تفرض على الصين بنية المجتمعات الغربية ، وتدعو الى مذهب انساني قائم على احترام الشخص الانساني ، وتطالب بحقوق الفرد ، ما كان في وسعها ان تقبل بأن تظل المرأة حيواناً اهلياً قال يو تشينغ — لي « حطوا من شأن المرأة ، ينحط الرجل » وقد قررت البورجوازية الصينية الفتية الشرهة الى الارتفاع اقتصادياً وثقافياً ، ان ترفع المرأة وقد ظهرت في عام ١٩١٧ أول مجلة لنصرة المرأة ، ثم تلتها مجلات اخرى كثيرة وتم افتتاح أول مدرسة ثانوية للبنات في عام ١٩١٩ ، وفي ذلك العام نفسه قبلت النساء في جامعة بكين . وقد استخدمت معظم البنات البورجوازيات هذه الحرية بخفة : فقد موّجن شعورهن ، واستبدلن الأربطة التي كانت توثق اقدامهن بجوارب حريرية وبأحذية عالية الكعاب ، وخرجن ورقصن وتذوقن الحرية الجنسية واستغلت غيرهن ، وعددهن أقل بكثير ، جدياً الامكانيات الجديدة للدراسة والعمل

وقد طالبت البورجوازية بإلغاء القانون الاقطاعي القديم لصالح قانون بورجوازي . وقد كان عليها ان تنتظر عام ١٩٣١ حتى يلبي الكيومنتانغ طلبها. وقد كان أهم تجديد في قانون الأسرة الجديد انه منح المرأة حق الإرث ومن جهة أخرى كان المذهب الفردي البورجوازي يطالب بحرية الزواج وقد نص القانون على انه لا يجوز للأهل ان يفرضوا الزواج فرضاً ، وان الزواج ليس صفقة تجارية وانه لا يجوز بالتالي للوسيطات ان يتقاضين سمسرة وقد حرم القانون عقد الخطبة قبل سن الخامسة عشرة للإناث والسابعة عشرة للذكور ومنح المرأة حق طلب الطلاق في حال خيانة زوجها لها أو اساءة معاملتها. ولم يعترف القانون بالتسري

ان الرجل البورجوازي يتمنى أن يجد في المرأة صنواً له لا عِدلاً والحق ان القانون لم يمنح كلا الجنسين الحقوق نفسها، وظل مشوباً بالتقاليد القديمة . فقد

بقيت الاسرة نسبية ، عصبية ، رعوية ، للأب فيها امتيازات خاصة فإذا ما تيتم طفل تم اختيار أوليائه ومجلس العائلة من قرابة الأب وفي حالة الطلاق يكون الاولاد من حصة الاب الذي تبقى سلطته أعلى من سلطة الأم

ولقد كانت فاعلية القانون أدنى من ذلك ايضاً على الصعيد العملي ، إذ كان الهدف منه ، شأنه شأن الكثير من القوانين الصادرة عن تشان كاي شيك ، « إنقاذ ماء الوجه وإذا كان يلبي نظرياً مطالب اتجاهات البورجوازية الفردية والليبيرالية ، ولكن ميوله المحافظة هي التي احتلت المكانة الاولى في تطبيقاته والحق ان العهد كان أحرص على النظام منه على الحرية ، فصحيح أنه حدّث البلاد سطحياً غير انه حرص على تأبيد بناها القديمة وهكذا بقيت مختلف بنود القانون حبراً على ورق على وجه الإجمال فالزواج يجب ان يكون طوعياً وحراً على سبيل المثال ، ولكن لما لم يكن توقيع الزوجين مطلوباً ، لذا لم تكن هناك من ضمانة لهذه الحرية وكانت هناك تسهيلات واسعة للتسري ، ومن قبيل ذلك منح الاب كل الامكانيات للاعتراف بأولاده غير الشرعيين وتوكيد القضاء لحق المحظية في نفقة غذائية وقد اعتبرت المحظية بوجه عام عضواً في الاسرة ، وبفضل هذه الحيلة التفت البنود المتعلقة بزنى الزوج ، إذ أن الزنى لا يوجد إلا إذا أقام الزوج علاقات جنسية «خارج الاسرة» وما دامت المحظية تقيم في البيت الزوجي ، فقد انتهت الأمور إلى المفارقة التالية وهي ان الزوج الصيني يستطيع خيانة زوجته تحت سقفها ، لا في أي مكان آخر وعلى كل الاحوال كان زنى الزوجة هو وحده الذي يشكل جنحة لها قصاصها في قانون العقوبات أما إساءة المعاملة فلم تكن تشكل سبباً كافياً للطلاق إلا إذا « جعلت التعايش مستحيلاً » ، أي إلا إذا كانت يومية ودائمة ولكن كم مرة يحق للزوج ان يضرب امرأته في الاسبوع الواحد حتى تعتبر اساءة المعاملة دائمة ؟

لقد صدر القانون تحت ضغط البورجوازيين ولصالحهم ففي الصين ، كما في

فرنسا الثورة ، لم تكن البورجوازية ، التي تعتبر نفسها طبقة شمولية ، لتهتم بأن يشاطرها غيرهـــا امتيازاتها ولم يعمل أحد على نشر قانون قـــد يؤدي إلى انقلابات اجتماعية عميقة إذا ما أصبح حقيقة واقعة. وحتى في المدن جرى تجاهله. تروي اولفـــا لانغ انه كانت ما تزال في شنغهاي وبكين في عام ١٩٣٦ نساء وأرامل يبيعهن الزوج أو أسرته بثلاثمئة دولار وصحيـح ان بعض العاملات أمسين يتزوجن بحرية ، إلا أن الصحف وتقارير المستشفيات كانت تشير يوميـاً الى قصص فتيات معذبات ، مساءة معاملتهن ، لم يجدن من سبيل الى الخلاص غير الانتحار . وفي الأرياف لم يسمع أحد بالقانون حتى مجرد سماع ، إذ كان كفيلاً بأن يؤدي الى تحرر للفلاحين لا يتمناه النظام وقد لاحظ جان إسكارا ، خبير الحقوق الصينية ، في عـــام ١٩٣٦ « ان الغالبية الساحقة من الفلاحين تجهل وستظل تجهل هذه القواعد »

* * *

بيد انـــه من ذاك التاريخ بدأ الشيوعيون بتطبيق قواعد جديـــدة وأعراف جديدة في المناطق المحررة وقد جاء « قانون الزواج » الصادر في عـــام ١٩٥٠ تتويجاً لها. وهو يؤكد حرية الفرد داخل الأسرة والمساواة الجذرية بين الجنسين، ويلغي زواج الاولاد ويحرم تبني كنـــائن — أطفال ، ويشترط القبول الحر من الزوجين اللذين يتوجب عليهما ان يسجلا كتابة اتحادهما ، ويدين قتل الاطفال ، ويحظر التسري ، ويسمح بإعـــادة زواج الأرامل ، ويمنح المرأة كالرجل حق طلب الطلاق ، ولا يعترف بأي هيمنـــة للأب على الاسرة ، فلا اسم الرجل ولا اسم أسرته يتمتع بأي امتياز بالنسبة الى اسم المرأة وأسرتها وفي حال الطلاق يُعهد بالطفل ، إذا كان ما يزال في المهد ، الى الأم ، وفيما بعد الى الأم أو الاب حسب مصلحته اذن فهو يقيم ، بخلاف قانون ١٩٣١ ، أسرة زوجية قائمة على تساوي الزوجين وحقهما في تقرير مصيرهما

وللقانون هدف عيني تبديل بنية المجتمع الريفي حسب متطلبات الاقتصاد

الجديد كان غاندي يقول لزعزعة نظام الطوائف يكفي تركيز الجهود على نقطة حساسة شرط المنبوذين وقد ركز الشيوعيون الصينيون ، بطريقة مماثلة ، جهودهم على الشرط النسوي فالمقدمة التي تقدم « قانون الزواج » الى الشعب الصيني تنوه بأنه « ليست النساء هن وحدهن اللاتي يستفدن منه ، وإنما المجتمع كله » لكن الشعار الذي يقدم على غيره اليوم لصالح المجتمع هو حرروا النساء ولبلوغ هذا الهدف تم تجنيد النساء بوجه خاص ففي عام ١٩٤٩ أنشىء « اتحاد النساء » — الذي ترأسه حالياً تسي تشانغ — الذي اندمجت به كل المنظمات النسوية الاخرى وقد تكونت « روابط نسائية » في كل المدن والقرى ، وهدفها الاول تطبيق قانون الزواج كما شكلت ايضاً « لجنة لتطبيق القانون » وقد شاركت السلطات الحكومية ودور القضاء والنقابات ومنظمات الشباب في هذا المجهود . وقد قام الادب ، وبخاصة المسرح ، بدعاية نشيطة لتحرر النساء و « للزواج الحر »

لقد ناقض القانون الجديد في الصين التقاليد التي مضت عليها لاف السنين لخمسمئة مليون فلاح ولقد استقبل هؤلاء بفرح الاصلاح الزراعي لكن إلغاء الأسرة الاقطاعية هو بالنسبة الى الكثيرين منهم فضيحة وقد اصطدم اعضاء «الروابط النسائية» والملاكات بمقاومات عنيدة وقد رويت لي في بكين القصة التالية قام فلاح مسن ، انضم بحماسة الى النظام بعد الاصلاح الزراعي وان ظل متمسكاً بحقوقه الرعوية ، بقتل احدى كنائنه التي تزوجت من جديد بعد ترمل دام سنوات وعندما أوقف قيل له ان عمله هذا يشكل جريمة يعاقب عليها « قانون الزواج » بالاعدام فسأل « من سن هذا القانون ؟ » ، فقيل له « الرئيس ماو » فهز الشيخ رأسه « لن أصدق ابداً أن رجلاً عادلاً مثله قد سن قانوناً سخيفاً كهذا »

ومما زاد الطين بلة ان الحركة بدأت بإيقاع أسرع مما ينبغي فقد حلت على الفور مئات الآلاف من الزيجات المعقودة تحت ضغط الأهل : ففي النصف الاول

من عام ١٩٥٢ بلغ عدد حالات الطلاق ٣٩٦,٠٠٠ وفي الريف لا يسمى القانون « قانون الزواج » وانما بـ « قانون الطلاق » ولا شك في انه كان لهذا التسرع ما يبرره ، ولكن الكثير من الملاكات تفاني أكثر مما ينبغي إذا جاز التعبير ، وفسر القانون تفسيراً صارماً بعض الشيء ولا سيما فيما يتعلق بالتسري . فالقانون يحرم استمرار العادة في المستقبل لكنه لا ينص على قلب الاوضاع الاجتماعية بفظاظة ولقد كان عدد المحظيات اللاتي انتحرن بعد أن أصبحن بلا منزل وبلا موارد ، كبيرا وتمرد الفلاحون وقتل عدد من الملاكات

وقد أدانت الحكومة بسرعة هذا التكتيك الأخرق فذكرت الملاكات بمبدأ « عدم الإكراه » وشرحت لها أن كسب الفلاحين يقتضي فطنة وصبراً ووقتاً وقال ليو كينغ — فان ، رئيس «لجنة تطبيق القانون» في عام ١٩٥٣ « بالرغم من أن الاقطاعية أبعدت عن حياة البلاد السياسية والاقتصادية ، إلا انها ما تزال مستمرة في الأعراف » وقد دعا الى « عمل تربوي دؤوب وصبور » وقد لاحظ تقرير عن الحالة المعنوية السائدة في شانسي — وهو اقليم محرر قبل ١٩٤٩ و « متقدم » نسبياً — أن ١٠ الى ١٥ ٪ من الاسر تتمتع بوعي اجتماعي كامل ، وأن ٥ الى ١٠ ٪ متأخرة كلياً أما بالنسبة الى الباقين (٧٥ ٪) فإن « معاملات النساء السيئة قد تلاشت ولكن فكرة السلطة الأبوية ماتزال موجودة على مختلف الدرجات

اذن ، وكما في حركة الجماعية الزراعية ، لا بد من ايجاد الخط الصحيح وتجنب القطبين المتطرفين إكراه الفلاحين والتخلي عن عمل الدعاية فالاقناع يجب أن يحل محل الإكراه لذا يجري شرح القانون في المدارس والدروس المسائية وصفوف التربية السياسية

ان الطابع « الانتقالي » للمجتمع الريفي واضح للعيان في الوقت الراهن فالأسر ما تزال تعيش تحت سقف واحد لكن بيع الاطفال وتبنيهم الكاذب لم يعد لها وجود تقريباً وأهل الزوج ما عادوا يضربون الزوجة . وكذلك

زوجها فالرابطات النسائية والمجتمع في مجمله ما عاد يسمح بذلك وقد أصبح القتل والانتحار نادرين وقد سألت كيف تمتزج المخلفات الاقطاعية عينياً بالمبادىء الحديثة ، وكيف تنهض من وسط البيئة القديمة علاقات جديدة . وعلى سبيل المثال ، اذا ما تم اصلاح روج كان فظاً في الماضي ، أفلا تظل المرأة تحمل له الضغينة ؟ وقد قالت لي السيدة شينغ في بعض الحالات أجل ، لكنها لا تظهر ذلك لأنه شرح لها انها يجب ان تغفر والنساء على وجه العموم ميالات إلى ان يغفرن بسرعة أكبر مما ينبغي ، إذ أن وراءهن تقليداً عريقاً من الخضوع بحيث انهن لا يشعرن تقريباً بالاه والزوج ؟ ألا يستشيط غيظاً ؟ اذا كانت زوجته تكسب مالاً ، وإذا لها اعتبارها كعاملة ، فإنه يكون فخوراً بها ولعله يكظم غيظه في حالات أخرى ، وعلى كل الاحوال ، انه ما عاد يلجأ الى الضرب وبالأصل ليست مشكلة العلاقات بين الزوجين هي المشكلة الشائكة فالطاغي المنزلي الحقيقي بالنسبة الى الزوجة الصبية يتجسد في حماتها. وقد لاحظت ان التربية والدعاية توليان بالغ اهتمامها للعلاقات بين الحماة والكنة . وثمة قصص كثيرة تحث النساء المسنات على التكيف مع الأعراف الجديدة كما ان الشبان ينصحون بالصبر والتهذيب وإحدى الصور الدعائية الاكثر شيوعاً تظهر « امرأة صبية وحماتها ذاهبتين معاً الى المدرسة المسائية »، إذ يبدو أن مصالحة الاجيال أصعب تحقيقاً من مصالحة الجنسين

لقد أمضت السيدة شينغ ، وهي روائية وصديقة لي ، عامين في احدى القرى وقد قالت لي أن الزوجة الشابة تسيء أحياناً استغلال الوضع الجديد ومن قبيل ذلك واحدة كانت أماً لثلاثة أطفال وتعيش مع زوجها ووالده وكانت هي التي تضرب الرجلين وكانا يشتمانها بعنف، ولكن من غير ان يجرؤا على الدفاع عن نفسها ، لأنها كانت تهددهما بإلقاء نفسها في الماء وما أكثر النساء اللاتي أغرقن أنفسهن في مستنقعات الصين تنفيذاً لمثل ذلك الوعيد ولخشية الرجلين من اتهامها بالفظاظة « الاقطاعية » ، لم يكن غضبها يتجاوز

الشتم والصراخ ، ومـــا كانت هي إلا لتزداد جرأة على ضربها وثارت ثائرة القرية وعقد رئيس التعاونية والسيدة شينغ وآخرون مجلساً وذهبوا للقاء المرأة وقرّعوها ، فهددتهم بقولها « سوف ألقي بنفسي في الماء !». فأجابوها: « هيّا ! » فلما وجدت نفسها وقد أسقط في يدها ، وعدت بإصلاح سيرتها ، وأقسم الرجلان انهما سيكيلان لها الصاع صاعين إذا لم تفعل ذلك

والحق ان حرية الزواج لم تصبح بعد حقيقة عينية واقعـــة فالكثير من المقاومات والعقبات ما يزال قائماً وكثيراً ما تهدد الأم ابنها أو ابنتها بالانتحار إذا لم يتزوجا حسب مشيئتها ثم ان شروط الحياة الفلاحية ما تزال تضع عقبات كأداء أمـــام الزواج الحر ففي السابق كانت الوسيطة تعقد ، مقابل عمولة ، الزيجات بين أبناء قرى مختلفة وقد أُلغيت هذه العادة ولكن الشبان لا تتاح لهم في الريف فرص كثيرة للالتقاء والتعارف وهكذا أعلنت الحكومة رسمياً في عـام ١٩٥٥ يوم الاحتفال بـ « عيد النساء » « في كثير من القرى ما يزال النـاس في مرحلة يجري فيها تنظيم الزواج عن طريق شخص ثالث ولا بد من الاعتراف بـأن هذا يمكن ان يشكل شكلاً من الزواج الطوعي ، إذ أن العديد من القرويين لم يعرف بعد حياة جماعية كافية » وغالباً ما تلعب دور الوسيطة « الروابط النسائية » وأعضاء الحزب والشبيبة الشيوعية لكنه لم يعد بمثـــل هـــذه الاهمية في المدن فالطلاب والمستخدمون والعمال والشبان الشيوعيون يعملون معـاً ويتعارفون إلا انـه حتى في المدن ما يزال الشبان يشلهم تقليد طويل من السلبية والحياء ولهذا تقوم الدعاية الرسمية بتشجيعهم فمن الفضائل المدنية الجرأة على مغازلة فتاة وطلب يدها . وقد قرأت الكثير من القصص التي تمتدح بطولة عاشقين تجرّآ على التواعد تحت ضوء القمر ، وبطولة فلاح شاب تجرأ على عقد محادثة مع حارته اثناء الحصاد

والفتيات أكثر تحفظاً أيضاً من الفتيان وقد رسمت السيدة شينغ في احدى رواياتها شخصية طالبة جامعية متقدمة الافكار يحبها العديد من زملائها في صمت.

ولكن الفتاة تختار ان تتزوج لا من تحب ، بل أول من يجرؤ على إعلان حبه لها. وهذا ليس بالشيء النادر وقد قالت لي السيدة تسي دات يوم « عندما يهتم عدد من الفتيان بفتاة ، فإنها تتزوج عادة لا من تؤثره على غيره ، بل أول من يتكلم » ومن جهة أخرى ، يوجه اللوم الى الفتيات لأنهن ما يزلن ينظرن بوجه عام الى الزواج كصفقة وقد قالت لي السيدة شينغ «لقد عوملن دائماً كبضاعة ، لذا فهن ينظرن الى أنفسهن الآن و كأنهن بضاعة حقاً وقد فضحت صحيفة كوانغ — مينغ في أيار ١٩٥٥ الروح « البورجوازية التي ما تزال تملي الكثير من الزيجات فكثير من الفتيات يبحثن عن روج يقوم بأودهن من غير أن يحتجن الى العمل والعاملات يرغبن في روج غني بما فيه الكفاية حتى يكون في وسعهن ترك المصنع والقرويات يحلمن بالذهاب للعيش في المدن وقد قالت لي السيدة شينغ « لن تتحرر النساء حقاً إلا يوم يكسبن حياتهن بأنفسهن »

وواضح ان الاستقلال الاقتصادي والحرية صنوان لا يفترقان وأحد أسباب حملة التحرير جعل قوة عمل النساء قابلة للاستخدام وعلى العكس من ذلك ، وطالما بقيت القروية أسيرة السخرة المنزلية ، تبقى في نظر أسرتها وأقاربها كائناً نصف طفيلي ، بالرغم من أن الاصلاح الزراعي منحها حصتها من الارض . وعندما تساهم في أعمال الحقل داخل المجموعة العائلية ، تظل مساهمتها الاقتصادية غامضة ولا تأخذ طابعاً فردياً واضحاً وبالمقابل ، عندما تدفع التعاونية للمرأة أجرة تخصها شخصياً ، لا يعود أحد يشعر بأن له حقوقاً عليها وتكون قد اكتسبت حقاً استقلالها الذاتي وانما عن طريق توسيع التعاونيات سيتم تحرر الفلاحة الصينية

ثمة نص دعائي[1] يروي قصة صراع بين عروس فتية وحماتها فكين—كوي

---

(١) « المغزل » لشاو شو - لي

شغيلة نموذجية ورئيسة الرابطة النسائية وبدلاً من أن تغزل على مغزلها، تفضل أن تبيع الفحم شتاء وأن تعمل في الحقول صيفاً وتتشكى الحماة بمرارة من ذلك لابنتها يوم تزورها هذه وعندما تعود كين — كوي الى البيت ، تسمع حديث حماتها مع ابنتها ، فتدافع عن نفسها ضد اللوم الموجه اليها وتقول « قوموا بالحساب ان غزل ليبرة من القطن وكسب خمسة شينغات من الأرز يتطلب يومين من العمل وأنا استطيع أن ابيع ما فيه الكفاية من الفحم في يوم واحد لأكسب بسهولة خمسة شينغات من الارز أفليس هذا أفضل ؟ ثم انني احتاج إلى يومين لأخيط ثوباً ، وإلى سبعة أيام لأحصل على حذاء ، وفي المجموع تسعة أيام وأنا أكسب خمسة شينغات أرزاً يومياً ، وفي تسعة أيام خمسة وأربعين ومقابل عشرين شينغاً استطيع الحصول على ثوب وحذاء أفضل من اللذين أصنعهما بنفسي ، فالربح اذن واضح » وهنا يقول العديل لزوجته « اقتدي بمثال كين — كوي وإذا أردتن ، انتن النساء ، أن تتحررن حقاً ، فعليكن أن تعملن المزيد وأن تتحملن مسؤوليات أكثر هذا هو أثمن مغازلكن »

وفي المدن ما تزال غالبية النساء ربات بيوت ولكن ربات البيوت نظمن أنفسهن في العديد من الاماكن وقد شكلت البعض منهن منذ عام ١٩٥٠ فرقاً للمساعدة المتبادلة وقد وجدت في البداية مقاومات ، لكن جميع نساء العمال تشارك فيها اليوم فأطفالهن يمضون النهار في مزاود وفي حالة المرض أو الارهاق ترسل اليهن « خدمات المساعدة » مندوبات للاهتمام بالمطبخ والبيت والاطفال ويحضرن دروساً مسائية ثلاث مرات في الاسبوع فيقرأن الصحف ويستمعن الى الاذاعة ويتلقين دروساً في التدبير المنزلي والثقافة السياسية

أما العاملات فأجورهن مساوية لأجور الرجال ، وفي وسعهن إرسال أطفالهن الى المزاود ، ولهن إجازة حمل وأمومة ، ويحلن على التقاعد بدءاً من الخامسة والاربعين ولكن عددهن ما يزال قليلاً وإذا كان ٦٠ ٪ من الشغيلة

في معامل النسيج من النساء ، لكن نسبتهن في الصناعات الميكانيكية لا تتجاوز ٧ ٪ في شنغهاي وقد ارتفع عددهن في كوانغ – تونغ من ١١٠,٠٠٠ في عام ١٩٥٢ إلى ١٧٠,٠٠٠ في عام ١٩٥٤ أما فيما يتعلق بالمهن الحرة فتشير التقارير إلى أن نسبة النساء في الجامعات والمعاهد ١٧ ٪ ، وبين رؤساء المحاكم ١٢ ٪ وبين مستخدمي المصارف ١٦ ٪

وفي هذا المجال ، كما في كثير من المجالات الاخرى ، نلفي في الصين نماذج في غاية التخلف وأخرى في غاية التقدم فالعديد من الفلاحات ما يزال يرزح تحت وطأة التقاليد ، ولكن هناك بالمقابل نساء يقدن قاطرات ، وأخريات وزيرات. وأكثر الفئات انعتاقاً من العقلية القديمة هي فئة طالبات الجامعة فهن يشعرن بنفس مسؤولية الرجال واستقلالهم وقد تكلمت طوال ساعتين على انفراد مع طالبة طب تتقن الفرنسية ولم ألاحظ أثراً عندها « لعقدة النقص » ، ولا لنزعة توكيد الذات كردّ فعل لتلك العقدة وكانت جميلة وأنيقة معاً ، وفي السنة الثانية من الدراسة ، وتريد اختيار الجراحة ، ولكنها تعتقد بشيء من الاسف انهم سيرغمونها على اختيار الجراحة النسائية وقد أشرفت حتى الآن على عدد من الولادات ، محاولة تطبيق طريقة الولادة بلا ألم ، وفي معظم الحالات حققت نجاحاً ملحوظاً ، وهي فخورة بذلك انها تعيش في الوقت الراهن في بكين لدى أهلها ، وتعلم انهم سيرسلونها إلى منطقة نائية في المستقبل ، وسوف يكون هذا المنفى شاقاً عليها بعض الشيء نظراً إلى ندرة الاجازات وبعد المسافات . ولكنها تقول بثقة « عندما يكون المرء شاباً ، يتكيف وأنا أفضل أن أذهب حيث أكون أكثر نفعاً » والحق ان هذه ليست جملة جوفاء، إذ من الواضح أن المهم بالنسبة اليها أن تتعلم وتخدم والطالبات الجامعيات لا يفكرن أبداً في الصين بهجر عملهن يوم زواجهن . فهن قد تلقين من الدولة تعليماً ورعاية ، ويرغبن في سداد دينهن. وانني لأذكر ما قالته لي الطالبات الجامعيات في الولايات المتحدة : « سوف نعمل عاماً أو عامين لأن هذه أفضل طريقة

لإيجاد زوج . لكن ليست المهنة هي التي تهمنا ، وانما الزواج »

وقد سألت الطالبة عما إذا كان يوجد في الكلية تنافس بين الذكور والإناث ، وقد أثار السؤال دهشتها إذ لا وجود في الصين لمثقف مهدد بالبطالة ، وهناك نقص في الملاكات ، والوظائف متوفرة للجميع . والمرأة لا تبدو للرجل كمنافسة . ونظراً إلى استعباد المرأة كان راسخ الجذور في الصين في الماضي ، لذا لم يشعر الرجال بالحاجة الى توكيد تفوقهم داخلياً بتطويرهم عقد الرجولة . ولقد سحقتهم سلطة الأقدمين بما فيه الكفاية يوم كانوا شباناً بحيث انعدمت لديهم نزعة التزهو بفتوحاتهم الجنسية والواقع أن أسطورة الرجولة وصراع الجنسين لم يوجدا قط لدى الصينيين [1] وهذا بالضبط ما يجعل قصصهم الغرامية القديمة بالغة التأثير في النفس . فالعشاق لا يتواجهون من خلال الفروق القائمة بينهم ، بل يشعرون على العكس بتضامنهم وارتباطهم من خلال شقاء شرطهم المشترك : الشباب . ولذا يحاولون أن يناضلوا معاً ضد الجيل القديم الذي يضطهدهم وبذلك يكون الحب أشبه بالصداقة . والشبيبة الصينية ، التي تخلصت اليوم من المفاهيم الاقطاعية ، تجد نفسها وقد قفزت مرحلة كاملة . فلا أساطير تفصل بين الرجال والنساء ، وهم لا يتصورون العلاقات فيما بينهم كامتحان قوة

وهم بالأصل لا يعلقون عليها كبير أهمية وقد قالت لي السيدة لو تا — كانغ ، الاستاذة في جامعة بكين ، ان الغزل لا وجود له بين الطلاب والطالبات ، وأضافت « انهم جديون للغاية ، وربما أكثر مما ينبغي »

ان العديد من الزيجات يقرر في الجامعة ، ولكن لا تسبق ذلك أي فوضى عاطفية فالعمل يظل هو الأساسي وعندما يقرر طالب وطالبة أن يتزوجا ، يعلمان بذلك الإدارة التي تسجل قرارهما بهدف توفير وظيفة مزدوجة لهما يوم تخرجهما من الجامعة وبالفعل ، ان الدولة تضمن العمل لكل مجاز ، ولكنها

---

(١) كانت الايروسية منبعاً للذة عندهم ، لا ممارسة لتوكيد الذات .

تستطيع ان ترسله حيث يحلو لها وبالرغم من أن رغبات كل فرد تؤخذ بعين الاعتبار، فإن تلبيتها لا تكون ممكنة دوماً وقد يحدث أن يفصل الزوجان احدهما عن الآخر لمدة عام أو عامين ، ولكن يندر ان يدوم الانفصال أكثر من ذلك ، لأن الدولة تحترم العائلة في شكلها الحديث ومع ذلك فإن مرتبة الزواج تأتي بعد خدمة البلاد وهو يقوم من حيث المبدأ على التقدير أكثر منه على العواطف وعندما يُسأل الخطيبان في مكتب التسجيل لمَ وقع اختيارهما على بعضهما للزواج ، يكون الجواب الكلاسيكي « لأنه شغّيل جيد ». وقد قيل لي إن الطلاب يفضلون الفتيات اللواتي يتقنّ العمل وانه لمن المؤكد أن الحب على ما يبدو لا يلعب دوراً كبيراً في حياة الشبيبة الصينية ويوجه الكثير من المراقبين الغربيين ، حتى ذوي النية الحسنة منهم ، اللوم الى النظام الجديد على هذا التزمت والحق انه يمثل على العكس تركة من الماضي فقد كان الفراش لمدة طويلة من الزمن بمثابة استعباد بغيض للمرأة الصينية حتى أن همها الاول أصبح الخلاص من هذا الإكراه فليست الحماسة الاشتراكية هي التي تمنعها من أن تحلم بالرجل ، ولكنها تستقبل بحماسةٍ الاشتراكية التي تحررها من الرحل ففي الغرب تعلق المرأة ، بما في ذلك تلك التي تقدم مهنتها على كل شيء آخر قيمة ايجابية على الحب أما بالنسبة الى المرأة الصينية فإن الحب يترافق ، من أعلى السلم الاجتماعي الى أسفله ، بمُعامل سلبي وقد ذهلت من رد فعل السيدة شينغ التي كانت تشهد الى جانبي اوبرا فيها مشهد اغتصاب فقد كانت البطلة الشابة تدافع عن نفسها بجنون ضد مآرب امبراطور فاسق وقالت لي السيدة شينغ بحرارة « هذا هو السبب الذي أرادت النساء الصينيات من أجله الثورة: حتى يكون لهن الحق في عدم الحب » إن من الناس من يقول ان الصينيات باردات ولكن البرودة ليست معطى فيزيولوجياً ، وانما هي رد فعل معقد وهي تعبر بالتأكيد لدى المرأة الصينية عن النفور من الاغتصاب التقليدي الذي اختلط في نظرها طوال قرون بالحب ولا مناص لها من أن تتحرر نهائياً من

وطأة الماضي حتى يمكنها أن تقف موقفاً ايجابياً تشعر فيه بالغبطة لا لأنها أفلتت من الحب ، بل لأنها أمست حرة في أن تحب على الوجه الذي يحلو لها

اذن فالنظام بعيد عن ان يعتبر الحب تظاهرة من تظاهرات النزعة الفردية فالنزعة الفردية تلقى على العكس التشجيع لأن المطلوب هو تحرير الاشخاص من الطوائف الاجتماعية التي كانت بمثابة سجن لهم ومن هنا يعتبر الحب أيضاً عاطفة تقدمية ، لأنه يعني الخلاص من الامتثالية القديمة والتدليل على الاستقلال الذاتي والقادر على الحب هو حتماً شخص متقدم »

بيد ان الزواج في الصين يظل على كل الاحوال زواج عقل أكثر منه زواج هوى والتضامن بين الزوجين هو صورة عن التضامن الذي يربط كلاً منهما بالوطن ولكن في حالة نشوب نزاع ، من تكون له الأولوية الزوجة أو المواطنة ؟ في تشرين الثاني ١٩٥٤ طرحت « مجلة نساء الصين الجديدة قضية ناقشتها القارئات بحماسة قضية مناضلة شيوعية تدعى يانغ — يون ، انتحرت

كانت يانغ — يون في السابعة والثلاثين ، وأمينة سر نقابة فوشن المركزية وعضواً هاماً في الحزب وكانت قد تزوجت في عام ١٩٣٣ ، وهي في سن الثامنة عشرة ، شخصاً يدعى شيه — بين سافر الى يينان بينما كانت تعمل هي في منطقة الكيومنتانغ لقد فصلت بينهما الحرب الاهلية ، وفي عام ١٩٤٥ فقدا الاتصال فيما بينهما نهائياً . وكان القانون يسمح بالتزوج من جديد إذا انقطعت أخبار احد الزوجين مدة ثلاثة أعوام متتالية وهذا ما فعله شيه — بين ، فقد تزوج شيوعية أخرى وفي عام ١٩٤٩ ، التقى مع يانغ — يون من جديد ، فقدمت لتعيش معه لكن الزوج أراد ان يكون الموقف واضحاً ، وطلب الانفصال شرعياً عن يانغ — يون. وقد وجه اليه اللوم على زواجه الثاني المتسرع، لكن الطلاق تمت الموافقة عليه فسممت يانغ — يون آنذاك نفسها واثناء الاستفتاء الذي أجرته المجلة ، اتهمت مراسلات كثيرات الزوج ، ولكن الغالبية

وجهت اللوم الى يانغ–يون فعندما يكون الوطن في سبيله الى بناء الاشتراكية، لا يجوز للمرء ان ينتحر بسبب قصة زواج وحياة عضو الحزب تخص الحزب بل جاء في احدى الرسائل ان هذا الانتحار يشكل « فعلاً فردي النزعة لا يغتفر »

ولكم هو اصلاً المذهب الرسمي الوطن اولاً ومع ذلك انتحرت يانغ – يون والواقع ان العلاقة بين الحب وبين الرغبة في خدمة الوطن والرغبة في تحقيق الذات تأخذ لدى كل صينية وجهاً متفرداً وحتى يكون في وسعنا اكتشاف تعقيد المسألة، لا بد ان تكون لنا معرفة طويلة بالكثيرات منهن ولكم بودي لو انهن يتمكن ذات يوم من أن يقدمن شهادة صادقة عن هذه المرحلة التي يعشنها الآن

* * *

ثمة مشكلة أساسية لا مناص من طرحها ما سياسة النسل في الصين ؟ لقد كان الغربيون يعجبون في الماضي بالتناغم الحكيم الذي كان يخفض عدد الصينيين الأحياء بواسطة الفيضانات والمجاعات والكوليرا ووفيات الاطفال وهناك من يأسف اليوم على ان النظام قد شذ عن حكمة الطبيعة تلك فقد أوقفت الأوبئة، وأقيمت السدود في وجه الفيضانات، ومعظم المواليد يبقون على قيد الحياة ففي كل عام يولد سبعة وثلاثون شخصاً من أصل ألف مواطن، ولا يموت سوى سبعة عشر وعلى هذا فسكان الصين يزدادون بمقدار عشرة ملايين نسمة في العام الواحد وفي كل أربعة أعوام يظهر في الصين معادل سكان ايطاليا أو فرنسا والمشكل أن من الصعوبة بمكان اليوم تأمين مستوى حياة لائق لجميع الصينيين والقادة يعدون الجماهير بارتفاع تدريجي لمستوى حياتها ولكن اذا ما استمر عدد السكان في التضاعف، فماذا سيحدث ؟ ان الخطة الخمسية على سبيل المثال تتوقع ان المدارس الابتدائية ستضم في عام ١٩٥٧ حوالي ٧٠ ٪ من الاطفال فإذا ما ولد ٤٠ مليون طفل من اليوم حتى عام ١٩٥٩، أفلن تكون نسبة

الأميـــة هـــائلة ؟ والحق انه شعباً أخـــذ مصيره بين يديـــه لا يمكـــن ان يقبل بهذا التكاثر غير المنظم فمن بين العوامل التي كفلت للولايات المتحدة اردهارها، سياستها النسلية وبالمقابل فإن الهند ترزح تحت وطأة تكاثر السكان الذين لا تتوصل الى إطعامهم اذن فما موقف النظام في الصين من مسألة تحديد النسل ؟ لقد سألت احدى نائبات رئيسة « الرابطة النسائية »، فأجابتني بحرج: « في المدن ، يتبع الزوجـــان مبدأ تخطيط النسل ولكن ليست كذلك هي الحال في الأرياف والإجهاض مسموح به في حالة الخطر ، وإلا فإنه يعد جريمة يعاقب عليهـــا القانون » ولقد حصلت لحسن الحظ على أجوبة أوضح خلال مقابلة مع نائب الوزير تشين—يي الذي استقبلنا في حوالي ١ تشرين الاول ١٩٥٥

لقد حمله السؤال على الابتسام ، وقـــال «سبق ن طرح علي فقد سألني أعضاء من حزب العمال الانكليزي عما إذ لم يكن تكاثر السكان يؤدي بالضرورة الى الامبريالية » وأضاف بشيء من الغيظ « أجبتهم ان الهنـد تشكو من انفجار السكان ، أما انكلترا فلا ، ومع ذلك فإن انكلترا هي التي غزت الهند». ثم شرح لي مفصلاً كيف ان السؤال الوحيد هو معرفة ما اذا كان اقتصاد أمة من الأمم امبريالياً أم لا والحال ان الصين ليس لها أي مطمع في سائر العالم فهي تملك مصادر طبيعية هائلة لم تستغل بعد ، ولسوف يكون من السهل استيعـاب فائض سكانها ضمن حدودها وتكلم عن اقليم سيكيانغ الذي لا يسكنه بعد غير البدو ، وعن غيره من الاراضي العذراء التي تنتظر التعمير والفحم والحديـد والنفط موفورة بكميات غزيرة ، واستخراجها يحتاج الى زنود وسوف تنشـأ مراكز صناعية كبرى داخل البلاد وصحيح ان هناك اليوم قليلاً من البطالة ولكن هذا لا يعني انه ينبغي تخفيض عدد السكان فالبطالة ستنتهي يوم تدرك البـلاد درجة عليا من الاستثمار وبانتظار هذا المستقبل القريب يتوجب على العكس ، زيادة قوة العمل المتـــاحة ، أي عدد الشغيلة ان الصين بحاجة الى زيادة انتاجها لإرضاء سكانهـــا ، لكن الانتاج لن يرتفع إلا د ر د السكان .

والمدن تضم اليوم ١٠٠ مليون نسمة ، ولن يزداد الرقم داخل كل مدينة وانما ستشاد مدن جديد

هل هذا يعني ان الصين لا تفكر بتحديد النسل ؟ كلا ، انها تفكر بذلك فارتفـــاع نسبة المواليد سبب الكثير من الشرور وفيات الاطفال ، قتل الاطفال ، الخ وتقدر الحكومة ان ازدهار الفرد والمجموع يتطلب بصدد هذا الموضوع سياسة عقلانية وهذه السياسة لن تكون مالتسوية متعارضة مع روح الماركسية ، وانما ستكون سياسة « تخطيط » فمن المطلوب ان يكون في وسع العرسان أن ينتظروا عامين أو ثلاثة أعوام قبل ان ينجبوا طفلهم الاول ، وان يكون في وسع الأمهات المرهقات بكثرة أطفالهن أن يمنحن أنفسهن فترة من الراحة ، وأن تكون جميع الأسر قادرة على موازنة ميزانيتها وتنظيم وجودها. اذن فسياسة المواليد معقدة بعض الشيء فالصين بحاجة من جهة اولى الى الأيدي العاملة وفي هذا الصدد قال تشين — « لهذا السبب لم نعمل على إطلاق الحركة ، خوفاً من تجاوز الهدف » لكن من الواجب الاحتراس من اخطـــار انفجار السكان ولهذا تُنشر طرق منع الحمل من دون ممارسة ضغط شديد

وقد علمت فيما بعد ان هذا التيار بدأ بالظهور في عـــام ١٩٥٤ ففي المؤتمر القومي الشعبي صرح قائد مسن له من العمر ثلاثة وسبعون عاماً ، هو شاو لي — تسو ، صرح قائلاً « انه لحمل مرهق للأمهات أن يضعن كل عام اننا لا نتكلم عن الإجهاض ، لكن من الواجب نشر معرفة طرق تحديد النسل ، من الواجب تقديم تعليمات عملية عن طرق ووسائل تحديد النسل وفي كانون الاول أعلنت صحيفة بكين كوانغ — مينغ ان الحكومة قـــد سمحت بتحديد النسل وفي كانون الثاني وآذار ١٩٥٥ قدمت مجلة « نساء الصين » الشهرية تعليمات مفصلة عن طرق منع الحمل ، وتولت وزارة الصحة الإشراف على صناعة العوازل. والقانون متسامح حتى في موضوع الإجهاض « الإجهاض مسموح به في كل الحالات التي لا يكون من المستحسن طبياً فيها الاستمرار في الحمل ، أو إذا كان عدد الولادات

زائداً عن الحد ولا بد من موافقة الاب والأم ، ومن شهادة طبيـــة ، ومن موافقة ممثل مأذون للحكومة» والواقع ان الاذن يمنح بدءاً من الولد الخامس. وفي جميع دور التوليد والمستوصفات تعطى ، بالاضافـة الى العناية الطبيـة ، دروس في طرائق منـع الحمل ويبدو ان الدعاية الرسمية بالذات لا تحجم عن استخدام لافتات واعلانات فجة وصريحة وفي الصيدليات كافة تباع المنتجات الضرورية لمنع الحمل

وقد أكد المؤتمر الثامن للحزب الشيوعي الصيني في ايلول ١٩٥٦ من جديد هذا الخط. وقد صرحت السيدة تسي تشانغ، رئيسة اتحاد النساء الديموقراطيات، ان على الصين ان تطبق بحزم سياسة تحديد النسل وقد صدرت تعليمات بهـذا الخصوص منذ شهر آذار وخصصت لها الصحافة دعاية واسعة (١)

* * *

ان اعداء الشيوعية يتهمون الصين الجديدة بإلغاء الأسرة وإبادة الفرد معاً ، لكن كلتا التهمتين كاذبتان فالأسرة مصونة ومكرمة بقدر ما تكون قائمة على علاقات حرة بين الأفراد وما ألغته الصين الجديدة انمـا هو استلاب الشخص الانساني من قبل مؤسسة اضطهادية وشبه مقدسة ويشدد الرجعيون اللهجة على « مكيافيلية » هـذه السياسة التي لا تهدف في نظرهم إلا الى تسهيل تطبيق الجماعية على الاراضي لكن يبدو لي على العكس انـــه لما يستدعي الاعجاب أن تترافق النزعة النفعية الاقتصادية بنزعة انسانية والواقع ان الارتباط بين البنية التحتية والبنية الفوقية في الصين الحديثة وثيق للغاية الى حد انهما تتحدان في بعض الميادين فللعامل الاجتماعي بُعد اقتصادي ، لكن الانتاجية متعلقة بالعامل الانساني ومن هنا فإن التقدم نحو الاشتراكية يستدعي تحرر الفرد

(١) ان الاتجاه نحو سياسة تحديد النسل قد تعزز اكثر فأكثر في الصين في السنوات اللاحقة. « المعرب »

وتوكيد حقه في تقرير مصيره بنفسه ولقد أصبح الزواج والأمومة حرين وبات الحب يعتبر قيمـــة « تقدمية » والصبوات الشخصية والواجباب ازاء الوطن تتوافق وتتناغم بدلاً من ان تتناقض ففي سبيل خير المجموع، يتوجب على كل فرد ان يريد صالح نفسه وطريق نشر الجماعية هو ايضاً الطريق الذي يوصل المرأة الى كرامة انسانية ، والشبان الى الحرية واذا كانت البورجوازية قـد تباهت في الماضي بأنها كشفت لأوروبا عن السعادة ، فإن عليها ان تعجب اليوم بكون السعادة قد اصبحت أساس التفاني في سبيل الوطن في الصين

من كتاب « المسيرة الطويلة »

فهرست

تقديم المعرب			٥
الاشتراكية والمرأة	بقلم	جان فريفيل	١٧
الشيوعية والزواج	«	دافيد ريازانوف	٣٣
لينين والمسألة الجنسية		كلارا زتكين	٧١
رأي لينين في الحب الحر		لينين	٨٧
حدود التصور الماركسي عن مشكلة المر		فرانسواز دوبون	٩٥
شرط المرأة في العالم المعاصر		جان بلي	١١٧
النضال ضد الاضطهاد الجنسي		جان — ماري بروم	١٢٣
وهلم رايش والاخلاق الجنسية الثورية		بوريس فرانكيل	١٤٧
مقتطفات من وهلم رايش		وهلم رايش	١٦٣
الفرويدية والماركسية		ميشيل دبو	١٨١
مشكلات شرط المرأة الاجتماعي	«	فيرا تومسيك	٢٠١
المشكلات الراهنة للمرأة السوفياتية	«	فيرا بشتي	٢٢٩
مسيرة المرأة الصينية	«	سيمون دي بوفوار	٢٤٣

هـذا الكـتاب

كيف تواجه الاشتراكية ، بمختلف أشكالها مشكـلات المرأة ، على اختلاف صورها

هذا هو الموضوع الهام الذي يعالجه هذا الكتاب وقد تناول موضوعاته عدد من المفكرين والكتاب الاجتماعيين الذين اهتموا بوضع المرأة بصورة عامة ، فكتب ريازانوف عن « الشيوعية ، والزواج » ولينين عن « المأساة الجنسية » وبابلو عن « الفرويدية والماركسية وتومسيك عن « مشكلات شرط المرأة الاجتماعي ، وفيرابلشاي عن « المشكلات الراهنة للمرأة السوفياتية » وسيمون دوبوفوار عن « مسيرة المرأة الصينية » وسواهم كما أن هناك فصلا هاماً يسرد رأي لينين في الحب الحر

كتـاب عظيم الأهمية يبين ما حققته المرأة المعاصرة مـن تطوّر في ظل الاشتراكية

الثمن ١١٠٠ ق. ل. أو ما يعادلها